الحكمة أولاً !

الدكتورة نجاح العطار
وزيرة الثقافة

ما نحتاجه ، في هذه الظروف الصعبة ، هو الحكمة والشجاعة .
الرأي : قال المتنبي : قبل شجاعة الشجعان .
والمتنبي ، كما تعلمون ، رفع الشجاعة الى أعلى عليين .
ففي جفن الردى كان سيف الدولة يقيم ، وهذا ، في الشجاعة ، حسبه .
والصورة هذه ، في مجد روعتها ، رسمها شاعر لفارس ،
فكانت لنا ، من بعد ، صورة للتأريخ والتاريخ معاً ،
لكنها ، في فرادة ذاتها ، استولدت صورة بنفس روعتها وفرادتها ،
حين قرنت ، على نحو بالغ الدلالة ، بين الشجاعة والرأي ،
فقدمت الرأي الذي في حكمته تنطوي حكمة شجاعة ، وتلك مأثرة القيادة .
إذ تعرف ، عبر التجربة ، موقع الندى وموقع السيف ،
جامعة على نحو عميق في الفهم ، بين هذا وذاك ،
مرونة في الأخذ والعطاء ، وصلابة في الثبات على المبدأ ،

فيها من « شعرة معاوية » ذكاء ، ومن فتكة خالد بلاء ،
وهذا ما يسمونه السياسة في القيادة ،
وما يسمونه ، أيضا ، الحرب سياسة بطريقة أخرى .

* * *

إنما علينا ، ههنا ، أن نتوقف أمام ظاهرة تاريخية هي في النادرات ،
عندما تجتمع في شخص واحد : الشجاعة والحكمة ،
متيحة ، في اتساق المسيرة ، للفرد أن يلعب دوره في التاريخ ،
فيكون ، عندئذ ، قائداً من طراز خاص ، ذا طاقة قيادية خاصة ،
تسمح له أن يسلك الى القمة درب العظماء الأمجاد .

* * *

هذا القائد ، في هذا الوطن ، هو حافظ الأسـد ،
وليس هذا من عنديات كاتبة ، مهما تبلغ من شأو التحليل والتدليل ،
بل هو معطى وقائع ، عمرها الآن اثنان وعشرون عاما ،
ففي الموالاة ، وكذلك في نقيضها ، يصبح الكلام لغواً دون بيّنة ،
وبالنسبة لي ، ولكم ، البينات تستعلن في المنجزات ،
فانظروا منجزاتنا سلما وحربا ، وأيديكم على قلوبكم ،
ثم قولوا قولاً فيه نصفة للواقع والضمير ،
وأنا زعيمة أن قولكم سيكون في كفة الحقيقة ، أو تمارون .

* * *

لقد قلت في استفتاء البيعة : إنها ضرورة وطنية وقومية وإنسانية ،
وكان هذا الكلام ذا سند في الاندفاعة العفوية للجماهير ،
وكان ذا جذر في فهم الضرورة التاريخية التي تبررت بكلمة « نعم » .

واليوم، أكثر من الأمس، تصبح هذه الضرورة مطلوبة أكثر منها طالبة،
لأن الظروف الصعبة التي تحيق بالعرب من الجهات الأربع ،
تفترض أن يكون لنا حافظ الأســد ، حتى ولو لم يكن كائنا .
ففي حكمته وشجاعته يخضلّ البان ، أملاً على موعد لا يخيب ،
لأنه هو ، بالرأي السديد ، والقلب الجسور ، من يقودنا الى التخطّي ،
ومن يأخذ بنا في الصراط المستقيم لتجاوز المصاعب المحيقة ،
ومن يصلح لممارسة سياسة واقعية ، تدرك المتغيرات حق الإدراك ،
ومن يجمع ما بين الواقعية في السياسة ، والثبوتية في المبدئية .
وفي مثل هذا الجمع ، الــذي يتجلى في الممارسة ، يمكن شق الطريق الوعر الى الهدف الأسمى ،
ودون ذلك لن نصل الى ما نرتجي ، من ظفر يطول شوطه ويطول .
ونحن نمد له بحبل الأمل والقوة مهما طال وبطل .

* * *

إن البيان الأول للحركة التصحيحية كان ميثاقاً وشرطاً ،
الميثاق هو العهد ، والشرط هو العقد المتبادل بيننا كشعب وبينه كقائد ،
ولم يكن هناك قَسَم ، لكن حافظ الأســد ، اعتبر بيانه قسماً فأنفذه وبرّه ،
اعتبره عهداً ، وبصدق إيمانه وفى بعهده الذي كان مسئولا ،
فإذا نشدنا البرهان ، سطع البرهان في يمناه كتابا ،
لهذا فإن روعة القسم ، بعد روعة البيعة ، يصبح عرفاً دستورياً ،
يؤديه براحة ضمير، ووثوق وجدان، وطاقة على التنفيذ لا يعتورها شك،

وتتقبل نحن قسمه باحتفاء ، وابتهاج ، وترحاب بالولاية الجديدة التي يطأ عتباتها ،

وبين الجارحة والجارحة من صدره عزم لا يلين على أن تكون ولاية للعمل ، والتغيير ، والإصلاح ،

ولاية تتجدد فيها الإرادة المتفائلة ، وتجدد معها كل ما تقادم عليه الزمن من شئون حياتنا .

* * *

وإذا كان هذا العقد من قرننا هو عقد المتغيرات ،

فإننا ، في سورية ، قد لحظناه وهو في رحم الغيب ، وترجمناه .

وكان السبق في ذلك : لقائد يسبق الأحداث ، فلا يلحق بها أو يأتي بعدها ،

مدركاً بحدة بصر وبصيرة ، أن التجدد قانون الحياة ،

وأن التعامل مع الجديد ينطلق ، ويحتم ، من تجدد الأفكار أولاً :

وهذا هو الدرس الذي وعاه ، وعمل ، طول عهده ، على أن نعيه ، ودون كلل :

والوعي بالمتغيرات ، يتطلب تغيرا في العقلية ، وأخذاً بمبدأ الحوار الصريح والبنّاء ، مع كل الأطراف ،

وجَعْلَ التعددية السياسية ، والعلنية الفكرية ، من نسيج ممارساتنا اليومية ،

مع اعتماد التحليل ، وتقليب المسلّمات ، على وجوهها كافة ، ورفض صَنَمِيَّتِها اذا لم نطمئن اليها .

والإقلال من الحماسة اللفظية ، واللهجة الخطابية ، وذر قشور البلاغة الشكلية مع الريح ،

فنحن في زمن المعلوماتية ، التي تعتمد الواقعة . الفكرة . الرقم . لا المشايلة المجانية ،

ونحن نواجه عدواً شرساً ، سلاحه التقنية ، وبنفس سلاحه ينبغي أن ننازله ،

ويأتي البناء الاقتصادي ، في الاعتماد على الذات ، نهجاً تنموياً ضرورياً ،

ثم رص الجبهة الداخلية . ليكون في وسعها دعم الجبهة الخارجية . ومدّها بأسباب القوة والمنعة ،

وهذا كله يقتضي سياسة تنهض على الحكمة والشجاعة . بل على الحكمة قبل الشجاعة .

* * *

من أجل هذا كله ، يأتي بدء الولاية الجديدة ، بدءاً لمرحلة جديدة ، تتطلب كفاءة قيادية غير عادية ، تتوفر في رجل قلم وسيف ،

ورجل حكمة وشجاعة ،

وهذا الرجل ، في قطرنا الصغير الكبير ، ووطننا العربي الأكبر ، هو حافظ الأسد تحديداً ،

لذلك فإن المسافة ، بين الاستفتاء والقسم ، كانت مسافةً للترقب والاستعجال ،

فالسفينة العربية المضطربة بين أمواج المباحثات والاعتداءات ، تتلفت إلى ربّانها ،

ونحن بدورنا نتلفت الى هذا الربّاذ الفذ ، ونهلل له اليوم ، إذ يمسك بالدفة بين يديه الجبارتين ؛

ونقيم له بين الضلوع من جسـومنا احتفالية للفرح ، هي الأبهى في الاحتفالات .

* * *

إلا أننا، ونحن نحتفل ببدء الولاية، لن ينفضَّ جمعنا في ختام الاحتفال.

فآفاق نضالنا الوطني والقومي الجهمة تزداد جهامة ،

ولن يجلوها إلا قائد حنكته التجارب ، سلماً وحرباً ،

وفي إطار هذه الرؤية ، تكتسب احتفالية القسم لولاية جديدة مشروعيتها المتميزة ،

ويكتسب وجود القائد الأسـد ، في ولايته الجديدة ، معنى خاصّاً ومتميزاً .

فالاستفتاء كان دلالة ، وأداء القسم هو دلالة ، وهذه الدلالات تنبع من ظروف لها خصوصيتها التي ليست لأي استفتاء سابق ، على الصعيد الوطني والقومي معا .

إننا في مواجهة اختيارات هي الأصعب في كل مراحل النضال السابقة ،

وسورية كانت ، ولا تزال ، في قلب النضال ، وعبر كل المراحل ،

وكما ترتبط مصائر النضال في المراحل المقبلة بموقف سورية ودورها المعترف به عربياً ودولياً

فإنها ترتبط ، وبشكل أدق ، بوجود القائد الأسد على قيادة سورية المكافحـة ،

ففي ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله ، من ضمانات الصمود ، ما يجعله القائد المرتجى ،

وما يجعلنا نطمئن الى أن هذا الكبير فينا ، سيظل الكبير في أمتنا كلها ، وسيقود نضالها العنيد ، وسط هوج الرياح ، الى شاطىء السلامة،

فالصعوبات ، والخيارات ، والامتحانات ، في مفاوضات السلام ومجابهات العدوان ،

تحتاج الى الرجال ، والى الرجال ذوي الكفاءة النادرة ،

ولن نقول جديدا اذا أكدنا أن حافظ الأسد هو من أبرز وأندر رجالاتنا ، في الوطن العربي كله .

* * *

المعركة طويلة ؟ هذا ما لانشك فيه ، لكن نفسنا النضالي طويل أيضا.

ونضال يتولاه الرئيس الأسد ، ويوجهه ، ويقوده ، نضال الى ظفر ،

وكي نبلغه علينا أن نستمر ، ونستمر ، ونستمر ، ومع قائدنا ، وتحت راياته ،

وهذه هي الضرورة التاريخية التي جعلت الاستفتاء على بيعته استفتاء له تميزه ،

وهذه هي الضرورة التاريخية التي تجعل الاحتفاء بأداء القسم احتفاء له تميزه ،

وأخيرا هذه هي الضرورة التاريخية التي تجعل من احتفالنا استثناء ، قاعدته أن نبقى في موكب الكفاح ، والى النهاية .

* * *

الدراسات والبحوث

في الابستمولوجيا،
العقل المقلوب...
بين الأداة والاستقالة

د. جمال الدين خضور

عيون الإحصاءات
والأوضاع العربيّة

حافظ الجمالي

والغرب أيضاً...
متخلف

المهندس عبد الوهاب المصري

العلاقات الاجتماعية
في
المجتمعات العشائرية

سيف الدين القصير

في الابستمولوجيا :
العقل المقلوب ...
بين الأداة والاستقالة

د. جمال الدين خضور

هل تحرسُ فزّاعات الحقول السماء ، أم تحرس الغيم ؟

كيف يمكن لها ان تحرث الأرض وتسقي النبات المشرف على الموت والحي ؟

فهي لا ترى الارض لانها تحدق في صمتها ، ولا تحرس الحقول لانها تحصد الرياح وهي تهرب الى الامام من السراب .

د. جمال الدين خضور : طبيب وشاعر ومترجم ، له عدد من الابحاث والدراسات .

هل يمكن أن نشبّه ثقافتنا المعاصرة بها ، أم نفعل كما شبّهها أحد الباحثين بالثقافة التي تدفن رأسها في الرمل والخطر يحيط بها من كل جانب . إنها ترفض رؤية الواقع أو التحديق به أو مواجهته وجهاً لوجه. ولكنها إذ تشيح بوجهها عنه (أقصد عن مشاكله وأخطاره) تعتقد أنها تلغيه أو تلغي وجوده . إنه غير موجود لسبب بسيط : هو أنها لا تراه أو ترفض أن تراه . وكنت أجد من الغريب (ولا أزال) أن يرفض الفكر العربي المعاصر ، التفكير بمسائله الحقيقية والتأمل الطويل بتاريخه وحاضره على السواء ، في الوقت الذي ينفجر فيه هذا التاريخ وذلك الواقع تحت أقدامنا جميعاً بكل أنواع الحمم والبراكين . إن الفكر الحي الدقيق (أو الفكر الجدير بأن يسمى فكراً) هو ذلك الذي يتنبأ بالمشاكل قبل حصولها أو على الأقل ، يرهص بها ويحضّر لها من أنواع الوقاية والتشخيص ما استطاع الى ذلك سبيلا . إن الفكر القوي يسبق الواقع أو يستبقه أحيانا وفي أكثر الأحيان يوازيه ، وفي أسوئها يلحق به لكي ينظّر له ويستنتج منه الدروس والعبر ولكني أجد أن فكرنا المعاصر لا يجرؤ حتى على مجرد اللحاق بالواقع . إنه ، بكل بساطة ، في وادٍ والواقع في وادٍ آخر(١) .

ونحن نقصد بفتح الحوار الحاد والجاد حول مقومات الثقافة العربية ومحاولة اثبات وضعها الفصامي المعاصر(٢) وهزيمتها ، ومن ثم الانتقال موضوعياً الى مناقشة مقولة العقل، مروراً بتأكيد الفراغ المجتمعي العربي الحاضر ، محاولة الاجابة على السؤال التاريخي ، الذي يحاول أن يخرجنا من أزمتنا التاريخية .

وحتى لا تضيع الملامح الجادة في ساحة الحوار بكثرة المشاركين ، كان لا بد لنا من محاولة كشف الأسباب الاجتماعية لظهور الثقافة الطفيلية(٣) ، وقطع الطريق على محاولاتها في المرور الى الاجابة المشوهة قصداً عبر الحداثة فكانت دراساتنا السابقة في الحداثة والثقافة الطفيلية(٤) والحداثة وبؤس الثقافة(٥) ، من ثم تطرقنا بأسهاب الى المقوّمات التكوينية في الثقافة العربية والوضع الفصامي الذي تعيشه على أرضية الفراغ المجتمعي(٦) ، بحيث نتمكن من مقاربة أزمة العقل

العربي بشكل واع معقم (وليس بالضرورة عقيماً) من كل مخلفات الأوضاع الفصامية أو « المستقبلة » او حتى المقلوبة كما سنحاول البرهان على ذلك فيما بعد . وأؤكد على كلمة « محاولة » ، حتى لا يظن البعض انها خالية من نقاط الضعف والتأثر بالمنظومات المعرفية المشكلة للساحة العملياتية في نقدنا ، لان الاجابة متصاعدة جدلية ؛ ولا يمكن ان تكتمل من خلال العمل على النص فقط ، والدعوة هنا تطمح الى صياغة مقومات تكوينية علمية مروراً بممارسة العقلانية النقدية ، بحيث تكون هذه الأخيرة مكوّناً اساسياً لإعادة التوازن الى العقل المقلوب وليست هدفاً كما يدعو الى ذلك أستاذنا الكبير محمد عابد الجابري في الدعوة « الى ممارسة العقلانية النقدية على التراث الذي يحتفظ بتلك السلطات على شكل بنية لاشعورية »(٧) .

بحيث تشكل منظومة نقد العقل مكوّناً (تحليلي ــ تركيبي ــ تجريدي) نستطيع من خلاله ليس فقط امتلاك الأداة المنهجية في اعادة التوازن لما يسمى العقلانية بل ايضا وفي امتلاك الجوانب اللازمة في ابستمولوجيا التاريخ التي يطرحها الدكتور عبد الله العروي « ... ». والنقاش الملتهب الجاري حالياً في العالم العربي حول القديم والحديث ، حول التراث والمعاصرة ، حول المادية والمثالية .... هو في العمق نقاش حول مفهوم التاريخ . لذا ، لا شيء أهم بالنسبة لنا من الاطلاع على ابستمولوجيا التاريخ . هي وحدها تمكننا من تقييم التآليف التاريخي الكلاسيكي ، من نقد الانتاج الادلوجي المعاصر ، وأيضا من إدراك نسبية ما يسمى بفلسفة التاريخ »(٨) ، بحيث يصبح كل حوار عن إعادة التوازن للعقل العربي المقلوب وتحديثه ليس حديثاً ثلاثي الابعاد فقط بل رباعياً : الحداثة ، الايديولوجيا ، التراث والديمقراطية ، بحيث ينفتح الحوار مستقلا عما يمكن أن يسمى سلطة المعرفة أو معرفة السلطة تاريخياً وموضوعياً . وهنا يجب التأكيد على ان الدراسة لا تحمل في قوامها الأمثلة اللازمة أحياناً بل اعتمدت كما وردت في نصوص اساتذتنا الكبار « محمد عابد الجابري ، عبد الله العروي ، حسين مروة ، سمير امين ، الطيب تيزيني ...... وغيرهم » .

في المكونات الرئيسة

المقدمات المكوّنة للثقافة كما وردت في الفصل السابق (قبْلية ، مكوسة « بَعْدية » ، زمكانية ، نمطية ، بنائية ....) لا تشكل بمجملها منظومة المعرفة اللاشعورية ، فاذا كانت في بعض مقدماتها مستقلة عن الارادة ، ووصلت الينا محمّلة عبر الزمن الثقافي الذي يعرّفه الأستاذ الجابري « بانه مثل زمن اللاشعور ، زمن متداخل ، متموج ، يمتد علىٰ شكل لولبي ، الشيء الذي يجعل مراحل ثقافية مختلفة تتعايش في نفس الفكر وبالتالي في نفس البنية العقلية »(٩) فهذا يعني انها وصلت الينا بشكل مستقل عن ارادتنا (الكتلة المجتمعية) ، اما عملية تمثلها فلا يمكن ان تكون لاشعورية ، فاللاشعور هو إما اثر المنعكسات التلقائية التي لا يصل سببها الى الوعي أو العمليات النفسية النشيطة التي لا تشارك في سيرورتها السوية الواعية للذات . حتى بتفسير الفرويدية للنشاط النفسي بسوياته الثلاث (اللاشعور ، تحت الوعي ، الوعي) فهي تحدد اللاشعور بجملة الانفعال الغريزية اللاشرطية ، حتى اذا اخذنا اللغة كحامل للثقافة ضمن علاقة التأثر والتأثير (ولا نقصد هنا منظومة البيان المعرفية بتعبير الجابري) فانها تنقل ضمن عدة سويات ، يبدأ بالوقع الحركي للأحرف الذي ينتظم في تسلسل معين ليشكل المفردة ، التي يعبّر عنها اللسان باللفظ من ثم تنتظم هي الاخرى لتشكل الجملة ، لكن العملية الاخيرة لا تتم قبل اتساق المعنى ، وهذا يحدث بشكل موازٍ ومتداخل مع آلية الانتقال المفهومية من الحدث الى الاسم فالدلالة فالمعنى . بحيث يتم انتقال العناصر الاولية التي تشكل الوقع الحركي للأحرف بما يوازيه من حدث ضمن اشتراط معين تسنّه المجموعات البشرية عبر تراكم تاريخي مديد محدثاً أثره في اللاشعور وهو هنا بطبيعة الحال مستقل عن الارادة والوعي ، اما انتظام الاحرف في المفردة « اللفظ » وما يقابله في « الاسم » فيتم بطريقتين ضمن ميكانيزم انتقالك ، الاولى وهي لا شعورية اما الثانية فهي مرتبطة بالادراك الموضوعي المستقل عن الارادة وهذا ما يمكن أن نسميه الانتقال عبر الذاكرة الجمعية في صورتها البدائية ، وهي على الرغم من تحميلها ايضاً للاشتراط التاريخي في اطلاق المفردة / اللفظ

/ الاسم / فهي محددة بمكوّنات الاستقبال اللاشعورية والمدركة وإلاّ لما كان بالامكان التعلم والتعليم . أما المرحلة التالية والتي يتم عبرها انتقال الدلالة فهو مكوّن تفكيري مستقل عن الأرادة ، فهو يجمع في داخله أيضا الاشتراط التاريخي لاطلاق الاسم والمكوّن التفكيري للدلالة المقصودة . وفي المرحلة التالية لا يتم انتظام المعنى وانتقاله عبر الزمن الثقافي اللولبي إلاّ بما هو مرتبط مع الوعي ، وإن كانت روابط الالتقاط للمعاني مستقلة عنه ، إلاّ ان انتظام المعنى في نسق محدد لا يتم إلاّ بتواصل هذا الانتظام مع أنساق الوعي (الادراك) . ومما سبق ، يمكن ان نستنتج وبعلاقة الذاكرة الجمعية للكتلة مع اللغة فقط كمكوّنات لسانية فقط ، ثلاثة مستويات تنتقل عبر الزمن الثقافي :

١ ــ الذاكرة الجمعية المنقولة لاشعوريا .

٢ ــ الذاكرة الجمعية المنقولة لاشعوريا ومرتبطة بالادراك وبشكل لا إرادي .

٣ ــ الذاكرة الجمعية المنقولة بشكل مرتبط بالوعي والارادة .

ونقصد بالذاكرة الجمعية بما يخص اللغة ما تحمله الكتلة لها عبر تطورها في الزمن الاجتماعي . ولنأخذ مثالا تبسيطيا يوضح ما سبق . فنأخذ كلمة « شروق » فللأحرف ش ، ر ، و ، ق ، وقعا حركيا يحمّل دلالة حدثية مشترطة من قبل الزمن الاجتماعي للكتلة بما تحمله من انتظام محدد في أنساق الاحرف المذكورة ، وهذا الانتظام مرتبط بالتوضع الفراغي للأحرف وبما يحمّل من دلالة وما يتلوها من معنى ، لكن انتقاله عبر الزمن المذكور يتم بشكل لاشعوري من ناحية اختزان الاحرف وبشكل مرتبط ومحدد بالادراك من ناحية الدلالة ، فانساق الأحرف ش ، ر ، و ، ق يعطي مفردة / لفظة شروق المحملة لعدة دلالات ، حركة الشمس ، الجهة .

ش ، ر ، و ، ق	« شروق »	شروق	شروق
الوقع الحركي	/حدث/ اسم	دلالة	معنى
حرف	مفردة /	لفظ	معنى

بعد ذلك يأتي اتساق المفردات في جمل ، والذي لا يمكن ان يتم إلاّ عبر أدوات الادراك ، الشعور كأن نقول كان شروق الشمس بديعاً . وهنا يختلف المعنى عن جملة كان الشروق رمادياً في هذا الصباح الضبابي . قد يقول احدهم بأن ذلك مرتبط بأحد المكوّنات الاساسية لنشاط الذاكرة الجمعية والفردية ، الا وهو التشفير / الترميز / وهو يتم بشكل لا شعوري عبر الاشتراط المذكور اعلاه لأن الاختزان الفردي والجمعي مستحيل بدون عملية التشفير ، وهنا نعيد القول بأن التشفير يحمل في داخله اختزال المعنى الى وقع حركي عبر الدلالة ، فكلمة شروق المذكورة تحدد مباشرة عبر ترميزها فيكفي للعربي أن يسمع هذه الكلمة حتى تتحرك في مخيلته « جهة الشرق ، الشمس الصاعدة ، خط الأفق ، الانطباع الجمالي للوحة كاملة » . . . وهذا الميكانيزم وإن كانت مقدمات التنبيه فيه لاشعورية إلاّ ان المراحل اللاحقة مرتبطة بالادراك ، ونعيد ونكرر هنا بأن ما هو مستقل عن الارادة لا يتطابق مع اللاشعور ، فما هو مستقل عن الارادة قد يكون لاشعورياً وقد يكون شعورياً بمستوياته المتعددة وحسب المدارس المصنفة لذلك . لأن مكوّنات فعل التذكّر : الاستقبال ، الاثر ، التشفير ، الاختزان ، الافراز . تحمل في طياتها كل سويات الفعل المعرفي النشيط .

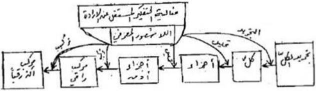
نستنتج مما سبق أن الزمن الثقافي في بعضه فقط يشبه زمن اللاشعور أما في البعض الآخر فهو غير ذلك لكنه مستقل عن الارادة قطعاً .

هذا ما يخص بشكل موجز علاقة الثقافة ـ اللغة بالزمن الثقافي . وهو ما سنراه أكثر صلابة في فعاليات الادراك والفهم والتي تشكل ادوات المنظومات الابستمولوجية (التجريد ، التحليل والتركيب ، السببية ، الاستنتاج والاستقراء الوظيفية ، البنائية) . وفعاليات التفكير هـذه

محددة للمقدمات المكونة للنتاج الثقافي المذكورة سابقا (المقدمات القبلية ، المعكوسة « البعدية » ، الزمانية النمطية ، بنائية) . فالكتلة الاجتماعية / الامة / لا يمكن ان تحدد تلـك المقدمات في الزمن الاجتماعي اللولبي الصاعد وبالتالي الثقافي الا من خلالها لان تكوّن عناصر التفكير الاولي والراقي على المستويين الفردي والجمعي .

ففي هذه المقدمات المكونة للنتاج الثقافي المذكورة أعلاه ، تقوم الكتلة بعزل الظاهرة او المفهوم المشترط بترميز او تشفير معرفي معين ، عن كل ما يحيطه وبشكل اشتراطي لاارادي ، وهذا ما يميز الكتلة الانسانية عن جماعات الحيوانات الاخرى ، والا لما كان بالامكان استقبال العالم الخارجي المحيط في الوعي ووضعه تحت الخطوات اللاحقة من فعاليات التفكير . هذا العزل يمكن ان نسميه التجريد ، من ثم تقوم تلك الفعاليات بتحويل بعض المكونات الجزئية للمجرد الى منظومات جزئية تصقل ما يسمى اللاشعور المعرفي « للدلالة على مجموع العمليات والنشاطات الذهنية الخفية التي تتحكم في عملية المعرفة لدى الفرد » والجماعة ونتفق مع الاستاذ الجابري في تحديد المستويات الاولية فقط كما قلت قبلا ، اما في المستويات الارقى وفي المقطع الزمني المحدد ضمن التاريخية اللازمة المرتبطة بزمانية محددة فان هذا الفعل يتم بشكل مستقل عن الارادة لكنه شعوري اي مدرك عبر فعاليات التفكير الارقى .

بعد التجريد يخضع الكل (المفهوم ، الظاهرة ، التجربة ...) الى تجزئة في عدة مستويات / اهمها اللاشعور المعرفي (بهدف ايجاد الصيغة المثلى للتعامل معه) / الى اجزاء اساسية تخضع بدورها الى التحليل الادق . لكن الكائن البشري كتلة كان ام فردا ، وضمن نفس المنظومات وبهدف ايجاد الصيغة الارقى للتعامل يركب بناء ارقى من الاجزاء الدقيقة، وبناء اكثر رقياً في المرحلة اللاحقة،وهذا ما يطلق عليه التحليل والتركيب .



وبشكل مترابط مع الفعالية السابقة تفعل السببية ، كونها تمنطق السيرورة الحدثية السابقة ، ولولاها لما كانت المنظومات المعرفية قادرة على القيام بها ، لانها تحدد الزمانية والدور اللازمين في نقطة البداية للقيام بالتجريد أولا ثم بالتحليل ثانيا وبالتركيب ثالثا عبر التعامل مع المكونات بعلاقتها مع أسبابها ، بحيث تخلق الصيغة الامثل للمكون في استقباله والتعامل معه في بنائية محددة مرتبطة بتوظيف خاص يتناسب مع طموح الكتلة وهو متمركز في منظوماتها المعرفية (الوظيفية) محددة له دورا متداخلا ومكونا في بناء الزمن الاجتماعي والثقافي بما يسهل عمل منظومة اللاشعور في البحث عن الحالة الارقى . في سيرورتها عبر حتمية الانتقال اللولبي الصاعد (البنائية) ، أما الفعاليات الاخرى (الاستنتاج والاستقراء) فهي موجودة حتما في نهاية كل فعالية معرفية والا لكان من المستحيل الانتقال من فعالية الى أخرى ، ولفقدت حلقات الربط فيما بينها ولصعبت عملية استقبال النتيجة ، وهذه مرتبطة بفعالية التفكير المدرك من قبل الكتلة من انتمائها للمنظومة اللاشعورية للمعرفة . واذا جاز لنا الاعتراف الآن بفعاليات المنظومات المعرفية تلك في تكوين ثقافة ما عبر فعلها في مقدماتها اللازمة (نمطية ، زمانية ، قبلية ، بعدية ، بنائية ... الخ) وهذا يعني أن هناك تاريخية محددة سماتها بالزمن الاجتماعي الخاص ، والا ، لسقطت آلياتها في ما يمكن أن نسميه السكون المعرفي اللاشعوري .

فنحن عندما قسمنا النتاج الثقافي الى فعل مستقل عن الوعي والارادة ، وفعل مرتبط بالوعي لكنه لاإرادي ، ونتاج مرتبط بالوعي والارادة ، وقلنا بأن السوية الارقى يمكن ان تنقل ما تحتها الى أعلى ، فهذا يعني أن ما يحمله زمن اللاشعور المعرفي / وبعد ان قلنا بأنه مستقل عن الارادة / يمكن ان ينقل الى حالة الارتباط بالوعي ، لكنه يبقى مستقلا عن الارادة ويحتاج الى مقاربة أكثر فعالية ونشاطا لنقله الى حالة الارتباط الارادي الجمعي ، وهذا لا يخص تحديدا العمليات اللاشرطية الفريزية الواسمة للكائن البشري بشكل عام ، وانما واسم لها ضمن سماتها القومية عبر منظوماتها المعرفية المميزة ، اي خلق الادوات الثقافية (وهي هنا متناسبة مع نفس المستويات) والتفكير بواسطة الاداة الثقافية يختلف تماما عن التفكير بقضية تلك الثقافة كما يقول الاستاذ الجابري .

العقـل

بعد ان بيّنا بشكل موجز فعاليات التفكير ودورها في النتاج الثقافي عبر مقدماته وبيّنا ميكانيزمات خلق الادوات المعرفية ننتقل لعلاقات تكون العقل ضمن صياغة بيانية مختصرة . وقبل المباشرة بذلك لابد لنا ان نوضح رأيا مشروطاً في مفهوم العقل واللاعقلانية ، لأن معظم ما كتب في هذا المجال يحدد شروطا تاريخية واخرى ايديولوجية لاضفاء العقل بالمفهوم الايجابي للحظة التاريخية الحالية ، دون الاخذ بعين الاعتبار تاريخية تشكل المبادىء والقواعد الناظمة له . فكل ماهو مناقض لمرجعية محددة هي العقل يسمى اللاعقل ، والعقل هو ما يخدم المشروع المقصود من خلال القراءة . يقول الاستاذ سعيد بنسعيد « قراءة الاستاذ الجابري للتراث وتعيينه لما هو معقول وغير معقول ، بل هذا التمييز ذاته بين المعقول واللامعقول في التراث ، امور يحددها المشروع النهضوي الذي يدعو اليه، مقتضيات هذا المشروع،على نحو ما حاولنا ان نشرحه سابقا،هي مايؤسس « بروتوكول القراءة » . جملة واحدة نستطيع التقرير بأن المعقول هو ما يكون هذا المشروع بحاجة اليه ، واللامعقول هو ما اعتبره هذا المشروع

عائقا له ومشوشا على ما يريد بلوغه من اهداف.لا حياد ممكن في هذه القضية . لا سبيل الى قراءة الماضي الا على نحو ما يريده الحاضر من ذلك الماضي . وبالتالي فان السلطة التي تنصب العقل هي سلطة الحاضر منظورا اليه منزاوية مشروع الجابري النهضوي . تنبيه ضروري واحتياط منهجي لا بأس من التشديد عليه ونحن نسائل الثقافة العربية الكلاسيكية عن المعقول واللامعقول فيها »(١٠) .

بنفس الوقت يعرف الجابري العقل : « جملة المبادىء والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية الاسلامية للمنتمين اليها كأساس لاكتساب المعرفة وتفرضها عليهم « كنظام معرفي » اي كجملة من المفاهيم والاجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخية ما بنيتها اللاشعورية »(١١) اما ابن رشد فيعرف العقل « بانه ادراك الموجودات بأسبابها » .

اما نحن فقد عرفنا العقل بانه : مقولة جمعية ، ذات صياغة محددة عبر منظومات معرفية لتفاعلات العناصر الداخلية للجماعة البشرية (الامة) ومعالجاتها فيما بينها ومع البيئة المحيطة ، بحثا وراء ارقى النماذج (الطرائق والقواعد والمبادىء) في التعامل والمعالجة لمشاكل ومسائل الفرد مع الجماعة ، والجماعة داخليا ، والفرد والجماعة مع البيئة والطبيعة وأسئلتها ، وذلك عبر سويات ثلاث (بشكل مستقل عن الوعي والارادة) اللاشعور المعرفي / بشكل مرتبط بالوعي لكنه مستقل عن الارادة ، وبشكل ارادي ضمن شروط التحقيق والمحتمل والواجب .

اما المعجم الوسيط فيعرف العقل : بانه ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها ، والعقل ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات ، وما به يتميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، والحق من الباطل . والعقل القلب والدية والحصن والملجأ . والعاقل : المدرك .

اما في لسان العرب : « العقل : الحجر والنهي ، ضد الحمق ، العاقل هو الجامع لامره ورايه ، مأخوذ من عقلت البعير اذا جمعت قوائمة » وايضا : « العاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها ، اخذ من قولهم :

اعتقل لسانه اذا حبس ومنع الكلام ... وسمي العقل عقلا لانه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك اي يحبسه » يلاحظ من تعريف المعجم الوسيط ولسان العرب بان العقل محكوم بـ :

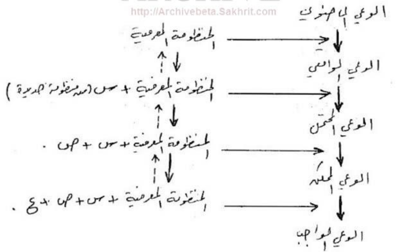
١ ـ آلية لاشعورية : الفريزة التي لا اختيار لها .

٢ ـ الشعور لكنه مستقل عن الارادة : ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات .

٣ ـ الفعل المرتبط بالارادة : العاقل : المدرك ، العاقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها ، بالعقل يتميز الحسن من القبيح والخير من الشر والحق من الباطل . وبالتالي هل يمكن جمع كل ما سبق تحت المنظومة المعرفية للاشعور ، وكيف يمكن للحوار في التراث أن يكون مجردا لاسباب معقدة وكثيرة من اي تأثير ايديولوجي على طرائق التحليل والبحث، كيف يمكن له أن يكون مستقلا عن هدفه في قراءة المشروع المنتظر ؟ واذا كنا نعترف بتاريخية تلك المنظومات المعرفية كيف يمكن أن نطلق على بعضها لاعقلانية وعلى الاخرى مكونا عقليا ، لنفترض اننا نستطيع جمع الماء في اكياس من هواء ، هل يمكننا ان نضع تلك الاكياس في جيوبنا ؟

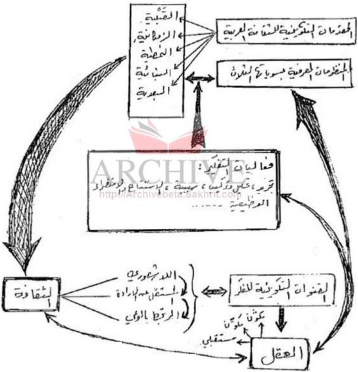
كيف يمكننا الوصول الى الاستقلال التاريخي للذات الـذي طرحه غرامشي وتبناه الاستاذ الجابري بحيث يصبح لزاما التحرر من الآخر « الفكر الاوروبي والتـراث » ، والتحرر يعني امتلاكهمـا بعـد الفحص النقدي ؟ كيف يمكن ذلك ونحن نحدد مسبقا اللاعقلانية والعقل ونحدد

هذا الاخير بما يخدم المشروع النهضوي ، بدون أن نفرز الكثير من صفحات البحث عن أدوات وفعاليات التفكير ضمن تاريخيتها . وبالتالي نحدد ونعرف أدواتنا الاساسية التي ترتكز على فعاليات التفكير الواسعة لآلية الوعي وعبر التاريخية المعروفة اي المرتبطة بجملة مقدمات، من اللازم ايضاحها . وهنا يجب أن نحدد مشروعنا « النهضوي » ليس فقط بما يحفر في وعينا الماضوي ، انطلاقا مما يريده الحاضر من ذلك الماضي ، لان الحاضر سيكون بعد قليل ، واثناء نشر هذه الدراسة ، من الماضي . علينا تحديد أدواتنا بما يتناسب مع مشروعنا لدراسة المحتمل ، وفرز الممكن ضمن هذا المحتمل وبالاخير صياغة الواجب واللازم في هذا الممكن ، وكل خطوة من هذه الخطوات تحمل قراءة نقدية لسابقتها ، بحيث يصبح لزاما علينا تحديد العقل في كل منها ، وكيف يشارك هو بتحديد الاداة التي صاغت بحد ذاتها ما يمكن أن نسميه المنظومة المعرفية النقدية المتطورة ، بحيث يضاف لكل منظومة سابقة مكوّن نقدي جديد يتناسب مع سلطة العقل حسب الرؤية اللاحقة للمشروع التالي :



يلاحظ من اضافة س + ص + ع .... بأن المقدمات التكوينية البعدية تلعب دورا هاما في صياغة وصقل مشروع الحفر النهضوي وبالتالي يمكن أن نطلق عليها اسم الادوات البعدية المكوسة / أو المقدمة المكوسة البعدية ، اما المقدمة السابقة لها فهي تضع دائما الساحة العملياتية الماضوية وبالتالي فهي تحدد القبل المعرفي . ومثلها مثل المقدمات الثقافية تحاول الكتلة الاجتماعية (الامة) صياغة منظوماتها ونتاجها الثقافي في بنائية خاصة تسهل فعلها واستقبالها في الحاضر واللاحق من الزمن الاجتماعي ، وهنا نجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى للقول بان العقل لا يتطابق مع مفهوم المنظومة المعرفية اللاشعورية للكتلة الاجتماعية ، فهي تكون منظومة فعل للمقدمات التكوينية الثقافية في مستواها الاول « اللاإرادي والمستقل عن الوعي » . ورغم ذلك فهي تختلف عن الافعال اللاشرطية المرتبطة ببنى فيزيونفسيه على المستوى الفردي ، او بنى التنظيم الستريوتيبي على مستوى الكتلة الاجتماعية أو ما يمكن أن نسميه شرطيا « الادوات الثقافية المعرفية » ولتمييزها عما قيل سابقا « باللاشعور » يمكن أن نضيف كلمة « الشعورية » ... اي إدراك فعل الادوات والإيصال وساحة النص العملياتية . واجد نفسي مضطرا لتكرار كلمة « إدراك » ولا تعني هنا الارتباط بالارادة ، فالمقدمات التكوينية لثقافة محددة ويجب تحديدها اكثر لفرز ما يمكن أن نسميه الادوات الثقافية ولتمييز علاقتها بالتأثر والتاثير بانتاج واعادة انتاج المنظومات المعرفية ـ العقل ، والا ضاع المصطلح والمقولة واللفظ في متاهات مطاطية قلة الثقافة التي عرّفناها مرارا في الفصول السابقة .

←



نلاحظ من الرسم الايضاحي السابق المبسط، أن قنوات التفكير محددة بالمكونات الثقافية

نلاحظ من الرسم الايضاحي السابق المبسط ، بأن قنوات التفكير محددة بالمكونات الثقافية فهي موسومة بالمقدمات القبلية والبعدية « المعكوسة » والبنائية وبالتالي فهي مرتبطة بالموروث التاريخي الثقافي، وهنا لا بد من فرز الذاتي والموضوعي للثقافة العربية وادواتها عبر مقدماتها التكوينية ، فلكل من تلك المقدمات ذاتية محددة في آلية تطورها وتأثيرها وبنفس الوقت مرتبطة موضوعياً ومحددة بهذه العلاقة مع المقدمات الأخرى ، أما بالنسبة لذاتية كل مقدمة يمكن اخذ المثال النمطي المحدد بتطور نظام البيان المعرفي « حسب تعبير الاستاذ الجابري » وما تمتعت به الثقافة العربية من سمة « الانفصال » الواسمة للبيئة الصحراوية وهذا بدوره مرتبط بالمقدمات التكوينية الاخرى والنمطية « الرعوية » في حين اتصفت الثقافة اليونانية بالاتصال كسمة مميزة للبيئة البحرية . وبما يحاول الاستاذ الجابري تأكيد ذلك عند تعداده لبعض مواصفات منظومة البنيان المعرفية انفصال ، تجويز ، قياس ، الاستدلال بالاثر ، العلامة ، الامارة وهي جميعها واسمة للبيئة الصحراوية والنمط الرعوي .

اما بالنسبة للذاتي والموضوعي بالنسبة الثقافة العربية فمن المهم التذكير بأثر فكر ارسطو على منظومة ابن رشد مثلا .

تحدد تاريخية العقل الكتلي الاجتماعي ايضاً بما يرتبط بالمقدمات الزمانية للتكوين الثقافي بحيث لا يمكن للعقل أن يكون حيادياً عن درجة تطور المجتمع ، وعليهدائما ان يعطي وضمن مواصفاته التكوينية الاجوبة اللازمة للامة ، وإلا فسيسود ما سميناه السكون المعرفي / اللاعقلانية والذي يمثل معضلات تأزم واقع الامة في صراعها مع الطبيعة والمحيط وفي تناقضاتها الداخلية ، ويحل السكون المعرفي كسراً او هروباً من حتمية بحث الكتلة (الامة) في فكرها عن هذه المعضلات . (الفكر حسب المعجم الوسيط ، هو اعمال العقل في المعلوم للوصول الى معرفة مجهول . ويقال لي في الامر فِكْرٌ ، نظر وروية ، والتفكير : اعمال العقل في مشكلة للتوصل الى حلها)... نستنتج من ذلك أن اعمال العقل في الادوات الثقافية الواسمة للامة هو عملية التفكير متأثراً بالمقدمات التكوينية

الزمانية لهذه الادوات ، والزمانية هنا بمعناها الاجتماعي محددة بأبعاد تتجاوز الرؤية الفلسفية او الفيزيائية لمفهومي الزمان والمكان ضمن تداخلهما وترابطهما . فإذا اخذنا تعريف أرسطو للزمان . كعدد الحركة بحسب السابق واللاحق . وتعريفه للمكان : باعتباره السطح الباطن للجسم الحاوي المماس للجسم المحوي . وربطنا هذا التعريف بمقاربة المادية الجدلية لهذه المقولة كأشكال لحركة المادة (المكان هنا الفراغ .. الخلاء . .) واشتغلنا/بعقلنا/حسب النظريات الحديثة (النسبيةوغيرها) لرأينا ان هناك خطاً لولبياً صاعداً ، بحيث لا يمكن لهذه المقدمة التكوينية ان تبقى مع الثبات والسكون كمكون للادوات المعرفية ، إلا في بعض الحالات التي تميز بها التاريخ . واللغة العربية او جدت مفردة خاصة للزمكانية عندما تقول بوضوح حلٌ ، محلٌ . حلٌ اليوم اي آن الأوان ، وذلك في تحميل بين لفعل واحد يجمع الزمان والمكان معاً بدون وجود أية امكانية للعزل بينهما . وهنا تجدر الاشارة ان المقدمة الزمكانية محددة ايضاً بمقدمة قبلية ومقدمة بعدية لان الكتلة الاجتماعية تضع رؤيتها الحضارية وطموحها المستقبلي فيما سميناه المقدمة العكوسة اي التي تترك أثرها وقسطها في صقل الاداة بما يناسب الطموح التالي محدداً بحركة لولبية صاعدة في الحلزون الاجتماعي .

انطلاقاً مما سبق وبعد ان لخصنا ادوات العقل ، التفكير وما تحمل الثقافة من مقدمات تكوينية كيف يمكن ان نبدأ الحفر في التراث هل يمكن نسف كل ما ذكر سابقاً من فعاليات التفكير واحلال مقولة الفصل أولا ثم الوصل ثم التجاوز وصولا الى الاستقلال التاريخي للذات كما يطرح الأستاذ الجابري، فالرؤى المطروحة للتراث في المشاريع الراهنة يمكن تلخيصها بـ :

١ ـ الانتقائية .
٢ ـ الانتقاد الايديولوجي .
٣ ـ التبني المطلق .
٤ ـ النقد التاريخي .

٥ ــ الرؤية الاحادية .

٦ ــ الاستقلال التاريخي للذات بما يخص التراث

٧ ــ نسف التراث او إدارة الظهر له بتعبير سعيد بنسعيد .

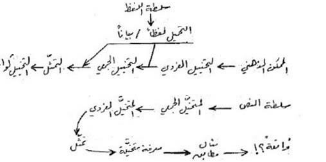
لا يمكن لأي مهتم بهذه القضايا إلا ان يقف اجلالا لعظمة الجهد الكبير الذي قدمه وما زال يشتغل عليه الاستاذ الجابري ، ولكن هل وضح أدواته وهل حدد منهج التفكير وفعالياته في قراءة مشروعه النهضوي ، وهل يمكن ان نعترف بأن العقل العربي مستقيل ؟ لا يمكن لاية كتلة اجتماعية أن تسمح لعقلها بالاستقالة فحين الاستقالة تبدأ بالبحث عن بديل وعبر الآليات المشروحة اعلاه وبنفس الوقت لا يمكن له أن يكون مفتالا « بتعبير الاستاذ برهان غليون » فلا يمكن للكتلة الاجتماعية أن تعيش بدون منظومات معرفية حتى ولو لتبرير هزيمتها ، فالمنظومة بالقياس التحليلي العلمي قد لا تكون فعالة ايجابيا دائماً .. ان النتاج الثقافي كما بينا في الفصل السابق هو نتاج فصامي ويفعل ضمن آليات وأدوات مقلوبة ، بقيت تشغل نفس الحيز الفراغي في عقل الامة العربية وما محاولات الانتقاد الايديولوجي إلا عبارة عن تزيين لهذه الادواتالمقلوبة فالثقافة العربية ومنذعصر التدوين قابلة للسحب الشعاعي (بالتعبير الرياضي) حتى الآن فيطرح الاستاذ الجابري عصر تدوين جديد . والاستاذ برهان غليون لا يطرح ادوات علمية « عقلية » للخروج من موقع الاغتيال فيطرح توفيقية جديدة حسب تعبير محمد سبيلا .

الثقافة العربية مسحوبة شعاعياً بدون تراكم كمي او كيفي ونستطيع ان نسمي فلاناً رائد العقلانية في الفكر العربي ؟! الثقافة العربية هي هكذا لاننا متفقون جميعاً على ان الزمن بمفهومه الميقاتي ثابت وهذا يعني بمفهومه الاجتماعي انه مقلوب ولانه كذلك هيمن السلف وبقي الخلف يجتر نفسه وراسه الى الاسفل وقدماه الى الاعلى ، واذا تحرك الزمن فهو يتحرك دائرياً ، والدائرة هي عكس الخط الحلزوني الصاعد ، وبالتالي تحركت ثقافتنا على محيط دائرة حتى يخال للبعض انه يتحرك الى الاعلى ؟!! وهنا يحضرني هامش المفكر القلق الياس مرقص حول

قول الايطالي غاليلي : تلك اللانهاية التي لا تبلغها الاشياء في التقدم، تبلغها في الدوران . ننتقل بعد ذلك الى تناول مقولة الاستاذ الجابري في الانتقال في الفكر العربي من العقل الذاتي في الجاهلية الى الموضوعي مع الرسالة المحمدية والمرحلة الراشدية من ثم الى العقل المطلق بعد عصر التدوين وما قبله بقليل ، أليس في ذلك قلب لفعاليات التفكير وآليات الفكر المشروحة في مقدمة هذه الدراسة ؟ . أليس وضع العقيدة الدينية بتعارض قطعي مع القول بالسبب والطبائع وقوانين الطبيعة عكساً تاماً لمقومات التفكير الأولية والراقية ؟ الم يكن ذلك العكس توظيفاً سياسياً للاسلام بعد المرحلة الراشدية بوضع الارادة الالهية المطلقة بدلا من العناية الالهية والحكمة الربانية ؟

لقد حلّ الاستدلال بديلا للاستقراء والتجربة الحسية . حتى منظوماتنا المعرفية (البيان ، العرفان ، البرهان) بتصنيف الاستاذ الجابري ، وضعت مقلوبة تماماً ، لأن البرهان الذي عليه ان يكون أولا وبشكل القاعدة الرئيس في تحريك آليات التفكير حتى باتجاه العرفان والبيان وضع آخر ، وتطابق العرفان مع الآخرة على الرغم من اننا نعترف بأنه مرتبط باللغة والشريعة ـ السياسة ، ووضع البيان الانجاز الانساني الكبير لامتنا العربية في غير موقعه محل الخطاب السياسي الايديولوجي وتحت سلطة اللفظ بدلا من منظومة العقل .

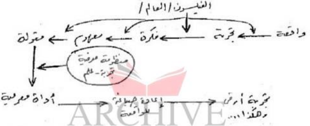
هذه المنظومة المقلوبة طرحت ممكناً ذهنياً بتفاعل عبر آليات قاصرة ليتحول الى تخييل فردي ، يصاغ هذا الاخير في فعل الجماعة متحولا الى تخييل جمعي ، الذي يقع مع سابقه تحت سلطة اللفظ ، عبر التحميل لفظاً / بياناً / والى تمثل نظير اي تخييل كواقعي .



فالتعامل مع النص يسقط الزمن بشكل كامل ولا يحتاج لسببية تبرر وقائعه (لأنه خال من الوقائع الحسية المترابطة ، وان توفرت فهي مختلفة عن التجربة) ، بالاضافة الى ذلك فهو لا يحمل في النتيجة اضافة ما ، لان الشغل عليه محدد برؤية مسبقة لمعنى مسبق وتحميل مسبق ضمن خط بياني افقي ان وجد وعبر حركة دائرية محددة ، معتمداً على بعض فعاليات التفكير التي تكون مجتزأة ، وهذا يختلف بشكل جذري عن الشغل على التجربة الذي يحمل العلامات الفارقة التالية :

التعامل مع النص	التعامل مع التجربة	
غير موجود	موجودة	التجريد
موجود جزئيا	موجود	التحليل والتركيب
غير موجودة	موجود	السببية
غير موجود /مسبق/	موجود	الاستنتاج
ثابت	صاعد لولبي	الزمن
دائرية	صاعدة	الحركة
افقي	صاعد	الخط البياني
غير موجودة	موجودة (تجربة + س)	الاضافة
محدود	متنامي	العمق

لنقارن ذلك بالشغل على الواقعية ضمن فعاليات التفكير بحيث ان بداية التجربة تستند على واقعة ، ظاهرة . . . الخ ، يقوم « العقل » بتجريدها وتمثلها بتجربة ، يقوم العالم بنقل فعل آليات التفكير عليها فيستنتج الفكرة اللائمة التي يطورها من ثم الى مقولة ويخضع هذا العالم أو الفيلسوف مقولته الى اعادة تقييم حسب المنظومة المحدثة لعلاقة العلم المعطى بالتجربة ، فينتج اداة معرفية تقوم بفعلها باعادة صياغة للواقعة وبالتالي الوصول الى التجربة الارقى .



يدفعنا ذلك الى دراسة مقارنة بين ما طرح ، وما يمكن ان نحدده من رؤى بالنسبة للآخر (الحضارة الاوربيـة) والتي يمكن أن نسمي بعض الطرائق في مقاربتها :

١ ــ التقليد .
٢ ــ الاقتباس .
٣ ــ الاستنساخ .
٤ ــ الرفض الكامل
٥ ــ الانتقائيـة .
٦ ــ الاستقلال التاريخي للذات .

وقبل كل شيء يجب التنويه الى أن حوارنا في هذا الاطار موجـز ، وهمه الابقاء على الادوات المذكورة تأكيدا لمقولة العقل المقلوب ، لان البعد بمفهوم الزمن الاجتماعي كان اكثر اتساعا لامتنا العربية سباقة في العصر

الراهن ، لأن الانماط الاجتماعية التي كانت سائدة في منطقتنا كانت اكثر تطورا اذا اخذنا العامل الاقتصادي والاضافات العربية للحضارة الاوربية كانت اكثر مما انتجته الحضارة الفربية والعقل الاوروبي بحد ذاته ، فلماذا علينا التوقف عند مرحلة ما قبل الراسمالية بينما يبحث العقل الاوروبي في التطور الارقى لحاسوب الحاسوب ، فبعد انتقال المسيحية الى اوروبا وعلى الرغم من انها وصلت شبه مشوهة عبر نصوص بولس الا انها خاضت وعلى مدى قرون اربعة حربا لا هوادة فيها ضد الغنوص بتعبير الجابري) مما دفع الى ما يمكن ان يسمى شرطا : «العقل الكوني» والذي اشتغل على الفصل بين الدين والسياسة مما طرح صراعا حادا بين العلم والكنيسة . في هذا الوقت وصلت اوروبا النظرية الرشدية التي حملت في طياتها ارسطو الحقيقي بالاضافة الى نظريته في الفصل بين الدين والفلسفة مما أدى الى استقلال العلم واعتماد التجربة الحسية والاستنتاج والاستقراء . ذلك مع انتقال الكم الهائل من العلوم العربية العملاقة (الحسن بن الهيثم ، ابن النفيس ، ابن بصال البطروجي) ارتبط ذلك بمفهوم التحرر من مركزية الكنيسة والانتقال الى الكنيسة القومية ، وذلك كان مرتبطا مع تطور نمطي للتشكيلة (كالبحث عن السوق القومية ... الخ) وبلغت ذروة التحدي التاريخي ذلك بثورة مارتن لوثر الفلاحية في المانيا في بداية القرن السادس عشر ، مما أدى وعبر كافة العوامل المذكورة سابقا الى الاعتراف بقيمة التجربة ، وما تتركه ، وعبر فعاليات التفكير من استقراء يحكم التجربة الحسية دفعت بدورها الى التقدم العلمي الاوروبي . فمكونات المنظومة المعرفية العربية (الابستمولوجية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى) قدمت للحضارة الاوربية المعاصرة الفلسفة والعلم ، فلماذا لم تفعل فعلها في المنظومةالعربية اللاحقة ، اي لماذا لم تفعل مطورة في منظومتها نفسها . لو لم تكن فعاليات التفكير وادوات العمل الثقافية محكومة بتسييس قسري وايديولوجي لا يخدم الا معرفة السلطة فقط وعبر قلب كامل لكل الادوات الجمعية .

لذلك يمكننا ان نمر على بعض الاسباب التي ادت الى عدم دخول العلوم العربية في حينها كمكون ثقافي في النظم المعرفية العربية وبالتالي في عناصر تشكل العقل العربي .

١ ــ توظيف النظام المعرفي البرهاني في ايديولوجيا الصراع .
٢ ــ بقاء العلم خارج ايديولوجيا الصراع وعبر التوظيف السياسي .
٣ ــ العمل على علم النص واهمال علم التجربة .
٤ ــ العلم كان حالات ابداع فردي ولم يكن ذا توجه جمعي .
٥ ــ تصنيف ما يفرض نفسه من منجزات علمية فردية وتسخيره منظومة « العرفان » المعرفية .
٦ ــ تدجين العلم في المنظومة المطلق « العقل المطلق » .
٧ ــ قلب فعاليات العقل في انتقال من الوعي الادنى الى الاعلى عبر توظيف سياسي صارم . . .

وهكذا نستنتج وبكل دقة ان المنظومات المعرفية للعقل العربي مقلوبة، فهل نستطيع عبر فعاليات التفكير والمقدمات المكونة له من اعادة الراس الى الاعلى محاولة للدرس تحاول تقديم قسطها في عالم بدات فيه المرحلة الامبريوعسكرية (اللامبريالية العسكرية) تكسر حتى القوانين الاولى لقوة العمل فكان أن شوهت كل البنى الاجتماعية بكل مستوياتها .

فهل يمكن لمنظوماتنا المعرفية وعبر ادواتها التفكيرية وفي واقع الفصام الثقافي والفراغ المجتمعي العربي وعلى ارضية واسعة من انتشار الثقافة الطفيلية كما حددناها سابقا من اعادة صياغة وتوازن امثل لمنظومات عقلنا في زمن السماكرة ، ام سنبقى نقفز في مكاننا بين توفيقية جديدة وتغييب مرعب ؟ اذا لم نفعل ، ماذا نختار فزاعات الحقول ام النعامة ؟

←

الهوامش :

(١) د. هاشم صالح ، الفكر المستحيل (المقدمة الابستمولوجية او النظرية) مجلة الوحدة ــ العدد ٢٦/٢٧ ــ ١٩٨٦ ص ٤٢ .

(٢) د. جمال الدين خضور ، الفصام الثقافي العربي والفراغ المجتمعي ، المعرفة العدد ٣٢٧ كانون اول ــ ١٩٩٠ .

(٣) د. جمال الدين خضور ، (الثقافة الطفيلية ((يوطفيلية الثقافة))) مجلة الهدف العدد ٩٧٠ تاريخ ١٩٨٩/٨/١٣ .

(٤) د. جمال الدين خضور ، الحداثة والثقافة الطفيلية ، مجلة الناقد اللندنية العدد ٢٤ ، ص ٥٦ .

(٥) د. جمال الدين خضور ، ((الحداثة ..... اوبؤس الثقافة)) ، مجلة الهدف رقم ١٠١٤ تموز ١٩٩٠ .

(٦) المصدر المذكور سابقا .

(٧) محمد عابد الجابري ــ بنية العقل العربي ، نقد العقل العربي الجزء الثاني ص٥٦٨

(٨) عبد الله العروي ــ ثقافتنا في ضوء التاريخ ، دار التنوير للطباعة والنشر ص ٢٤ .

(٩) محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي الجزء الاول بنية العقل العربي ص ٤١ .

(١٠) سعيد بنسعيد ، الايديولوجيا ، التراث ، تحديث العقل العربي .. مجلة الوحدة العدد ٢٦/٢٧ ١٩٨٦ ص ٣٥ .

(١١) محمد عابد الجابري ، المصدر السابق .

★ ★ ★

الدراسات والبحوث

عيون الإحصاءات والأوضاع العربية

حافظ الجمالي

لا ريب ان مكاتب « الاحصاء » اصبحت تحتل مكانا متميزا في جداول اهتمامات الدول . فعدد السكان ، في بلد ما ، ومساحته الميتة (التي لا تزرع ولا تنبت خيراً) والمساحة الحية ، ونسبة التكاثر السنوية ، ووفيات الاطفال ، ومتوسط الامل في الحياة ، ونسبة الاطباء لكل الف من المواطنين ، ونسب المتعليمين الثانوي والاعدادي .

حافظ الجمالي : باحث من سورية ، يكتب المقالات والدراسات حول الواقع العربي وآفاقه المستقبلية ، له مجموعة من المؤلفات في علم النفس والتربية وعلم الاجتماع منها « حول المستقبل العربي » ، « بين التخلف والحضارة » في مجال الترجمة « الثورة الفرويدية » ، « فلسفة الفيزياء » .

بالنسبة لمن هو في العمر المناسب لهما ، ونسبة الامية ، (وبالتالي درجة الشمول في التعليم الابتدائي) . وعدد الكتب المطبوعة في كل عام ، ومستوى المديونية الخارجية ، وقيمة الصادرات بالنسبة الى الواردات ، في كل دولة ، وصورة انفاق الموازنات المالية ، ومستوى الدخل العام ، ومتوسط دخل الفرد ، ونسبة نمو او تضاؤل الانتاج في الدولة ، كل هذه مؤشرات مفيدة جدا للناس بصورة عامة ، وللمسؤولين بصورة خاصة ، لانها تشبه الى حدّ بعيد ما تقدّمه الصور الشعاعية لمختلف أقسام الجسم للطبيب الذي يعنى بمريض ما ، ذلك انها وحدها (مع التحليلات الكيميائية للدم والقشيات والافرزات الاخرى) هي التي تستطيع ان تقدم أكمل المعلومات عن حالة جسد المريض . أو قل انها نظارات ، من نوع خاص ، لا ترى الهياكل الخارجية للناس أو للاشياء . بل تؤثر ان ترى البنى التحتية لهذه ، وتكشف عما فيها من عيوب ، او نقائص ، وقوة او تميز .

ولقد اتسع مع الايام ، نطاق استخدام الاحصاءات (وهنا نحن نتحدث عن الدول المتقدمة وحدها ، لا عن البلاد المرجوة التقدم ، فهذه الاخيرة، لها حديث خاص بها) ذلك ان استقصاءات الرأي العام ، — موقف الناس ، تجاه هذا الحزب أو ذاك ، وهذا المرشح للمجلس النيابي او ذاك . وهذا الآخر الذي يتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية ، أو حتى لرؤساء الجمهورية الحريصين على معرفة مواقف الناس منهم ، او لمعرفة تطور أوضاع الدولة في ايامهم . وهكذا يجد كل من هؤلاء موقعه في قلوب الناس وارتياحهم له ، او نقمتهم عليه لا سيما اذا هو قام بعمل غير مألوف في الحياة العامة ، وبطبيعة الحال فان أمثال ميتران الفرنسي ، لا ينسون أن يشيعوا اشاعات كاذبة جدا ، أو غير موثوقة ، غايتها الحصول سلفا على موافقة الراي العام قبل التصدي للعمل الذي يريدونه ، وهكذا فقد أشيع أن السفارة الفرنسية في الكويت مثلا ، نهبت ، وزجّ بأفرادها في السجون وصار ما صار مما لست اذكره ... فظن خيرا ... وعندئذ فقط يسأل الناس عن موقفهم مما تصدت له الدولة من الاعمال الصالحة (أو غير الصالحة) لتظهر له احصاءات الاجوبة ، انه في موقع معين من قلوب

الناس . مما يعني أن استقصاءات الراي العام ، واحصاءاتها ، لا تقدم صورة جدية لمشاعر الناس ، الا في الظروف الخاصة ، التي تتم أو تمت فيها الاستقصاءات .

ولا تستخدم الاحصاءات في الميادين السابقة وحدها ، بل انها لتكاد ان تصبح وسيلة بحث لعلوم مختلفة ، كعلم النفس ، أو علم نفس الطفل ، أو علم النفس الاجتماعي(١) . أو حتى لعلم الاجتماع ونذكر على سبيل المثال ان فرويد الذي جاءنا بنظريته عن عقدة أوديب التي تبدأ بالتكون في أيام الطفولة الثانية ، أي منذ دخول الطفل في الثالثة من عمره ، راى ، أو كان يجب ان يرى انالعلماء الامريكيين يأتون بعينات من الاطفال ، تمثل المجتمع الذي ينتسبون اليه ، ليطرحوا عليهم السؤال المتصل بدرجة حب الام ، أو لاب أكثر من الاب الآخر . .. وقد تبين لهؤلاء ان احصاءات الاجوبة لا تقرر أن هذه العقدة موجودة موضوعيا ، أما قياس مواقف الناس من القضايا العرقية ، وما يجيبون به عن أسئلة توجه اليهم عن درجة حبهم للزنوج ، أو لليابانيين ، أو للعرب مثلا ، فذلك أمر معروف جدا ، ولا حاجة للافاضة فيه .

وفي وسعنا ان نقسم الاحصاءات الى نوعين ، نوع أول هو الاحصاءات الموضوعية التي تتناول الكتب المطبوعة في بلد ما ، أو عدد الاطباء فيه ونسبتهم الى الحاجات المعقولة ، أو نسبة الاميين ، أو الامل المتوسط في الحياة ، أو مستوى الدخل العام والفردي . وهذه تظل سليمة ، الى حد بعيد ، ان لم تتناولها ايدي الرقباء في التشويه او التأنيق . مما هو نادر في البلاد المتقدمة ، وسائد جدا في البلاد المرجوة التقدم ، اما النوع الثاني ، فهو الاحصاءات الذاتية ، او الغوغائية التي يجوز فيها الخطأ اكثر مما يجوز الصواب ، فاذا كان الدخل القومي هابطا مثلا ، وتبعه مستوى الدخل الفردي بالضرورة . ولم يرق ذلك للمسؤولين (واغلب الظن انه لا يروق)

(١) كتاب علم نفس الطفل ، مجموعة من المؤلفين الامريكيين ، ترجم الى الفرنسية بثلاثة اجزاء ونحن ننقل هذا عنه .

فما أسهل أن يوعز الى صانعي الاحصاءات ، أن يزيدوا الارقام الضعيفة زيادة مناسبة ، خداعا للعالم ، وللشعب صاحب العلاقة ، وتبييض وجوه (الذين كفروا) . وبطبيعة الحال ، فان مجرّد التلاعب بالارقام مؤشر كاف على عقدة الذنب لدى هؤلاء ، ولو كان غير عسير عليهم ان يتحملوا آثارها باستمرار ، ذلك انهم ان قدروا أن في وسعهم غش الناس . فانهم على كل حال ، يعرفون بصراحة انهم يغشون .

الاحصاءات والكشف عن أوضاع الامم

ومن حسن الحظ أننا نملك منذ مدة غير قصيرة ، مكاتب احصاء في كل دولة ، مهمتها اطلاع الشعب صاحب العلاقة ، والدولة ذات الشأن ، على ما يجري لديهما أو يتم في مختلف جوانب الحياة ، كحركة السكان ، زواجا وطلاقا وولادة ، وموتا ، وتكاثرا أو تناقصا ، وكالنسبة المئوية لمختلف الاعمار ، وكأحوال الزراعة ، وانتاجيتها في مختلف الزراعات المألوفة ، وكالتجارة ، والصناعة ، والاستيراد ، والتصدير ، وصور التعلم ونسبة المنتسبين الى هذا النوع أو ذاك من المدارس أو الكليات ، أو التعليم العالي المكمل للجامعة .

وقد بلغت هذه الاحصاءات درجة من الدقة تكفي كل من يلقي نظرة عليها ، لمعرفة ما يجري في بلده ، أو في بلاد الآخرين ، ودرجة تطورها ، والفرق بين ماعنده وعند الآخرين ، ونريد ان نقدّم هنا بعض الاحصاءات ذات الدلالة الكبيرة ، كالمساحة ، وعدد السكان ، والدخل القومي ، ومتوسط الدخل الفردي ، ونسب التعليم الثانوي والعالي ، ومتوسط الامل في الحياة ، ونسبة الاطباء الى مجموع السكان ، أو الى كل ١٠٠٠ ساكن على الاقل ، وسنبدأ بالجدول الاول الذي يعطينا صورة عن أوضاع الدول المتقدمة ، ونثني بجدول آخر حول أوضاع الدول التي كانت أو لا تزال « اشتراكية » ونثلث اخيرا بجدول لاوضاع الدول العربية ، بغاية المقارنة بينها لكي يعرف كل عربي وضع بلاده بصورة دقيقة .

الجدول رقم (١)
أوضاع الدول المتقدمة

البلد	المساحة كم٢	السكان بالملاين	التعليم (٢)	التعليم (٣)	الدخل العام بالملاين	متوسط الدخل الفردي بالالوف	أمل الحياة	تلفزيون	اطباء
أمريكا	٩٫٣٦٢٫١٢٢	٢٥٠	٩٨٪	٥٤٫٨	٥٤٦٨	٢١٫٩٢٥	٧٥	٨١٢٪	٢٫٢٠٪
اليابان	٣٧٢٫٢١٢	١٢٤	٩٥	٣٠٫١	٣١١٩	٢٥٣٦٠	٧٨٫٥	٥٨٩	١٫٦٪
المانيا	٣٥٧٫٠٥٠	٧٧	٧٨	٣١٫٨	١٥٥٨٫٧	٢٣٠٠٠	٧٤	٣٧٩	٣٫١٤
فرنسا	٥٤٧٫٠٣٠	٥٦	٩٤	٢٤٫٥	١١٠٢٫٦	١٩٦٥٠	٧٦٫٣	٣٩٩	٢٫٦
ايطاليا	٣٠١٫٢٢٥	٥٧	٧٦	٢٦٫٣	٩٨٥	١٧٢٥٠	٧٦	٤١٩	٤٫٢٥
انجلترا	٢٤٤٠٤٦	٥٧	٨٢	٢٢٫٨	٩٣٢٫٥	١٦٢٩٠	٧٥٫٧	٤٣٥	١٫٤
اسبانيا	٥٠٤٧٨٢	٣٩	١٠٥	٣١٫٥	٤٣١٫٩	١١٠٢٠	٧٧	٣٨٠	٣٫٧
كندا	٩٩٧٦١٣٩	٢٦	١٠٥٪	٦٢٫٢٪	٢٢١٥	٢١٫٥١٠	٧٧	٥٨٦	٢٫٢

ملاحظات :

(١) نشير هنا الى اننا دوّرنا عدد السكان لزيادة الوضوح . اما المساحة فابقيناها كما هي . ويلاحظ ان فرنسا وايطاليا وانجلترا تماثل تقريبا في عدد سكانها .

(٢) لا نشير هنا الى « الامية » انه يبدو انهم عفوا عنها هنا ، وتركوها لنا ، كما ان التعليم الابتدائيلا يذكر لانه يتناول الجميع .

(٣) ارقام الدخل القومي هي بمليارات الدولارات . أما متوسط الدخل فبالالوف ، يشذ عن ذلك مثال الروس وحدهم ، اذ يقدر دخلهم بالروبل .

(٤) ارقام التلفزيون تعني ما يصيب كل الف من السكان من عدد التلفزيونات أما الاطباء ، فهو منسوب الى كل الف ساكن .

وبطبيعة الحال ، فان الذهن يقفز هنا الى الدول الاشتراكية، كالاتحاد السوفييتي ، ومن كان أو لايزال يدور في فلكه ، علما بأن الاحصاءات التي تقدّم هنا تخضع دوما لارادة المسؤولين ، لا لحقيقة الارقام ، كماهي الحال في كل الدول الاشتراكية . ولا شك أن في وسعنا اعتبار ما يرد في

الجدول التالي ، افضل الارقام لوصف الواقع القائم ، ومثل هذا ينطبق على الدول المتخلفة الحريصة على أن تبدو « شيئاً ما » في عالم الحضارة ، وسنقتصر هنا على روسيا والصين ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا والبانيا وكوبا وفيتنام ، ومن الغريب حقا أن تعلو كلمة الايديولوجيا على كلمة الحقيقة . وتزيف هذه بصور شتى تجميلا للايديولوجيا لا وصفا للواقع .

الجدول رقم (٢)
اوضاع الدول الاشتراكية

البلد	المساحة كم٢	السكان بالملايين	التعليم الثانوي	العالي التعليم	الدخل العام	متوسط الدخل	أمل الحياة	تلفزيون	اطباء
					مليار روبل	الفردي روبل			
الاتحاد	٢٢ر٤٠٢ر٢	٢٨٩	٩٦	٢٣ر٨	٦٤٨	٢٢٤٢	٧٠ر٦	٣٢١	٤ر٤٤
الصين	٩ر٣٦٢١٢٢	١ر١٣٩	٩١	١ر٧	٤١٨ر٩	٣٧٠	٧٠ر١	٢٤	٠ر٩١
					م.د	دولار			
يوغسلافيا	٢٥٥ر٨٠٤	٢٣ر٨١	٨٠	١٨ر٣	٥٩ر٠٨	د ٢٤٩٠	×	١٧٩	١ر٨٣
بلغاريا	١١٠ر٣١٢	٩ر٠١	٧٥	٢٥	٦٧ر٦	د ٧٥٤٠	×	١٨٤ر٩	٣ر٨١
رومانيا	٢٣٧ر٥٠٠	٢٣ر٢٧	٧٩	٩ر٨	١٥١ر٣	د ٦٥٧٠	×	١٥٩	٢ر٧
البانيا	٢٨ر٧٨٤	٣ر٢٤	٨٠	٨ر٢	٢ر٨	د ٩٣٠	×	٨٣	١ر٠٥
كوبا	١١٠ر٨٦١	١٠ر٦١	٨٠ر١	٢١ر٦	١٥ر٢٥٤	د ١٤٨١	٧٥ر٤	٢٠٢	٣ر٩٠
فيتنام	٣٣٣٠٠٠	٦٦ر٧	٤٦ر٩	٢ر٣	٧ر٠١٥	د ١١٣	٦٢ر٧	٢٤	٠ر٣٠

ونلاحظ هنا أن الدول الاشتراكية جملة ، تبدو فقيرة جدا بالنسبة الى البلدان الغربية . ذلك أن أصغر دخل متوسط لهذه الاخيرة هو الدخل الاسباني الذي يساوي ١١٠٢٠ د. للفرد الواحد ، مقابل إعلى دخل للدول الاشتراكية هو ٧٥٤٠ لبلغاريا (ويعتبر هذا دخلا عاليا نسبيا) ومقابل ٦٥٧٠ لرومانيا التي تستفيد من عائدات البترول (وكذلك من تهريب اليهود الى فلسطين ، إذ أن تشاوسسكو صرح بأن هذا التهريب يعود عليه بأموال اكبر من عائدات النفط)(١) . ومن هنا نفهم لم امتنعت

(١) جاء هذا في الكتاب الاحصائي الذي نشير اليه هنا ، ولكن في العام ١٩٩١ .

رومانيا عن قطع علاقاتها مع اسرائيل ، بعد حرب ١٩٦٧ ، خلافا لسائر الدول الاشتراكية . لكن المشكلة هنا هي أن من الغريب جدا ان يكون هذا الدخل ٢٤٩٠ في يوغسلافيا ، التي تعيش في نفس الشروط المناخية والحضارية ، لرومانيا أو بلغاريا . اما مثال كوبا والتي يربح مواطنها ١٤٨١ والبانيا التي يربح الفرد فيها ما يعادل ٩٣٠ دولارا ، وفييتنام التي يربح مواطنها ١١٣ دولارا في السنة ، فاننا نكاد ان نتذكر بنغلاديش ، ونتساءل بحق : ألمثل هذه النتائج قامت حرب فييتنام العظيمة ؟ .

لكن السؤال الأهم في هذه المناسبة ، هو أن هذه الدخول ، باستثناء فييتنام ، تعتبر أكبر من كل الدخول العربية ، ما عدا دول البترول ، فلِمَ إذن قامت قيامة شعوبها ، ووجدت ان افضل ما تصبو اليه هو سقوط انظمتها ؟ .. إن ٦٥٧٠ دولارا للفرد البلغاري و ٩٤٠٠ للروماني و ٧٥٤٠ للبلغاري لا ينبغي أن يثير شغب الناس ، باية حال . ولئن هبط هذا عن مستوى اوروبا الغربية ، بمقدار اقله النصف ، فانه زاد على أكبر متوسط تعرفه الدول المتخلفة اللانفطية ، فكيف حدث ان انقلب الناس على هذه الانظمة ؟ وفي هذه الحال نحن نفهم تماما ان يكون الشعب البلغاري قد أعاد حكم الحزب الشيوعي ، بالانتخابات الحرة . لكننا لا نفهم أن يكون الدين العام البلغاري ١١ مليار دولار ، ولا نفهم أن تكون هذه البلغاريا بحاجة الى ٥.٣ ملايين دولار ، تستدينها من صندوق النقد الدولي ، وأن تجتاح بأزمة اقتصادية ، تضاعفت فيها قيمة المواد الغذائية خمس مرات او سبعا . لم يبق اذن إلا ان نقول : إن الاحصاءات المعلنة ، ليست هي الأرقام الحقيقية ، أو ان حب الحرية أكبر من كل ربح مادي . ترى ماذا يفعل سجين ما ، اذا كان يملك ملايين الدولارات في المصارف ، ثم لا يستطيع أن يسعد بأكثر من الطعام والشراب في السجن ؟

وهنالك جيران لهذه الدول الاشتراكية مثل قبرص ، واليونان ومالطة ذات دخل متوسط لا يزيد كثيرا ، وربما قل عن مستوى رومانيا وبلغاريا . فقبرص تتمتع بـ ٧٠٦٦ د. للفرد الواحد ومالطة بـ ٦٣٤٣ واليونان بـ

٦٠٩٩ (وكلها افضل بكثير من تركيا المستعمرة القديمة لكل هؤلاء ، والتي لا تتمتع للمواطن الواحد باكثر من ١٦١٠) . ولم نسمع مع ذلك انه قامت ثورات ضد النظام الحاكم في كل من هذه الدول . ولا بد ان يتساءل الانسان : ما دامت بلغاريا ورومانيا (خلافا ليوغسلافيا) تتمتعان بمثل هذا الدخل القريب من جاراتها ، فلماذا لم تثر الثورات ، من اجل الحرية ، إلا في امثال بلغاريا ورومانيا ؟ ولئن بقيت يوغسلافيا بعيدة عن الحركة الثورية الشاملة ، فلا شك أن ما تعانيه اليوم ، هو دخول من نوع ما في هذه الحركة ، ولكن من أبواب أخرى ، لاسيما وأن دخلها هابط ، وهو لا يزيد عن ٢٤٩٠ للفرد الواحد ، رغم اختلاف مستوى الثروة في كل جمهورية من جمهورياتها . وأين ثروة الجبل الأسود ، من ثروة سلوفينيا مثلا ؟ ولنلاحظ أن الحركة الديمقراطية توازي الحركة الانفصالية كما أن الاعلان عن التخلي عن الايديولوجيا الماركسية هو الشعار السائد .

لكن هناك احصاءات أخرى تزيد الصورة وضوحاً . وهي احصاءات الصين ذات المليار والمئتي مليون تقريباً ، والتي لا يزيد فيها الدخل المتوسط عن ٣٧٠ دولار ، وإحصاءات سويسرا التي تشير الى ان دخلها الوطني السنوي يعادل ٢٠٨ مليار دولار ، مقابل ٩ر٤١٨ م . د للصين . ومن المناسب ان نعرف أن سكان سويسرا لا يزيدون عن ٦ر٦١مليون نسمة ، بمساحة قدرها ٤١٢٨٨ كم٢ ، واذا هي قيست بمساحة الصين القريبة ، او الاكثر من المساحة الامريكية (١٢٣ر٣٦٣ر٩) كم٢ لامريكا و ٩٥٩٦٩٩١ر٩ للصين) ، بدا بوضوح أن سويسرا ليست الا زاوية صغيرة جداً قد لا ترى الا بالمجهر إذا هي وضعت داخل الصين ، فكيف يتسنى للصغير جداً أن ينتج أكثر من عظماء العمالقة ؟ واظن ان الصورة تتضح اكثر فاكثر اذا هي قوبلت في جدولها الطبيعي . فلننظر الى هذا الجدول :

البلد	الدخل القومي	متوسط الدخل الفردي	المساحة	السكان	التعليم العالي	عدد الاطباء
السوفييت	٦٤٨ مليار دولار	٢٢٤٢ روبل	٢٢٫٤٠٢٫٢٠٠ كم٢	٢٨٩	٢٣ر٦	٤٤ر٤
الصين	٤١٨ر٩ م.د	٢٧٠ دولار	٩٫٥٩٦٫٩٦٠ كم٢	١١٣٩	١ر٧	٩١ر٠
سويسرا	٢٠٨ م.د	٣١٫٤٧٦	٤١٫٠٠٠ كم٢	٦ر٥	٢٢ر١	٢ر١٤

فكان كل سويسري يربح أكثر من ١٧٠ صينياً ، واكثر من ٤٤ روسياً هذ ان حسبنا الروبل في قوته الشرائية كالدولار .

لكن الامر لا يقتصر على سويسرا ، بل ان وراءه أمثلة كثيرة ؛ فالنمسا (٨٣٫٨٥٠ كم٢ و ٧ر٥٨ مليون نسمة) ، تمتع سكانها بمتوسط دخل قدره ١٩٫٥٣٨ ؛ وبلجيكا (ذات التسعة ملايين ونصف من السكان) تمتعه بـ ١٨٠٤٩ ، وهولندا بـ ١٧٣٣٨ دولار ، والسويد بـ ٢٤٨٥٨ والنرويج بـ ٢٤٨٢٢ (حذوك النعل بالنعل) ، وفنلندا بـ ٢٢٩٢٠ هذا فضلا عن أن هذه الدول غير مسلحة بعقائدية ماركسية صينية . ترى كيف تكون الحال ، اذا هي تسلحت بها ؟

والآن ما هي اوضاع الدول العربية ؟

لا شك ان هذه الأوضاع ليست فريدة في نوعها . بل ان الكثير من دول أفريقيا (كلها تقريبا ، ما عدا جنوب افريقيا) وبعض دول أمريكا الجنوبية تشبهها في التخلف الثقافي ، والاقتصادي والعلمي والتقني .

لكن من التعميم المبالغ به الى أبعد الحدود ان نقول ، إن امريكا اللاتينية ، بالجملة ، في وضع مماثل للوضع العربي ، ذلك أن مستوى الدخل المتوسط في كل من الارجنتين (حيث يبلغ ٢٢٦٠) والمكسيك (٢٣٦٠) والبرازيل (٢٥٥٠) ، وفي بورتوريكو (٦٠٣٤) وغويانا الفرنسية (٢٧٣٦) وسورينام (٣٠٣٠) ، وفنزويلا المعروفة بفقرها (٢٤٢٠) والارجنتين (٢٢٦٠) والتشيلي (١٨٩٠) واوروغواي

(٢٦٢٠) وباراغواي (١١٥٠) ، مما يعني أن هذا المتوسط أرقى منه في مختلف البلاد العربية اللانفطية . واذا كانت بعض البلدان في أمريكا الجنوبية في مثل الوضع العربي رداءة ، فانها على كل حال لا تشغل الا حيزاً ضيقاً في هذه القارة .

لكن الفرق الاساسي بين البلاد العربية ، وامريكا اللاتينية هو الوضع الزراعي أولا ، إذ لا تشكو جنوب أمريكا من قلة الامطار ، وليس لديها صحارى مخيفة كالتي عندنا ، ومهما يكن الامر فيها ، فانها لن تجوع لأن اراضيها خصبة بالجملة ، والمنظر العام فيها اخضر . أما عندنا فان الصحارى تملأ الارض . ولا تترك الا هامشاً قليلا للخضرة ، ومن المعروف ان البلاد العربية كلها تشكو من تزايد الاستيراد لمختلف انواع الغذاء ، ولا سيما الطحين ، والذرة ، وحتى الشعير . اما اللحوم ومشتقات الألبان على اختلافها والزيوت فانها في اكثرها يأتينا من البلاد الأجنبية . وعندما يقال ، ان بلادنا زراعية بالدرجة الاولى ، فلا يجب ان يؤخذ هذا الكلام ، على اطلاقه ، ولكن يجب ان نفهم بمعنى خاص جداً ، خلاصته ان الزراعة في بلادنا يجب ويمكن ان تكون الهم الاول لبلادنا ، لأنها اساسية جداً لحياة المواطن . وحسبنا أن نلاحظ ان سورية بحاجة الى استيراد ما يعادل المليون طن من القمح او الطحين ، في كل عام ، وبغير ذلك تحصل المجاعة ، وكذلك فان المساحة المزروعة في وادي النيل تساوي ٢٣٪ من الأراضي ، منها ٦ر٤٪ في مصر ، والباقي في السودان ، وان ليبيا بحاجة الى استيراد نصف غذائها من الخارج ، وربما أمكن ان نقول : اننا نشهد عصر موت الانهار في بلادنا ، ففي سورية يكاد نهرا بردى والعاصي أن يجفا تماماً ، وفي مصر ، يهدد النيل بالسدود التي ستقوم في اثيوبيا بمساعدة اسرائيل . وعندئذ تصبح حياة مصر وابنائها على كف عفريت ، كما يقول الباحث المغربي في مقاله عن الأمن المائي في الوطن العربي(١) وقل مثل ذلك عن الفرات ودجلة المهددين ،

(١) راجع العدد ١٩٩١/٧٦ ، الذي عنوانه الامن المائي العربي والعدد الاخير والعدد ٨٤ بعنوان : مشكلة الغذاء في الوطن العربي .

بخطورة من قبل الجار التركي ، وعن المياه النهرية والجوفية في سورية التي تسرقها اسرائيل بكثافة متزايدة .

ويشير المختار مطيع في مقاله عن موضوع الامن المائي في عدد الوحدة نفسه ، الى ان السودان اصيب بالجفاف ، وتأثر به أكبر التأثر اذ ان ستة ملايين سوداني حلت عليهم لعنته ، وان من تأثر بهذا الجفاف في موريتانيا . بلغ حوالي مليون نسمة ، مما ادى الى نزوح ربع مليون موريتاني من بلادهم ، كما أن تونس نفسها مرت بازمة « الخبز » عام ١٩٨٤ ، وشهدت اضطرابات عنيفة من جراء ذلك(٢) وأكاد اعتقد ان بين ابحاث الباحثين المفضلة في ايامنا هذه بحث مشكلة « الامن الغذائي » والأسوأ من فقرنا بالماء الذي تمنى معه كاتب مثل السيد رياض نجيب الريس ، مقالا في مجلة المستقبل التي كانت تصدر في باريس ، حتى عهد غير بعيد ، بعنوان . آه ! من يبيعنا ماء بنفطنا ، او ما يشبه ذلك . (بل ان عالم المعرفة ، اصدر كتابا بعنوان : مشكلة انتاج الغذاء في الوطن العربي (العدد ٢١) منذ اكثر من عشر سنوات) .

وخلاصة القول ، ان في وسع امريكا اللاتينية أن تتفادى خطر الجوع اذا انقطع التصدير ، كما تتفادى خطر العطش . أما عندنا ، فكأنه لا يكفينا ما لدينا من سعة الصحارى ، بل يجب ان تزداد بمشكلة التصحر ، الخطيرة الحدود جداً .

والسبب الثاني الذي يفصلنا عن امريكا اللاتينية ، هو ان تقدم بلاد هذه القارة لا يشكو من أي مانع استراتيجي ، على الرغم من حرص الولايات المتحدة على الهيمنة عليها . أما العرب فان التقدم « ممنوع » عليهم . لانهم اذا تقدموا ، سواء عن طريق الوحدة ، او عن

---

(٢) يرجع الى العدد نفسه لمزيد من التفاصيل . كما يرجع الى بحث الدكتور خالد تحسين على في المستقبل العربي ، السنة ٤ ، العدد ، ٣٢ . وقد أعيد نشر هذا المقال في كتاب مركز دراسات الوحدة العربية ، الذي عنوانه : دراسات في التنمية والتكامل .

طريق الاستقلال بما لديهم من الموارد الاقتصادية ، والنفط خاصة كانوا مصدر تهديد موقت أو دائم للوجود الاسرائيلي ، والنهب الامريكي . ولا اظنني اعبر عن رأي شخصي عندما أقول أن هناك اعتقادا قويا بانه لا امريكا ولا أوروبا تريدان الخير للعرب ، وانهما تسعيان لاحباط كل مسعى يقود الى التقدم . ولئن كان هناك من يتهم القادة العرب بوقوفهم ضد الوحدة ، فانا أول من يبرئهم من هذا الاتهام ، ولكني أقول انهم يعانون من ضغوط اجنبية قوية في هذا المجال .

والآن لنحاول استعراض الاحصاءات العربية ، كما استعرضنا أوضاع البلاد المتقدمة ، والاشتراكية، من خلال إحصاءاتها ولنضع الجدول التالـي :

قرائن التقدم الأساسية للبلاد العربية
النماذج الكبرى

اسم البلد	متوسط الدخل الفردي بالدولار	التعليم الثانوي ٪	التعليم العالي ٪	عدد الاطباء ٪..	أمل الحياة	نسب التلفزيون
سورية	١٠٢٠	٦٩ر٣	١٧ر٨	٠ر٧٧	٦٦ر١	٥٩٪
العراق	٢٦٢١(عام٨٩)	٥٨(١)٭	١٢ر٨ (٢)٭	٠ر٥٥	٦٥ر٥	٦٨
الاردن	١٧٣١	٧٩	٢٧ر٤	١ر١٤	٦٦ر٩	٧٠
السعودية	٦٢٢٠	٥٤ر١	٨ر٧	١ر٤٠	٦٤ر٥	٢٦٩
الكويت	١٦٢٨٠	٧٣ر٢	١٦ر٧	١ر٥١	٧٢ر٤	٢٦٢
اليمن ش	٦٤٠	٢٤ر٥	٣ر٥	٠ر١٧	٥٢	٣ر٩
مصر	٦٣٠	٦٣	١٩ر٨	٠ر٢٠	٦٠ر٣	٨٤
ليبيا	٥٥١٤	× (٥١) (٢)٭	١٠ر٥	١ر٣٨	٦١ر٨	١٢١
تونس	١٢٩٠	٦٧	٧ر٠	٠ر٤٦	٦٦ر٧	٧٠
الجزائر	٢١١٠	٦٤ر٧	٩ر١	٠ر٤٣	٦٥	٦٩
المغرب	٩٦٠	٣٧ر٦	٩ر٨	٠ر٢١	٦٢	٥٥
السودان	٤٢٠	٦٣	١٩ر٨	٠ر١٠	٥٠ر٨	٥٣

٭ النجوم الثلاث لا تعود الى عام ١٩٩١ بل الى عام ١٩٨٩ . وعلى كل حال :

(١) فان الاختلاف بين سنة وأخرى . لن يكون كبيرا بحيث يسيء الى التقدير الموجود هنا .

(٢) نحن نغفل بعض الدول العربية ، لصغر حجمها كقطر ، وعمان ، والامارات على كبر أهميتها الذاتيـة .

ولئن أكتفينا بمتوسط الدخل الفردي دون الدخل العام ، وبنوعي التعليم الثانوي والعالي . وبعدد الاطباء ، وبأمل الحياة ، وبنسب التلفزيون وحدها ، فذلك لابراز صورة اساسية عن كل دولة عربية ؛ هي بمثابة الهيكل العظمي لها ، الذي يقدم لنا اكثر ما يجب ان نعرفه منها . أما نسبة اجهزة الاذاعة المرئية ، فمن الواضح اننا نضيف بها مستوى ما من المتع الكمالية ، أما أمل الحياة فانه يعبر عن مستوى الشروط الصحية العامة للبلد ، وطبيعي انيكون حظ المواطنين السعوديين والكويتيين في هذه القرينة أكبر من حظ البلدان الشديدة الفقر . أما فيما عدا هذه البلدان ، فان من الصعب ان نجد علاقة بين مستوى الامل في الحياة . ومستوى الغنى ، باستثناء الكويت التي يبلغ متوسطها ٤ر٧٣ عاماً للفرد ، مقابل ١ر٦٦ لسورية و ٥٢ لليمن ، ولقد فصلنا نسب الامية عن غيرها ابرازا لها وبياناً لضعف العلاقة بينها وبين ثروة الامة . واليك الجدول التالي الذي يرينا نسب الامية في البلدان العربية .

نسبة الامية في البلدان العربية وعلاقتها بالدخل القومي ومستوى الدخل الفردي

البلـد	الدخل القومي بمليار الدولارات	الدخل الفردي	الامية	متوسط الامل في الحياة	
سورية	١٢ر٤٤	١٠٢٠	٣٥ر٥	٦٦ر١	
العراق	١٩ر٦٦	٢٦٢١	٣ر٠٤	٦٨ر٥	هذا العام ٨٩
السعودية	٩٠	٦٢٢٠	٣٧ر٦	٦٤ر٥	
البحرين	٣ر٠١	٦٣٦٠	٢٢ر٦	٧١	
الكويت	٣٢ر٣٢	١٦٣٨٠	٢٧	٧٢ر٤	
عمان	٧ر٤٦	٥٢١٧	س	٦٥ر٩	
قطـر	٤ر١٨	١٢٧٢١	٤٨ر٩	٢٤ر٢	
اليمن ش	٤ر٥١	٦٢٨	٦١	٥٢ تقريبا	
الامارات	٢٣ر٧٨	٢١٣٦٠	٤٦ر٥	٥٤	
الأردن	٥ر٢٩	١٧٣٠	١٩ر٩	٦٤ر٥	
لبنان	١ر٨٦٦	٦٧٥	١٩ر٩	٦٥	
مصر	٣٢ر ٥	٦٣٠	٥٥ر٥	٦٠ر٤	
ليبيا	٢٥ر٠٨٧	٥٥١٤	٣٦ر٢	٦١ر٨	
الجزائر	٥٢ر ٧	٢١١٠	٤٢ر٦	٦٥ر١	
المغرب	٢٤ر١٠	٩٦٠	٥٠ر٥	٦٢	
تونس	١١ر٣٧	١٢٩٠	٢٤ر٧	٦٦ر٧	
مصر	٣٢ر ٥	٦٣٠	٥١ر٦	٦٠ر٣	
السودان	١٠ر ٩	٤٢٠	٧٢ر٩	٥٠ر٨	

وبطبيعة الحال فـان الانسان يتساءل ما الـذي ينقص السعودية وامارات الخليج حتى تظل الامية باقية ، والجزائر صاحبة الدخل المحترم نسبيا ، ما خطبها حتى يبقى ٤٢،٦٪ من سكانها اميين . ومثل ذلك يمكن ان يقال في ليبيا ؛ وهي دولة تقدمية لا غبار على قادتها ، وسلامتهم الوطنية ، بل ان الانسان ليدفع بهذا النقد الى اعلاه ، ويتساءل لم لا يكون مستوى التعليمين الثانوي والعالي ، في البلاد العالية الدخل في مستوى مثيله في اسبانيا ، آخر الدول المتقدمة في الغرب ؟ ان التعليم الثانوي في اسبانيا عالي النسبة ٥٩٪ والتعليم العالي ٢١،٥٪ . فلم لاتكون الامارات وقطر ، والكويت ، والسعودية وليبيا على شاكلتها ؟ وهل ينقصنا المعلمون والمدرسون مثلا ، او الموازنة ، او الرغبة في التعلم ، او حرص الدولة على فرض الزامية التعليم .

ملاحظات اخيرة

نلاحظ اذن من كل ما تقدم جملة الملاحظات التالية

١ ـ ان سقف الدخل الفردي في البلاد العربية . اذا سلمنا بصحة الاحصاءات ، يكشف بوضوح من ان امـارات الخليج الصغيرة جـدا ، كالكويت ، وقطر ، والامارات تتمتع بدخل متوسط للفرد ، عال نسبيا اما السعودية فهي افضل بكثير من سائر الدول العربية الاخرى ، وحتى من ليبيا ، ومع ذلك فانها ، على ما لديها من ذخيرة نفطية ، هي ودول الخليج معها ، والأعظم في متوسط الدخل الفردي لديها ، ليست الا بلادا فقيرة ، حتى بالقياس الى بلغاريا ورومانيا وامثالهما من الدول التابعة فيما مضى للاتحاد السوفييتي . اما بالنسبة الى الدول الغربية الواسعة الثراء ، من اسبانيا فما بعدها ، فانها تعد تافهة جدا ، فضلا عن ان قلة سكانها (وفي دول الخليج بالذات) لا تعد مطلقا . ومهما طال الزمن بأي تفتح حضـاري .

٢ ـ ان التبعية للغرب تزداد قوة باستمرار . وهذا جدول يكشف لنا عن رقمي الاستيراد والتصدير في ١٩ دولة عربية . ومنه نرى ان

اوضاعنا ليست بسارة مطلقا . وعندما نتبعه بجدول الديون الخارجية . فسنستكمل صورة للبلاد العربية . اقل ما فيها انها نقيض ما نريده لها . في الماضي والحاضر والمستقبل .

جدول الصادرات والواردات في البلاد العربية

الدولة	الواردات (بالمليارات)	الصادرات	العجز أو الفائض
السعودية	٢٠ر٨١٠ م.د	٤٨ر٠٦٠	+ ٢٧ر٢٥٠
البحرين	٣ر١٠٠	٣ر٢٠٠	+ ٠ر١٠٠
الامارات	١١ر٠٠٠	٢٠ر٥٠٠	+ ١٠ر٥٠٠
الكويت	٣ر٢٦٠	٦ر٥٨٠	+ ٣ر٣٢٠
عمان	٢ر٤٥٠	٥ر٦٠٠	+ ٣ر١٥٠
قطر	١ر٤٥٠	٣ر١٠٠	+ ١ر٦٥٠
اليمن	٢ر٨٦٣	١ر٢٩٩	— ٨٥٦م.د
العراق	٥ر١٠٠	٨ر٥٠٠	+ ٢ر٤٠٠
الأردن	٢ر٢٠٠	٠ر٧٧٩	— ١ر٤٢١
لبنان	٢ر٣٩٠	٠ر٤٩٢	— ١ر٨٩٨
مصر	١٢ر١٨٥	٥ر١١١	— ٧ر٠٧٤
السودان	١ر٢٢٠	٠ر٤٠٠	— ٠ر٨٢٠
الجزائر	٨ر٦٤٠	١٢ر٨٠٠	+ ٤ر١٦٠
المغرب	٦ر٨٢٠	٤ر٣٠٠	— ٢ر٥٢٠
تونس	٥ر٥٤٢	٣ر٥٢٦	— ٢ر٠١٦
سورية	٣ر٤٠٠	٤ر٨٠٠	+ ١ر٤٠٠
			+ ٣٨ر٠٥٥
			— ١٦ر٦٠٥

فاذا عرفنا الآن انه يوجد فائض من التصدير لدى دولة عربية ما، فلا ريب انه ينشأ عن تصدير بعض المواد الخام ، وأهمها النفط والفوسفات . ولاول مرة منذ عشرات السنين تفيض صادرات سورية على وارداتها (وذلك طبعا نتيجة لتصديرها النفط والفوسفات معا) .

لكن الغريب حقا هو انه يوجد بلد عربي مثل البحرين سكانه نصف مليون نسمة ، ولكنه يستورد ، مع ذلك ، ما قيمته ١٠٠ر٣ مليار دولار ، أي ما يعادل تقريبا ضعف الموازنة السورية . ومن الغريب أن سورية نفسها (وفيها ما يناهز الثلاثة عشر مليونا من السكان) تستورد بقدر ما تستورده السيدة البحرين . غير أن قطر ، على ان سكانها لا يزيدون عن ٣٧٠٫٠٠٠ نسمة تستورد هي ايضا ما قيمته ٤٥٠ر١ م.د ، أي نصف ما تستورده سورية . وبتعبير آخر ، أينما وضعت يدك ، في البلاد العربية تجد العجب العجاب ، ويقال بعد ذلك . اننا نريد جازمين . ان نقف صامدين ضد العدو الاسرائيلي ! واظن انه من هنا ، ولهذا السبب ، لم يعد بموجود ذلك الذي كانوا يسمونه بجبهة الصمود .

واذا عدنا الآن الى الديون الخارجية وجدنا البحرين مديونة بـ ٢٨٩ر١ مليار دولار والامارات بـ ٠٠٠ر١١ والكويت بـ ٢٥٠ر٧ وعمان بـ ٩٧٤ر٢ ، وقطر بـ ٩١٦ مليون دولار (حتى قطر) ، واليمن بـ ٨٣٠ر٥ ، والعراق بـ ١٥ مليارا والاردن بـ ٤٢٠ر٧ وسورية بـ ٢٠٠ر٥ ، والمغرب بـ ٩ر٢٠ ، والجزائر بـ ١ر٢٦ ، وليبيا بـ ٢ر٣ ، وتونس بـ ٩ر٦ وموريتانيا بمليارين ، ومصر بـ ٨ر٤٨ ، والسودان بـ ٩ر١٢ ولعل من الاوضح لعيون الناس أن نضع هذه الارقام في جدول ، هو التالي .

المديونية الخارجية للدول العربية

البحرين	٢٨٩ر١	المغرب	٩ر٢٠
الامارات	٠٠٠ر١١	الجزائر	١ر٢٦
الكويت	٢٥٠ر٧	ليبيا	٢ر٣
قطر	٩١٦ر٠	تونس	٩ر٦
اليمن	٨٣٠ر٥	موريتانيا	ر٢
العراق	٠٠٠ر١٥	مصر	٨ر٤٨
		(ـ ٧ أو ٩ . مقابل حرب الخليج)	
الاردن	٤٢٠ر٧	السودان	٩ر١٢
	٧٠٥ر٤٨		٨ر١٢٠

مما يعني ان مجموع الديون العربية المعترف بها رسميا لدى المحافل الدولية يسادل حوالي ١٧٠ مليار دولار ، ترى كم هي الفوائد السنوية لهذا الدين ؟ وهل يعادل كل ما نصدره من نفط او تنقص عنه ؟

٣ — ولقد عرفنا من سياق البحث ان دولة كسويسرا ، مساحتها اقل من ربع مساحة سورية ، او ثلث مساحة تونس ، ولا يتجاوز عدد سكانها ٦ر٦ ملايين نسمة ، اي نصف سكان سورية ، تنتج دخلا قوميا قدره ٢٠٨ مليارات دولار ، على غير نفط ولا ذهب ولا ماس في اراضيها . وهذا الدخل وحده اكثر من نصف الدخل العربي بمجموعة . (٣٦٧ مليار دولار) . ومثل سويسرا بلجيكا وهولندا ، حتى ان دخل سويسرا وهولندا معا تنتجان اكثر بغير قليل من الانتاج القومي العربي (اي ٢٠٨ + ٢ر٢٥٩ لهولندا = ٢ر٤٦٧) ذلك ان هذا الانتاج تضاءل مؤخرا ، واصبح في حدود الـ ٢٠٠ مليار دولار لدول الخليج ومئة لدول الهلال الخصيب و ٥٩ر٤٢ لمصر والسودان ، وما يعادل ٢٩ر١١٤ لدول المغرب كلها بما فيها ليبيا وهكذا يكون المجموع ، مما يؤلف مجموعا قدره ٤١٤ مليار دولار اي ما هو اقل بـ ٥٣ مليار دولار من مجموع سويسرا وهولندا . اما ان يظن احدهم أن هؤلاء آلهة ، ونحن فصائل بشرية منحطة ، فان ذلك ضرب من الوهم ، وفي رأي كل واحد منا انه يتميز شخصيا ، ووجدانيا ، على الاوروبيين جملة . ولا يقبل ان يتهم بأننا دونهم في شيء . والمشكلة هي ان مصادر السلطة كلها ، كما يقول توفلر في كتابه « السلطات الجديدة »(١) لا تتعدى حدود القوة ، والثروة ، والعلم ، وهي كلها تميل باتجاه العلم وحده ، لانه هو الذي أصبح يخلق الثروة والقوة معا . وبالتالي فان ما ينقصنا هو المستوى العلمي العالي اولا ، ثم هو صورة انظمة الحكم التي تتيح للانتاج العقلي أن يبرز ويتميز ، وليس هذا بالخطب الجلل .

(١) كتاب السلطات الجديدة الذي ستظهر طبعته العربية عما قريب عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق .

٤ ــ واكثر من ذلك ان هذا التقدم الغربي ليس وقفا على الدول الغربية . وامريكا ، بل ان كوريا الجنوبية (ويصل دخلها الى ١١٥٫٧ مليار دولار) تنتج ثلاثة أضعاف مصر . وتايوان الجزيرة تنتج مايزيد : عن ضعف مصر (ومساحتها ٣٥٫٩٨٠ كم٢ ، مقابل مليون لمصر) وكذلك هونغ كونغ التي تنتج اكثر من سورية بثلاث مرات على أن مساحتها لا تزيد على الالف كم٢ ، ومثلها سنغافورة ذات الـ ٦١٨ كم٢ والـ ٢٫٦١ مليون نسمة تنتج زهاء العشرين مليار دولار . ولئن استطاع هؤلاء الناس ان يصلوا بانتاجهم الى هذا المستوى فانه لا يبقى شك في ان العرب قادرون على أن ينسجوا على منوالهم (على الاقل !) ، ولكن لا في نفس الشروط التي انتجت هذا الضعف ، والبؤس ، والفقر ، والجهل ، والغباء ، من الزمن القديم حتى الآن .

٥ ــ وفي مثل هذه الشروط التي لم تنتج الا ما نحن فيه ، وفي صور العجز التي يعاني منها العرب أكبر المعاناة ، على نحو ما جاء في عددي الوحدة عن الامن المالي ، والعجز الغذائي ، وعلى نحو ما يكتب باستمرار في كل الابحاث الفكرية التي تصدر عن الباحثين العرب ، ينبغي على العربي أن يلاحظ صور الحياة التي تنتظره ، من مثل ما انجز له السلف ، حتى يومنا هذا ، من تراث حضاري ، جعله في أدنى مستويات السلم الحضاري واسوأ درجات الفقر والذل ، وذلك بغض النظر عن اسرائيل ، ومعها او بدونها .

٦ ــ لا بد اذن أن نتخلى نهائيا عن الاعتقاد ان ما نحن فيه هو من عمل العناية الالهية ، ونحن لم نقدم الا احصاءات موضوعية عن الدول المتقدمة ، والدول المتخلفة ، ونظرنا بعيون هذه الاحصاءات وخرجنا من « الحكم الذاتي » الذي تدخل فيه معادلة الانسان الشخصية . وليس يعنينا بعد الآن أن نعلق الذنوب ، ذنوبنا نحن ، على كاهل الاستعمار والامبريالية والرأسمالية . ولا ادري ماذا ايضا . ذلك ان كوريا الجنوبية وتايوان وهونغ كونغ ليست ببعيدة عن هذا الاستعمار ابدا . وحتى اذا قلنا ان امريكا أرادت الثروة لهذه الدول الاخيرة ، تحديا للنظام الشيوعي

فان مما لا شك فيه كانت في مثل هذه الحاجة عندنا لابعادنا عن النظريات الستالينية وعلى كل حال ، فانه لم يكن مستحيلا أن نجد الطريق الى التقدم والمزيد من الحضارة .

وخلال ذلك يناضل الشعب العربي في سبيل وحدته ، التي هي الاساس في تقدمه الاقتصادي والاجتماعي والحضاري . لكنه يفاجأ « من فوق » بارادات ستاتيكية تصر على ان تبقى الدنيا كما هي كان قدرا علويا يفرض عليها أن ترث التخلف ، وأن تورثه ، بعد أن تضيف اليه مما عندها من نوعه . وخلال ذلك يناضل المغرب العربي لتحقيق وحدته التي تبقى مجرد سؤال معلق في الفضاء . ترى كم يجب أن ينقضي من القرون ، قبل أن يحقق شيئا من هذه الوحدة ؟ انه بيد وأنهم يعملون هناك على اساس أن الزما ، لا نهاية له ، فلم اذن العجلة والتسرع ؟

المراجع :

فيما يتصل بالاحصاءات ، عدنا الى الموسوعة السنوية L'itat du monde عام ١٩٩٢ ، والاعداد التي قبلها .

ـ وفيما يتصل بالتقابل بيننا وبين امريكا اللاتينية عدنا الى الجغرافية الطبيعية والاقتصادية لبلدان هذا القسم من امريكا ، والى موسوعة لاروس ذات العشرة اجزاء ، وكذلك الى الكتب الجامعية الجغرافية والى كتاب حضارة الاسلام لاندري ميكيل .

ـ وفيما يتصل بالموضوعات الاخرى ، كانت مراجعنا عددي الوحدة ، الاخيرين ، والى كل ما سبقهما من الدراسات الكثيرة والمتصلة بالامن الغذائي .

ـ وكذلك الى بحث الدكتور تحسين علي في الكتاب المعنون : ب ابعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمات المستقبل الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية ، في بيروت باشراف الدكتور عبد الحميد براهيمي .

واخيرا كانت الافكار المختلفة الاخرى ، مستوحاة من كتاب توفلر ، ذي العنوان Les mouveaux pouvis المترجم حديثا الى العربية وسيصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق .

والغرب أيضاً... متخلف

المهندس عبد الوهاب المصري

من الحقائق التي لايرقى اليها اي شك في هذا العصر ، ان الغرب « متقدم » .. لقد حقق معدلات عالية جدا في انتاجية المصانع والمزارع ، وفجر الذرة، وطوع اللايزر ، ووصل الى القمر ، وانتج اجيالا متقدمة من الحواسيب ، و ... الخ .

عبد الوهاب المصري : مهندس وباحث من سورية ، دبلوم اخصائي في تنمية المجتمع ، نشر عدة مقالات ودراسات في الصحافة المحلية والعربية ، امين سر جمعية العلوم الاقتصادية والاجتماعية الزراعية في سورية .

نعم ! الغرب « متقدم » في كثير من مجالات العلم والثقافة (التكنولوجيا) . وحيث أن لكل شيء في هذه الدنيا ثمنا لابد من دفعه ، فان ذلك « التقدم » لم يكن بدون ثمن . بل كان الثمن باهظا جدا . ويقول الفيلسوف مارتان هيدغر : « العصر شامخ ، ولكن في منظر كئيب » .. فهو « قصر شامخ بالانجازات وما حقق الانسان في هذا القرن ، ولكن في منظر كئيب بتعدد المعاناة . فكل يعاني ، وليس في هذا العصر الا من يردد هذه المعاناة »(١) . ويقرر مسؤول امريكي انه « اذا لم نكن واعين ، فسيذكرنا التاريخ على اساس اننا الجيل الذي رفع انسانا الى القمر ، بينما هو غائص الى ركبتيه في الاوحال والقاذورات »(٢) .

وللوقوف على أوجه وابعاد المفارقات التي خلقها « التقدم » العلمي والثقافي في الغرب ، نعرض ، هنا ، لبعض الشهادات (لشهود من أهله)، وبعض الارقام التوضيحية ، حول الحضارة الغربية الحالية ، ونخلص بعض الاستنتاجات .

١ ـ شهادات .. حول حضارة الغرب

١ ـ ١ ـ حضارة فاوستية !!!

يقول المفكر الفرنسي روجيه غارودي : « إن فاوست(٣) هو الرمز المأساوي لثقافتنا الغربية . ومنذ أواخر السادس عشر ، حدد كريستوفر مارلو في « التاريخ المفجع للدكتور فاوست » شعار الحضارة الجديدة..

بدماغك القوي ، يا فاوست ، صر إلها ...

سيد العناصر كافة ، وربها

وهذا الشعار قد سبق بنصف قرن وعد ديكارت بعلم يجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها »(٤) .

ويرى كولن نورمان (من معهد وورلد واتش في أمريكا) ، أن « الثورة لوجية في العقدين الاخيرين تبدو بمثابة صفقة فاوستية

بالنسبة للكثيرين .. حيث يتم شراء التقدم الاقتصادي والمادي مقابل ازدياد الاعتماد على موارد غير قابلة للاحلال ، وتدهور البيئة ، وفقدان السيطرة على العديد من نواحي الحياة اليومية . ويبدو ان شروط هذه الصفقة تتدهور بسرعة »(٥) .

وتقول نظرية فاوست بأن « على الانسان الا يقبل اي حدود او قيود لسلطانه وقدرته . فرجل فاوست يجد اللذة والرضى في السيطرة على العالم الخارجي ، وفي محاولاته الدائمة للوصول الى مالايمكن الوصول اليه . فلا مجال ولاحظ اذن في ايجاد توازن مستقر (بين عناصر البيئة) في هذه الحالة »(٦) .

ويقرر غارودي أن تلك الحضارة الفاوستية « حضارة مؤهلة للانتحار .. انتحار لفقدان الهدف ، يشهد على ذلك ضروب الفرار الى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد اكبر في الاصقاع الاغنى . وانتحار لافراط الوسائل .. يبرهن على ذلك مثلا ، المنظور الجائز لنضوب المصادر الطبيعية والتلوث ؛ وذلك نتيجة لازمة لتصور لا يرى في الطبيعة شيئا آخر سوى انها مستودع او معمل لمعالجة القمامة ، والمنظور يتصرف بوسائل هدم الحضارة بهذين الاعتبارين »(٧) .

١ ـ ٢ ـ حضارة « القلق » !!!

يقول العالم الامريكي رينيه دوبو ، الحائز على جائزة نوبل في العلوم : « نحن نميز جيلنا بتسميته « عصر الذرة » ، و « عصر الفضاء » ، و « عصر الهياكل الآلية » ، و « وعصر المضادات الحيوية » . اي بتعبير آخر ، عصر هذه التكنولوجيا او تلك . هذه التعابير نستعملها برضى أهل التكنولوجيا . اما الانسانيون فيحتقرونها . والتعبير الوحيد الذي لقي قبولا جماعيا هو « عصر القلق » ...

« ومن التناقض ، أن يكون عصر الرفاه والعجائب التكنولوجية والمعجزات الطبية هو ، ايضا ، عصر الامراض المزمنة والقلق واليأس . (...) ويميل علماء النفس والاجتماع والاخلاق الى عزو القلق واليأس الى

انقطاع الصلات الاجتماعية الحميمة ، والانفراد والوحشة التي تعم المدن المعاصرة . وهذا الانقطاع ليس فقط بين البشر انفسهم ، بل ايضا بينهم وبين قوى الطبيعة التي كان لها اثر في « هندسة » كيان الفرد العضوي والوظيفي ــ الفسيولوجي ــ والفكري ، والتي لاتزال تحدد اكثر تفاعلات الفرد الاساسية . ان الفوضى في العلاقات الانسانية ، وكذلك الفوضى في الصلات بين الانسان وبيئته ، تصدران عن أصل واحد »(٨) .

وتتساءل إحدى النساء الفرنسيات : « ما قيمة التطور ان لم يقدم العون للجانب الانساني في الانسان ؟ ما قيمة التقدم ؟ وهل يرتقي الانسان الى حال افضل عندما يستخدم الغسالة الاوتوماتيك والجينز وقمصان اللاكوست التي لا تحتاج الى الكوي . حقا ان الحضارة وفرت على الانسان الجهد العضلي ، الا انها عقدت حياته على الصعيد النفسي، ولا ندري بالضبط ان كنا قد تقدمنا فعلا ! »(٩) .

١ ــ ٣ ــ الثقافة .. مفيدة ولكن !!!

تهدف الثقافة (او التكنولوجيا) الى توفير الجهد ، و/ او الوقت ، و/ او الامكانية (اي امكانية انجاز اعمال لم تكن في الماضي ممكنة) . وتهدف ، في النتيجة ، الى انتاج سلع وخدمات اكثر رخصا ، و/ او اكثر فائدة ، و/ او اكثر متانة(١٠) ولكن . .

* يقرر اوريليوبيشيي (مؤسس نادي روما) أن سلوك المنحى الحالي الذي تولد فيه التكنولوجيا الاثار السلبية على البيئة « لا يمكن الا أن يقود الى القتل الذاتي للعنصر الانساني .. وبعيدا عن أن نكون أسياد مصيرنا ، فقد اصبحنا سجناء انجازاتنا التكنولوجية(١١) » .

* يقرر الدكتور رينيه دوبو أنه « منذ قرنين تقريبا ، والانسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية . ولا جدال في ان المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي ، وحسنت من صحته العضوية ، الا أنها لم تجلب له ــ بالضرورة ــ الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة »(١٢) .

* يتساءل احد الناشرين الانكليز قائلا « كل واحد منا يواجه اليوم خطرا شديدا يهدد بفقدانه هذه الخاصة الانسانية في الاجواء الميكانيكية التي تحيط بنا عندما نبدد أيامنا بين خليط من الاسمنت المسلح والفولاذ ، محصورين بين الضجيج والاوساخ والقباحة . ولكن هل هذا هو افضل ما يأمله الانسان ؟ »(١٣) .

* تقول اللجنة العالمية للبيئة والتنمية (في تقريرها الصادر تحت عنوان « مستقبلنا المشترك » في عام ١٩٨٧) : « حدث في غضون هذا القرن تغير عميق في العلاقة بين عالم البشر والكوكب الذي يديم حياتهم . وعند بداية القرن ، لم يكن عند البشر او التكنولوجيا القوة اللازمة لإدخال تغييرات جذرية على أنظمة الكوكب الارضي . ومع نهاية القرن ، لم تعد الاعداد المتزايدة بشكل هائل للبشر ونشاطاتهم المتزايدة تملك هذه القوة فحسب ، بل إن تغيرات كبرى غير مقصودة تحدث في الفضاء والتربة ، والمياه ، وفي النباتات ، والحيوانات،وفي العلاقات بينها جميعا. وتتجاوز وتيرة التغيير قدرة المعارف العلمية وامكاناتنا الحالية في التقييم والارشاد . وهذا تشط من عزيمة المؤسسات السياسية والاقتصادية التي نشأت عن عالم مختلف وأكثر تجزئة في التكيف والمجاراة . وهذا يخلق قلقا عميقا لدى كثير من الناس الذين يبحثون عن وسائل لوضع هذه الشؤون في جداول العمل السياسية »(١٤) .

١ ـ ٤ ـ الارض .. تحت العناية المركزة !!!

يقول المحررون العلميون لمجلة « الايكولوجست » البريطانية ، في تقرير لهم حول الاخطار المحدقة بالبيئة : « إننا لا نحتاج الى تدمير البيئة بالكامل حتى نجلب الكارثة على أنفسنا . فكل ما يلزم هو أن نستمر على الوتيرة الحالية من قطع النباتات ، واستصلاح المستنقعات ، وطرح كميات كبيرة من المبيدات ، والنظائر المشعة ، والبلاستيك ، والفضلات البشرية ، والمخلفات الصناعية ؛ في الهواء والماء والتربة ؛ من أجل جعلها غير ملائمة لاصناف الحياة التي تؤثر على استقرار هذه البيئة وبقائها . ان الانسان الصناعي اليوم ودوره في العالم مثل

ثور هائج في دكان لبيـع الخزف الصيني مـع الاختلاف الوحيد ، وهو ان الثور اذا امتلك نصف المعلومات عن خصائص الخزف التي نمتلكها نحن عن النظام البيئي ، فسيحـاول تعديل تصرفـه بالنسبة للبيئة ، بدل أن يطلب العكس . وعلى النقيض من ذلك ، نرى ان الرجل الصناعي اليـوم مصمم على أن يتلاءم الخزف الصيني المحيط به معه . ولذا فقد وضع نصب عينيه ان يحطم هذا النوع من الخزف ويدمره الى قطع متناثرة في أقصر وقت ممكن »(١٥) !

ويقرر جون ايدي ، الخبير في بحوث الغلاف الجوي ، انه « بات لزاما علينا أن نضع الارض داخل العناية المركزة »(١٦) !!!

١ ـ ٥ ـ اي حياة !؟!

يؤكد رينيه دوبو ان « اكبر مشكلة حادة في الحياة المعاصرة ، هي في الغالب ، شعور الانسان بأن الحياة قد فقدت معناها .. فالمشاعر الدينية ، والتقاليد الاجتماعية القديمة ، تنخرها المعلومات العلميـة وسخافة الاحداث المالية الباطلة » . ويقرر دوبو أن « الحياة الشاذة التي يعيشها عامة الناس الان تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الانسان العقلية ونمو الامكانات الانسانية . إن كـل المفكرين قلقون على مستقبل الابناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة نخلقها نحن لهم بدون اي تفكير . واكثـر مايزعج ، هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للانسان تخططها اليوم البيئات الملوثة والشوارع المتراصة والابنية الشاهقة والخليـط الحضري المتمرد والعادات الاجتماعية التي تهتم بالاشياء وتهمل البشر . ولدى الشباب أسباب وجيهة لرفض القيـم التي تحكـم مجتمعات التقنية »(١٧) .

ويقول الفيلسوف الفرنسي ميشال هنري : « ماذا نرى في عصر العلم والتقنية الجبارة ؟ .. لا كائنات واثقة في نفسـها وفي مصيرها ، متحركة في سعادة ورخاء في رحاب عالم امسى مفهوما لذهنها ومطمئنة

لما ستعمله فيه ، بل أفراد مهجورون وغرباء عن كل تجمع متماسك ، لانه في حالة فقدان الرابط الروحي ، لا وجود لاي تجمع من هذا النوع . ولذا ، ليس هناك في الواقع غير منفذين لهذه الكائنات المستسلمة التي لم تعثر على معنى لحياتها في قرارة النفس او خارجها . فعلى قدر ما تنشغل بحياتها الشخصية ، تتوجه الى الطبيب والمحلل النفساني وطبيب الامراض العقلية المكلف ليس بمنحها قيما ايجابية لا يؤمن بها هؤلاء الاطباء الجدد انفسهم ، بل بمساعدتها على العيش وتحمل انفسها في الوقت ذاته الذي تتحمل فيه مجتمعا لا يطاق من المفروض عليها الاندماج فيه من كل شيء . (...) ان سعادة العيش تشكل الغاية الوحيدة للحياة في كل مسعى ، وفي المشروع العلمي بخاصة ، والتقنية التي تجعلها ممكنة . أما حينما تنفلت هذه الغائية من قبضتها ، كما نرى ذلك الان ، فانها تتحول الى تطور وحشي ذاتي يدشن بربرية من طراز جديد توشك الانسانية ان تنقرض تحت ثقله ان تنتحر روحيا على أي حال »(١٨) .

ويرى محررو مجلة « الايكولوجست » البريطانية ان « هناك من الاسباب مايدعو الى الاعتقاد بأن الامراض الاجتماعية التي تصيب مجتمعنا حاليا ، مثل : زيادة الجريمة ، الجنوح ، التخريب ، الادمان على المشروبات ، وادمان المخدرات مرتبطة بشكل دقيق . وهي أعراض لانهيار نظامنا الاجتماعي ، والذي هو بدوره مظهر من مظاهر تفكك مجتمعنا »(١٩) .

١ ـ ٦ ـ مفارقة .. في مشهدين !!!

المشهد الأول : « اوضح احصاء امريكي رسمي ان عدد المواطنين الامريكيين الذين يعيشون دون خط الفقر ، بلغ في عام ١٩٨٩ حوالي ٥ر٣٢ مليون مواطن يمثلون ٥ر١٣٪ من اجمالي سكان الولايات المتحدة الامريكية » (٢٠) ، اي : واحد من كل سبعة امريكيين ، يعيش دون خط الفقر . ووفقا لما اوردته شركة N.B.C. التلفزيونية الامريكية ، بلغ عدد المشردين الذين لا مأوى لهم في الولايات المتحدة الامريكية ثلاثة ملايين متشرد(٢١) . ووفقا للحقائق التي اوردها احد تقارير المنظمة الاجتماعية

لتحـالف المشردين في شيكاغو ، فان حـوالي نصف المشردين والفقراء الامريكيين يتناولون فقط وجبة غذاء واحدة ، أو انهم ينامون دون تناول قطعة خبز طول اليوم(٢٢) . بل « ان احصاء رسميا اتحاديا أكد ان نسبة ١٨٪ من المشردين يقضون في المتوسط يومين متواصلين في الإسبوع .. بلا طعام »(٢٣) ! ولن نتحدث هنا عن المليار الجائع في العالم الثالث !(٢٤)

المشهد الثاني : « بينت دراسة احصـائية نشرت مؤخرا في الولايات المتحدة الامريكية أن الامريكيين يصرفون سنويا ما يعادل ١٫٦ مليار دولار على اطعام القطط المنزلية والعناية بها ! وتستغرب الدراسة ذلك الاقبال المتزايد على اقتناء القطط وتربيتها من قبل الامريكيين بشكل طغى الى حد كبير على تربية الكلاب ! واشـارت الدراسة الى أن ٢٧٪ من العـائلات الامريكية تربي أكثر من قط أو قطة ، وهو معدل ارتفع ثلاث مرات منذ عام ١٩٧٢ ! وتصرف المليـارات كما تقول الدراسـة على اطعامها والعناية بصحتها .. اذ تنفق ٩٥٥ مليون دولار على أرضاعها الصحية ، و ٧٠ـ ١٠٠ مليون على لقاحها ضد الامراض . وأما النصيب الأكبر ، فيصرف على التفنن في توفير أشهى المأكولات لها .. فتـذهب ٤ ملايين دولار على الفيتامينات المقوية فقط ! وبالاضافة الى مصاريف أخرى انبثقت الطب البيطري الذي اخذ يتخصص في علاج القطط دون غيرها من الحيوانات الاليفة . ولذلك ، تنتشر اليوم العيادات ومراكز الابحاث المتخصصـة بأمراض القطط لتوفير العلاج الناجع لها . وقد انعكس ذلك على متوسط عمر القط . . ففي الماضي كان المتوسط ١٢ عاما ، أما الآن ، ونتيجة للعناية في تغذيتها وعلاجها ، فقد أصبح ١٧ عاما ! والادهى من ذلك ، توجد اليوم عيادات نفسـية واطباء نفسـانيون لعلاج امزجة القطط ، مثل تلك التي تعاني من ضعف في الشخصية ، أو عصبية في المزاج ، فيعالج الاطباء القطط واصحابها ! اما أصحابها ، فيعلمونهم كيفية التعامل السليم مع القط ، وعدم ازعاجه وتشويه نفسيته »(٢٥) !!!!!

٢ ـ ارقام .. من حضارة الغرب !

● أفاد تقرير لوزارة الصحة في المانيا الغربية (سابقاً) انه : « يعاني ٧٤٪ من السيدات ، و ٦٥٪ من الرجال ، من السمنة الزائدة بسبب الافراط في الطعام »(٢٦) .

● كشف مؤتمر عن مشكلة انتحار الشبان في استراليا عن ارتفاع معدل الانتحار في سن المراهقة وخاصة في المناطق الريفية ، نظراً لمعاناة اعداد كبيرة من الاستراليين من اليأس والوحدة .

وقد ارتفع معدل انتحار الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ ــ ١٩ عاماً في المدن الاسترالية الى مثليه خلال الـ ٢٥ عاماً الماضية ، ولكن معدل انتحار شبان الريف الاسترالي في السن نفسها ارتفع الى خمسة امثال . وقال التقرير إن هذه الزيادة ترجع جزئياً الى زيادة انتشار الأسلحة وتدهور الاقتصاد ، والضغوط الناجمة عن الاختلاف القائم بين مفاهيم الحياة والواقع(٢٧) .

● عقد مدير أمن العاصمة البريطانية ، لندن ، مؤتمراً صحفياً أكد فيه أن الشرطة لم تعد قادرة على تأدية عملها بالكفاءة المطلوبة ، بسبب نقص الميزانية وقلة عدد افراد الشرطة في عاصمة تشهد ٣ جرائم في كل دقيقة (٢٨) .

● ذكر مسؤولون بريطانيون مؤخراً ان ولادات اللقطاء تشكل اكبر من ربع مجموع حالات الولادة التي تتم في بريطانيا . وذكر تقرير لمكتب الاحصاء والسكان في بريطانيا ، أن ولادات الأطفال اللقطاء في عام ١٩٨٨ قد بلغت ١٧٧ الف ولادة ، أي بزيادة ١٢٪ عن ولادات العام الذي سبقه(٢٩) .

● ذكر عضو برلماني بريطاني أن ١٠٠ الف حالة اعتداء على النساء تقع سنوياً في انحاء بريطانيا ، وقال : إن ثلاثاً من كل أربع نساء يمتنعن

عن ابلاغ الشرطة بعد تعرضهن للاعتداءات ؛ لانهن على ثقة بأن رجال الشرطة يتباطؤون في الاسراع لنجدتهن »(٣٠) .

● تم اتلاف مليون طن من الفواكه والخضار الطازجة في السوق الأوربية المشتركة في عامي ٧٩ و ١٩٨٠ ، بهدف الحفاظ على الاسعار من الانخفاض. أو بتعبير آخر، من اجل المحافظة على الارباح الفاحشة(٣١) .

● ورد في التقرير السنوي للمعهد السويدي الدولي لابحاث السلام لعام ١٩٨٨ ، أن « ٤٥٪ من الأمريكيين يخافون من الخروج من منازلهم بمفردهم ليلا حتى لمسافة ميل واحد فقط » ! إنهم خائفون في « بلد الله God's own Country » كما يحلو لهم أن يسموا بلادهم(٣٢) !

● الكاتبة الامريكية شير هايت ، اخرجت الى السوق في عام ١٩٨٧ ، وبعد كثير من البحث والاستقصاء والاستطلاع ، كتابا عنوانه « النساء والحب .. ثورة ثقافية مستمرة » . وقد ذكرت فيه عدة احصاءات ، منها ما يلي : ٧٠٪ من النساء الأمريكيات المتزوجات منذ اكثر من خمس سنوات يقمن علاقات غير أخلاقية ، و٨٧٪ يرين أن صداقاتهن مع نساء أخريات أكثر دفءاً من العلاقات مع الرجل (من ينسى علاقة بطلة التنس الأمريكية مارتا نافراتيلوفا مع صديقتها ؟!؟) ، و٨٤٪ لا يشعرن بالاكتفاء العاطفي في علاقاتهن(٣٣) .

● أخيراً .. هذه احصائية عن بعض ما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية « بلد الله ! » في يوم واحد :

– يلقى القبض على ١٢٥٣ شخصاً بتهمة الحشيش ، و ٢٣٠ شخصاً بتهمة سرقة السيارات .

– يتسبب السائقون المخمورون بخسائر تقدر بحوالي ١٨ مليون دولار .

– يجري اغتصاب ١٨٠ امرأة ، وقتل ٥٣ شخصاً ، وسرقة ١١٠٨ اشخاص ، وسرقة ٢٦١٨ سيارة .

— يولد ٩٠٧٧ طفلا ، منهم ١٢٨٢ طفلا غير شرعي (واحد من كل ٧ اطفال) .

— تحمل سفاحاً ٢٧٤٠ امرأة .

— تجهض ٣٢٣١ امرأة

— يهرب ٢٧٤٠ طفلا من منازل والديهم(٣٤) .

٣ ـ خلاصة واستنتاجات

ابتداء من القرن السابع عشر بوجه خاص ، أي في عصر الفيلسوفين رينيه ديكارت وفرانسيس بيكون ، وبناء على أفكارهما ، بدأ الغرب يتمثل حضارة اليونان والمسيحية « برفضهما أكثر فأكثر كجسمين غريبين .. فالغرب سيستعيض عن فكرة السيطرة على الذات التي جعلها افلاطون أم الفضائل ، بفكرة السيطرة على قوى الطبيعة والحرية الفردية والمجتمع المتساهل . وبدلا من العلم النظري والنظر العقلي الذي جعله ارسطو الغاية الأخيرة للانسان وسعادته ، فان الغرب سيتجه نحو العلم والممارسة العملية ، وسيصبح النجاح المحسوس هاجسه الأول . كذلك ، فان الغرب سيستبدل فكرة القدر عند اليونان ، وارادة الرب ، بارادة الانسان المنتصرة (...) . ان العقلانية المتجهة نحو العملي وارادة السيطرة والسيادة تشكلان الخاصيتين الرئيسيتين للحضارة الغربية . وهما تجدان تفسيرهما في عبادة العمل (...) . وإن النتيجة الاهم لتعظيم عمل الفرد ، هي قصة الفردوس الأرضي ، فان كانت كل حضارة تعيش على حلم عظيم يعطي المعنى الاخير لوجودها ، فان الغرب قد عاش اسطورة « الفردوس هنا »(٣٥) . وقد مرت على هذه التوجهات اكثر من ثلاثة قرون ، فهل تحقق « الفردوس هنا » ؟

لقد حقق الغرب كثيراً من الانتصارات البيروسية(٣٦) .. الانتصارات التي تحمل في طياتها كارثة !! فقد تحقق الكثير من التقدم في الجوانب المادية ، ولكن ماذا كان الثمن ؟ كان الثمن مركباً كارثياً قوامه القلق .

والوحدة ، واليأس ، والغربة ، وفقدان معنى الحياة ، وتعقيد الحياة على الصعيد النفسي .. هذا فضلا عن إلحاق الضرر بمصالح الشعوب الاخرى والاجيال القادمة . وهذا يعني أن « أمن الانسان » عرضة لاخطار جسيمة ، ويعني بالتالي ان الفردوس الأرضي الموعود هو أبعد (واكثر مما في أي وقت مضى) من ان يتحقق !!! واذا كان التخلف هو العجز عن توفير « الامن » للانسان في تحصيل ما يحفظ النفس ماديا ويحفظ لها الكرامة معنويا(٢٧)، فان الغرب أيضا، مثل دول الجنوب ، متخلف!!! لاصابته بمرض الحرمان ، وبالتالي غياب الأمن .. والغرب متخلف لاصابته بمرض القلق ، وبالتالي غياب الأمن .. وهكذا ، فانه : امتحان التقدم ، لم ينجح أحد !!! وكلنا في الأمن متخلف !!!

الهوامش والمراجع

(١) الدكتور رشدي فكار في حوار أجرته معه جريدة « الاهرام » القاهرة ، ١٩٨٩/٤/٢٨ .

(٢) ذكره : رينيه دوبو ، انسانية الانسان .. نقد علمي للحضارة المادية ، ترجمة الدكتور نبيل صبحي الطويل ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٣٠ .

(٣) فاوست : اسطورة المانية تحكي قصة طبيب نابه باع روحه للشيطان (الذي يظهر في معظم الروايات الادبية لهذه الأسطورة في شكل مفستوفيليس) ، وذلك مقابل منحه الشباب والمعرفة والقدرة على السحر . أصل الاسطورة غامض ، وان كان من المفترض أن اساسها هو حياة علامة يدعى الدكتور يوهان فاوست (توفي عام ١٥٤١) ، كانت تحكى عنه في أثناء حياته قصص مغرقة في الخيال . اتخذ الادباء هذه الأسطورة موضوعا لكتاباتهم منذ عام ١٥٧٠ . ومن اشهر المؤلفات الادبية التي تناولتها « كتاب الشعب » ١٥٨٧ ليوهان شبيس ، الذي اعتمد على الترجمة الانجليزية للشاعر المسرحي الانجليزي مارلو في مسرحيته « الدكتور فوستوس » ١٥٦٣ . ثم عالج الأسطورة الشاعر جوته في مسرحيته الخالدة « فاوست » . وحذا حذوه كتاب المان كثيرون ، ومنهم توماس مان . والفت ايضا عدة اوبرات عن هذه الاسطورة ، منها اوبرات برليوز ، وجونو ، وفاجنر . كما أنها أوحت للموسيقار ليست بسمفونية فاوست » . (الموسوعة العربية الميسرة ، اشراف الدكتور محمد شفيق غربال ، دار القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٥ ، ص ١٢٧٢) .

←

(٤) روجيه غارودي ، حوار الحضارات ، ترجمة الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، سلسلة « زدني علما » ـ رقم / ١ / ، الطبعة الاولى ، باريس ١٩٧٨ ، ص ٣٩ .

(٥) كولن نورمان ، العلم والتكنولوجيا في الثمانينات ، ترجمة الدكتور ممدوح الحسامي ، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٠ .

(٦) رينيه دوبور ، انسانية انسان ، المرجع اسبق ، ص ٢٣٧ .

(٧) روجيه غارودي ، حوار الحضارات ، المرجع الاسبق ، ٢٤ .

(٨) رينيه دوبو ، انسانية الانسان ، المرجع الأسبق ، ص ٤٦ ـ ٤٨ .

(٩) انظر : منى الرفاعي (ترجمة واعداد) ، الحياة مع الوحدة ، جريدة « تشرين » ـ دمشق ١٩٩١/٦/١٢ . والترجمة تعرض لاجابة احدى الفرنسيات الواردة في كتاب « الوحدة » الصادر في فرنسا عام ١٩٩١ .

(١٠) انظر : آلان ي توميسون ، نحو فهم المستقبلية ، مدخل الى دراسة علوم المستقبل ، ترجمة ياسر الفهد ، وزارة الثقافة الارشاد القومي ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٧٥ .

(١١) اوريليو بيشيي ، ساعة الحقيقة ، ترجمة الدكتور صالح فلوح ، وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٠

(١٢) رينيه دوبو ، انسانية الانسان ، المرجع الأسبق ، ١٨٦ .

(١٣) انظر تعليق ناشر الطبعة الانجليزية لكتاب رينيه دوبو « انسانية الانسان » في الصفحة /٦/ من الطبعة العربية المذكورة فيما سبق .

(١٤) اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ، مستقبلنا المشترك ، ترجمة محمد كامل عارف ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ، سلسلة « عالم المعرفة » ، العدد ١٤٢ ، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٩ ، ص ٥٥ .

(١٥) محررو مجلة « الايكولوجست » البريطانية (ا . غ . سميث وآخرون) ، من اجل البقاء أحياء ، ترجمة المهندس الدكتور سعد الدين خرفان ، دار طلاس ، دمشق ١٩٨٨ ، ص ٣٨ و ٣٩ .

(١٦) ذكره : توماس أ . سانكتون ، لتمتد يد المساعدة عبر البحار ، مجلة (الثقافة العالمية) الكويت ، العدد ٤٥ ، مارس ١٩٨٩ ، ص ١٦٢

(١٧) رينيه دوبو ، انسانية الانسان ، المرجع الاسبق ، ص ٢١ و ٥٥ .

←

(١٨) ميشال هنري ، ما لا يعلمه العلم ، ترجمة محمد لمسوتي ، مجلة « الثقافة العالمية » العدد ٥٢ مايو ١٩٩٠ ، ص ٨ و ١٨ .

(١٩) محررو مجلة « الايكولوجست » البريطانية (سميث وآخرون) ، من أجل البقاء احياء ، ص ٢١٩ .

(٢٠) جريدة « الاهرام » ــ القاهرة ، ١٩٨٩/٤/٥ .

(٢١) جريدة « تشرين » ــ دمشق ، ١٩٨٥/٦/١ .

(٢٢) جريدة « تشرين ــ دمشق ، ١٩٨٥/٦/١ ، المرجع السابق .

(٢٣) عن تقرير « الجوع ١٩٩٢ » الصادر في عام ١٩٩١ عن « معرض خبز العالم » امريكا . ذكر في مجلة « الكفاح العربي » ــ بيروت ، العدد ٦٩٢ ، ١٩٩١/١١/٤ ص ٢٧

(٢٤) يذكر التقرير الوارد في المرجع السابق ان « أكثر من نصف مليار (أي ٥٠٠ مليون) نسمة في العالم من البالغين والاطفال على السواء هم « في حالة جوع دائم » ، وان اكثر من مليار نسمة (يمثلون نسبة ٢٠٪ من المجموع الكلي لسكان العالم) يعيشون في أسر على درجة من الفقر تسمح لها بالحصول على ما يكفيها من الغذاء لممارسة الحياة والعمل » . انظر المرجع السابق ، ص ٢٧ نفسها .

(٢٥) جريدة « الشرق الاوسط » ــ لندن ، ١٩٨٤/١/٢٢ .

(٢٦) مجلة « العربي » الكويت ، العدد ٢٧٥ ، اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٨١ .

(٢٧) جريدة « البعث » ــ دمشق ، ١٩٩٠/١٢/١٤ .

(٢٨) جريدة « الثورة » ــ دمشق ، ١٩٨٧/٦/٤ .

(٢٩) جريدة « البعث » ــ دمشق ، ١٩٨٩/١٠/٢ .

(٣٠) جريدة « تشرين » ــ دمشق ، ١٩٨٦/٩/١٤ .

(٣١) جريدة « تشرين » ــ دمشق ، ١٩٨١/٨/٨ .

(٣٢) ذكره : الدكتور عبد القادر ياسين ، قراءة في التقرير السنوي للمعهد الدولي لابحاث السلام ، مجلة « الوحدة » ــ الرباط ، السنة ٥ ، العدد ٥٤ ، آذار ١٩٨٩ ، ص ٢١٣ .

(٣٣) عادل الاحمر ، عجائب وغرائب ، مجلة « العالم » ـ لندن ، العدد ٢٠٠ ، ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧ ، ص ٦٦ .

(٣٤) مجلة « الأمة » ـ الدوحة ، السنة الاولى ، العدد الاول ، يناير ١٩٨١ ، ص٩١.

(٣٥) انظر : الدكتور جورج زيناتي ، جوهر الحضارة الغربية ، مجلة « الباحث » ـ باريس ، السنة الثانية ، العدد الثامن ، أيلول ـ تشرين الاول (سبتمبر ـ اكتوبر) ١٩٧٩ ، ص ٣٥ .

(٣٦) البيروسية نسبة الى بيروس . وبيروس هذا ملك اغريقي قديم اشتهر بحروبه ضد الرومان قبل الميلاد بأكثر من مئتي عام . قاد عدة حملات عسكرية بعد أن ضرب عرض الحائط بنصائح مستشاره الحكيم سينياس ، واحرز عدة انتصارات ، ولكن انتصاره الاخير كلفه غاليا ، حتى انه قال لجنرالات جيشه الذين ذهبوا يحملون اليه التهنئة . « انتصار آخر مثل هذا الذي احرزته الآن ، ويكون مصيري الضياع » !!! هكذا تقول كتب التاريخ وقواميس اللغة عندما تصف (نصراً) يهمل في طياته كارثة او مأساة . أما صاحبنا بيروس ، فقد اغتالته امرأة عجوز اثناء استيلائه على مدينة آرجوس اليونانية ، بأن ألقت على رأسه « طوبة » من فوق سطح احد المنازل !!!

(٣٧) لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التخلف ، انظر : عبد الوهاب المصري ، الامن الغذائي العربي في السبعينات والثمانينات ، جريدة « تشرين » ـ دمشق ، ١٩٩١/١٠/٦ .

★ ★ ★

الدراسات والبحوث

العلاقات الاجتماعية في المجتمعات العشائرية

سيف الدين القصير

تمهيد :

البدو عموماً هـم سكان البادية ، بينما الحضـر بالمقارنة ، هم سكان المدن والحواضر . والبداوة ، كما هو معلوم ، سابقة للحضارة والمدنية لانها اقرب منها الى الفطرة الطبيعية ، وارتبطت بالتنقل من مكان الى آخر بحثاً عن المرعى والمنهل الضروريين لحياة الابل والسائمة عماد حياة البدو . فهي بعيدة عن الاستقرار اساس الوجود الحضاري .

سيف الدين القصير : باحث من سورية : ماجستير في التاريخ ، ينشر في العديد من الدوريات المحلية والعربية .

وكان الانسان في أول حياته بدوياً يعمل في تربية الحيوانات من غنم وماعز وابل وبقر وغيرها . ولذلك التجأ من البداية الى السهول والبراري لان المدن والحواضر لا تستطيع توفير المساحات الواسعة من المراعي . وكان هم البدو الاساسي هو الوصول الى الضروري من القوت والسكن بمقدار ما يكفي لمواصلة العيش وحفظ الحياة .

والبدو الذين يحترفون تربية الحيوان يظعنون ويرتحلون من مكان الى آخر طلباً للكلأ والماء لسائمتهم وابلهم . اما اهل السائمة ، أو المواشي فانهم لا يبعدون في القفر والبوادي نظراً لقلة المراعي الطيبة في مثل هذه المناطق . واما اهل الابل الذين اشتهر منهم بدو الجزيرة العربية فانهم اكثر ظعناً وتوغلا في القفار والبوادي من اهل السائمة ، لان الابل لا تستغني بنباتات واشجار المسارح والمراعي التي للسائمة ، عن مراعي القفار والبوادي البعيدة ومياهها المالحة واشجارها المتنوعة . كما تفضل قضاء فصل الشتاء متقلبة في تلك البوادي والقفار هرباً من اذى البرد . ولذلك اضطر اهل الابل الى ابعاد النجعة والايغال في القفار . وهم يحملون السلاح دائماً ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ويتفردون في القفار والبيداء واثقين بيأسهم حتى صار البأس لهم خلقاً ، ولذلك كان اكثر البدو توغلا في القفار اشدهم بأساً واصبرهم على المشاق على حد تعبير زيدان[1] .

ويتشابه البدو اينما كانوا في العادات والتقاليد والازياء لانهم جميعاً في حالة فطرية اولية واحدة ، هدتهم اليها الحاجة وما اقتضته طبيعة البوادي والقفار القاسية المتشابهة في كل مكان . فهم متماثلون في تكوينهم الاجتماعي وفي امور معيشتهم ، ولا يختلفون الا قليلا من حيث العراقة في البداوة أو قلتها ، وقربهم من الحضارة أو بعدهم عنها وعن أهلها ، اي من حيث كونهم من البدو الاصليين أو من البدو المتحضرين . وما نذكره من الاصول والقواعد والعادات والتقاليد يشملهم في الجملة لا فرق بين بدو بادية الشام او العراق او شبه الجزيرة العربية او صحراء مصر او السودان .

واذا كان هناك من فرق بين عشائر عنزة وشمر العريقتين في البداوة وبين اعراب الديرة والشوايا انصاف الحضر ، او بين عشيرة في الشمال واخرى في الجنوب ، فان هذا الاختلاف ثانوي وليس بجوهري .

النسب ودوره في تقسيمات المجتمع العشائري :

نقل صاحب(٢) « انساب العرب » عن السيد ابي البركات الجواني فيما يتعلق بالاصطلاحات في تقسيم القبائل ان جميع ما بنت عليه العرب في نسبها اركانها واسست عليه بنيانها عشر طبقات :

١ ــ الجذم وهي الاصل إما الى عدنان واما الى قحطان .
٢ ــ الجماهير ، اي الجماعات .
٣ ــ الشعوب وهي التي تجمع القبائل .
٤ ــ القبيلة وهي دون الشعب وتجمع العمائر .
٥ ــ العمائر وهي دون القبيلة وتجمع البطون .
٦ ــ البطون وتجمع الافخاذ .
٧ ــ الافخاذ وهي دون البطون وتجمع العشائر .
٨ ــ العشائر وهي التي تتعاقل الى اربعة آباء .
٩ ــ الفصائل وهي اهل بيت الرجل .
١٠ ــ الرهط وهي اسرة الرجل .

واورد زيدان ترتيبا واصطلاحات تتعلق بتقسيمات القبائل مشابهة نوعا ما لما اورده صاحب « الانساب » ، فقال : « فاقرب اسباب العصبية عندهم الاخوة والابوة والعمومة ، ومنها تتألف العائلة او الاسرة ، ومن العائلات تتألف الفصيلة كآل ابي طالب وآل العباس مثلا ، فان كلا منهما فصيلة مؤلفة من عائلات وكلاهما منهاشم، ومن الفصائل تتألف الافخاذ، مثل بني هاشم وبني امية وكلاهما من بني عبد مناف . ومن الافخاذ تتألف البطون ، مثل عبد مناف وبني مخزوم ، وكلاهما من قريش ؛ ومن

البطون تتألف العمائر (ج. عمارة) مثل بني قريش وبني كنانة وكلاهمامن مضر . ومن العمائر تتألف القبائل مثل ربيعة ومضر ، وكلاهما من عدنان. ومن القبائل يتألف الشعب وهو النسب الابعد ، مثل عدنان وقحطان.»(٣)

ويكون ترتيب الطبقات وفق ما أورده زيدان كالتالي :

١ ــ الشعب
٢ ــ القبيلة
٣ ــ العمارة
٤ ــ البطن
٥ ــ الفخذ
٦ ــ الفصيلة
٧ ــ العائلة أو الاسرة .

ويطابق هذا الترتيب ما جاء عند القلقشندي في «نهاية الارب »(٤) .

غير ان زاكريا أورد ترتيباً واصطلاحات توافق ما هو سائد في النصف الأول من هذا القرن على السنة بدو الديار الشامية ، وهي كما يلي :

« ان العنصر الاول في المجتمع البدوي هو البيت ويعنون به العائلة أو الاسرة . فالبيوت أو الأسر القريبة بعضها من بعض تؤلف الفخذ أو الآل مثل آل مشهور من فندة الشعلان في الارولة ، ومثل آل مهيد من فندة المنيع في الفدعان . وتجتمع الافخاذ فتؤلف الفرقة أو الفندة وجمعها أفناد مثل فندة الشعلان وفندة المنيع المذكورتين . والفندة في الاصل عدة أفخاذ من جد قريب لا يكاد يتجاوز الخامس في الغالب . وتجتمع الفرق أو الأفناد فتكوّن العشيرة مثل عشيرة الارولة وعشيرة الفدعان في عنزة . وتجتمع العشائر فتكوّن الضنا مثل ضنا مسلم وضنا بشر في عنزة . وتجتمع الضناآت فتؤلف القبيلة مثل قبيلة شمّر وقبيلة

عنزة . وقد يتساهل في التعبير فتسمى العشيرة قبيلة ، او الفخذ فصيلة ، او الفندة فرقة . »(٥) ويصبح ترتيب الطبقات عند زكريا على النحو التالي :

١ ــ القبيلة .
٢ ــ الضنء .
٣ ــ العشيرة .
٤ ــ الفرقة او الفندة .
٥ ــ الفخذ او الآل (وقد يسمى فصيلة) .
٦ ــ البيت او الاسرة .

اما فيما يتعلق بتسميات القبائل فهي على انواع قد تصل الى الخمسة اوردها القلقشندي(٦) على النحو التالي :

١ ــ ان يطلق على القبيلة لفظة الاب ، كعاد وثمود ومدين وما شاكلهم .

٢ ــ أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان ، واكثر مايكون ذلك في البطون والافخاذ .

٣ ــ ان ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الالف واللام كالطالبيين والجعافرة .

٤ ــ ان يعبر عنها بآل كآل ربيعة وآل فضل وما أشبه ذلك .

٥ ــ ان يعبر عنها بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك إلا في المتاخرين من افخاذ العرب وهم على قلة .

واصول اسمائهم في غالبيتها منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويجاورونه من حيوان كاسد وحية ونمر وحنش ، او من نبات كنبت وحنظلة ، او من اجزاء الارض كفهر وصخر ونحو ذلك . ويغلب على العرب تسمية ابنائهم بمكروه الاسماء ككلب وحنظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الاسماء كفلاح ونجاح ونحوهما.

والمعنى في ذلك كما يفسره القلقشندي ، ما يحكى انه قيل لابي الدقيس الكلبي لم تسمون ابناءكم بشرّ الاسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء كمرزوق ورباح فقال إنما نسمي ابناءنا لاعدائنا وعبيدنا لانفسنا(٧). لكن لم يجد زكريا تفسيراً في كتب اللغة لما ساد من غريب الاسماء في العهود الاخيرة مثل راكان وجدعان وهويدي وشواخ وهجول وهويش ودندل وهغل وفدعوس وأمثال ذلك . ويصل وجه الغرابة في هذه التسميات الى حد ان بعض هؤلاء البدو سمى اولاده باسماء الاجانب الذين قد يكونون ضيوفاً عندهم اثناء الولادة كلورانس وطوماس وغيره(٨) .

لكن ، وعلى الرغم من عناية العرب الفائقة في المحافظة على انسابهم والتمسك بها ، إلاّ أنه أصبح من الصعب على الباحث في الوقت الحاضر ان يتمكن من تتبع اصول القبائل العربية الموجودة في عصرنا الحالي . وقد تحدث فؤاد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » عن هذه الصعوبة فقال : « ومع شدة عناية العرب بالمحافظة على انسابها والتمسك بأحسابها ، ومراعاتها لتسلسل فروعها وأقسامها ، فانه من الصعوبة بمكان عظيم أن يتمكن الباحث من الوقوف على اصول جميع القبائل العربية الموجودة في الوقت الحاضر ، بسبب ضياع قسم غير قليل مما كتبه الاقدمون عن الانساب ، وفقدان حلقات عديدة من سلسلة الانساب في الاعصر المتوسطة ايام ضعف الدولة العربية ، واختلاف قبائلها وامرائها »(٩) .

ثم يعدد أهم هذه الصعوبات وهي :

١ ـ تباعد الانساب وصيرورة القبائل شعوباً ، والعمائر قبائل ، والبطون عمائر .

٢ ـ صعوبة الوقوف على التسلسل الصحيح للانساب لقدم العهد وعدم وجود المدونات .

٣ ـ امكان اشتهار قبيلة من القبائل باسم فرد مشهور منها يغلب اسمه على الاسم الأصلي .

٤ ـ انضمام افراد الى قبيلة غير قبيلتهم بالحلف والموالاة .

٥ ـ تابعية افراد معينين لقبيلة كالموالي والارقاء واشتهارهم باسم القبيلة الأصلية وهم غرباء عنها .

٦ ـ اشتهار القبيلة باسم جديد لسبب من الاسباب .

٧ ـ تشابه اسماء القبائل بالرغم من تباعد اصولها واختلاف انسابها .

بنية المجتمع العشائري :

التكوين الاجتماعي عند البدو بسيط لا يتجاوز حد الأسرة او العائلة قط . وهم يطلقون على الأسرة لفظة (الاهل) ؛ وهي تتألف من الرجل والمرأة ومن فروعهما ، وفي بعض الاحيان من اصولهما الطاعنة في السن او المريضة ، ومن بعض الايتام الصغار . ولا يزداد عدد افراد الاسرة بفعل الزواج ، لأن البنت اذا تزوجت تذهب الى بيت بعلها ، والابن اذا تزوج اتخذ لنفسه بيتاً جديداً قريباً من اهله في الغالب ، فيؤلف في العشيرة اسرة جديدة تلقب باسمه . اما الاب فهو رئيس الاسرة ، واذا مات ورثه ابنه الاكبر في هذه الرئاسة ، ويمكن لهذا الابن ان يتخلى عن حقه في الرئاسة الى اخيه الذي يليه في السن . ولرئيس الاسرة على اسرته حق الحياة والموت دون منازع والذي يعبر عنه بالقاعدة التالية : إما الطاعة له او الرحيل عنه على حد تعبير زكريا(١٠) . لكن للاسرة بالمقابل على رئيسها حق الادارة وتدبير المعيشة ، وحل المشاكل التي قد تحدث لها والدفاع عنها ضد اي اعتداء خارجي .

والتضامن الكامل موجود داخل الاسرة البدوية باوسع معانية . فاذا حدث ان القي بدوي في السجن لمنكر فعله او جرم اقترفه ، فانك ترى اباه واخوانه واعمامه وابناء عمومته يندفعون الى اطلاق سراحه وتخليصه .

فاذا ما ثبت الجرم على هذا السجين ، فان التبعة المشتركة تمتد الى انسبائه المذكورين والسري عليهم . « من هنا » ، يقول زكريا ، « كان المكلفون بادارة البدو اذا ارادوا تحصيل شيء من الاموال او العروض من بدوي لا يستطاع القبض عليه تعويضاً عن اموال مسروقة ، او دفع دية ، او تأدية ضريبة ما ، جرت عادتهم ان يأخذوا اخاه بجريرته كرهينة يسجنونه ، فبعد بضعة ايام من القاء القبض على هذا الاخ ، يبادر المجرم الذي قد يكون بعيداً في أماكن قاصية ويرسل الابل او الغنم او الدنانير الذهبية المطلوبة . وعاطفة التضامن هذه في الاسر البدوية من اجمل نواحي الحياة البدوية . »(١١)

وتختلف حقوق الاسرة داخل العشيرة حسب مكانة تلك الاسرة وشكلها وعدد المقاتلين فيها الذين يمكن ان يشاركوا في حروب العشيرة والدفاع عنها . وكلما كانت الاسرة قوية وغنية ازدادت حرمتها وقويت مكانتها وعلت كلمة رئيسها . غير ان الاسرة الصغيرة او الضعيفة التي لا تتألف الا من والدين وولد أو ولدين فانها تحتفظ بحقوق الملكية كاملة غير منقوصة ، وتظل في حمى الجميع ونصرتهم . واذا نكب الاعداء هذه الاسرة في حرب أو غزو ، فان الجميع ينضم اليها ويؤازرها ، فهي شقيقة الجميع من حيث التضامن والتعاون . فمن مناقب البدو وخصالهم الحميدة التضامن في البلوى والتعاون على المصائب ، فتراهم يتسابقون الى امداد العزيز اذا ذل بغارة او مصيبة . وكثيرا ما يكون البدوي ذا ثراء في ربعه وبين اهله ، في الصباح اذا بك تراه فقيراً مرقعا لا سبد ولا لبد عند المساء بفعل الغزو الذي يداهمه او الجائحة التي تصدمه(١٢) . وقد قامت قاعدة التضامن هذه عند البدو مقام الحق العام عند الحضر اهل المدن ، فاذا قتل بدوي يكون الالصق بالمقتول هم المطالبون بدمه من أقارب القاتل الالصق به . فاذا لم يطالب الاقارب ، او كانوا عاجزين عن المطالبة ، فان اهل عشيرته يطالبون بذلك ، لان المقتول عندهم هو ابن العشيرة وكل فرد من افراد العشيرة هو بمثابة نائب عام في دعواه .

العشــيرة :

وهي التنظيم الرئيس في المجتمعات العشائرية ، وتتألف من أسـر (أو بيوت) وفرق وافخاذ يختلف عددها زيادة ونقصانا . وقد تكون من نجار واحد أي متحدرة من جد واحد اعقب ذرية كثيرة انجبت العدد الذي كوّنها ، كما هو الحال في عنزة المتحدرة من عنز بن وائل بن أسد بن ربيعة الصافية في اصولها وفروعها على كثرة هذه الفروع وتوزعها ؛ وكما هو الحال مع عشيرتي بني صخر وبني خالد . كما قد تكون مؤلفة من فرق عديدة ينتمون الى اصول ومواطن مختلفة جاؤوا واجتمع بعضهم الى بعض بدافع الرهبة من شيء أو الرغبة في شيء ، وتعاقدوا والفوا حلفا عشائريا كما هو الحال عند شمر الجزيرة الملتفين حول الشيوخ من آل الجربا ، وطيء الجزيرة الملتفين حول الشيوخ من آل عساف ، والموالي في جنوبي حلب الملتفين حول الامراء من آل أبي ريشة . وقد يجتمع هذا الحلف الى شخص حاد الذكاء شديد العزم والبأس مثـل الحديديين الملتفين حول الشـيخ نواف الصالح الجرخ واسـلافه آل ابراهيم من قبله(١٣) .

فالعشيرة اذن هي أمة في مقياس صغير ، لكنها أمة متنقلة لا تعرف الاستقرار . وهي تنقل معها في غدواتها وروحاتها فروعها واعضاءها الذين لا تحدهم أي حـدود أرضيـة ولا تقيدهم اي ملكيات عقارية . وكانت العشائر حتى عهد قريب تنتقل عبر حدود الاقطار العربية في المشرق او المغرب دون اي التزام بهذه الحدود . وكما ينبغي ان يكون للامم ماض وتاريخ ، وللوكها ورؤسائها انسـاب واحسـاب او كفاءات ، يكون للعشـيرة ايضا ماض وتاريخ ولشيوخها انساب واحساب أو كفاءات يذكرون بها .

ويتحد ابناء العشيرة في حالة الحرب كما في حالة السلم ، وينضم حينئذ بعضهم الى بعض في ظل عاطفة وطنية صادقة . والعشيرة لاتدافع عن أرضها لانها لا تملك هذه الارض ، بل هي تدافع عن حقها في الحيـاة على تلك الارض ، او عن حقها في المراعي والمناهل . وينقل زكريا عن

المقدم موللر في كتابه (في الشام مع البدو) قوله : « ان أكثر جموع البدو ـ وان كانت من نبعة واحدة ـ لا تجتمع على قضية قومية بل على غاية تبتغيها . فالبدو لا يبقون مجتمعين الا بسائق الاستمرار ، أو كلما حالت المصالح المادية دون انفرادهم الشخصي ، لانه متى رأت احدى كتلهم نفسها قوية في قليل او كثير او مطمئنة الى حد كاف تنفصل وتنفرد وتعيش لوحدها . واعتقد أن الامن في البادية كلما استتب والطمأنينة كلما سادت وصل هوى الانفصام والانفراد هذا الى الافخاذ والبيوت داخل الفرق .»(١٤)

فالعشائر اذن سائرة في طريق الافتراق والتشرذم ولاسيما في أيام السلم والاستقرار ، وهو ما حدث لمعظم عشائر الشام بعد انتهاج الاقطار العربية سياسة توطين البدو وتمليكهم الاراضي الزراعية بعد الحرب العالمية الثانية . وهو ما حدث ايضا لكثير من العشائر الوافدة من الجزيرة العربية أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . اذ من المعروف أن كل عنزة أصلهم قبيلة واحدة ، لكن حينما نزحوا من نجد نحو بلاد الشام ساروا في حالة فرق ، وحينما استقرت هذه الفرق في بلاد الشام واقتطعت لنفسها منطقة نفوذ اكتسبت شكل عشائر منفصلة كالارولة والولد علي والاحسنة والاسبعة والفدعان . وهم على قرابتهم واتصالهم بنجار واحد ، اذا احدثت بينهم فتن على منافع أو مراعي ومنازل انقلبوا أعداء ، وقاتل بعضهم كما جرى بين الارولة والولد علي في القرن الماضي وبين الارولة والاسبعة في أوائل هذا القرن .

العصبية العشائرية :

غير أن انقسام الفرق وافتراقها بعضها عن بعض لا يكون كاملا وقطعيا ، بل يتم ذلك مع الاحتفاظ بالقرابة او ربما يدعونه بالعصبية القبلية او العشائرية . والعصبية ضرورية لاهل البادية بسبب طبيعة حياتهم .. فالناس مفطورون على الطمع وطابهم التخاصم والتنازع . فأهل المدن يدفع عدوانهم الحكام واهل الدولة ويمنعونهم من ان يظلم بعضهم بعضا ، كما تحميهم من الاعتداء الخارجي من خلال ما تجنده من جيوش وتوفره من سلاح . والعصبية سيطرة قوية على عواطف البدو ، فهي تجمع الاقارب والانسباء الذين يمكن أن توجه اليهم المسؤولية في حالة اخذ

الثار ودفع الدية ، وتمتد هذه المسؤولية لتشمل الاقارب حتى الجد الخامس . وهي تجمع ايضا بين الفرق المختلفة في حالة اعلان العداء واشهار الحرب(رد النكا) على عدو مشترك . والبدو انما يتعارفون بهذه القرابة ويتسمون ويتنادون بالنخوة التي يتباهون بها عند الكريهة .

ونظرا لاهتمام البدو الزائد بالعصبية واعتنائهم بها تجد أن انتصار بعضهم لبعض انما يكون على نسبة درجة القرابة . فكلما كانت العشيرة اقرب الى العشيرة كانت اولى بمناصرتها ، ومهما اشتدت العداوة بين ابناء فخذ واحد فانهم يجتمعون بطنا واحدا على بطن آخر يناوئهم بينما هو من ضناهم ، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة الى ضنا لمقاومة ضنا آخر بينما هو من عشيرتهم ...

وتكافل افراد العشيرة وتضامنهم يوجب على رؤوسائها ان يحافظوا على آداب ابنائهم المنتسبين اليهم . ومن ثم اذا ارتكب احد افراد العشيرة امرا لا تود هي أن تأخذ تبعيته على نفسها ، او اذا اذنب نحوها كلها ، فان ذلك الفرد ينفى من وسطها ، واذا لم تقبله عشيرة اخرى فان البلاء محيق به حينئذ لا محالة . فالعصبية هي التي تدفع البدو الى التضامن والتكافل او الى الدفاع عن الحقوق واتخاذ الاجراءات المؤدية الى خير العشيرة وتحقيق مصالحها .

وتربط العصبية العشائرية الافراد الى حد الجد الخامس ، وذلك عند دفع (المدّة) أو دية الدم ، ويشارك هؤلاء بدفعها عن طيب خاطر لانه قد يتعرض أحدهم في يوم من الايام الى مثل هذا الأمر . ما عدا ذلك فان الروابط الادارية والسياسية بين الاقارب في عالم البدو ضعيفة جدا لا تقويها الا سلطة الشيخ وحسن قيادته ، فهذه الروابط منوطة بهما . واذا علت شهرة الشيخ بسبب انتصار في الحروب ، أو اصابة في الراي، أو مقدرة في القضاء ، أو حنكة في الادارة ، أو مهارة في التعامل مع أولياء الامور والوصول اليهم ، ولاسيما في الشجاعة والاريحية ووفرة الاقارب والاتباع وكثرة الاموال والثمرات يزداد حينئذ عدد البيوت الملتفة حوله

وتكثر حواشيه كما كان الحال عند الارولة حول الامير فواز الشعلان الذي ورث ذلك عن جده نوري ، وفي الفدعان حول الامير محجم بن مهيد ، وفي الاسبعة حول الشيخ راكان المرشد ، وفي شمر حول الشيوخ من آل الجربا وغيرهم(١٥) . اما اذا ساءت ادارته ، او طفت فظاظته ، او نقصت كرامته وثروته لسبب من الاسباب ، فانهم ينفضون من حوله تباعا ويلحقون منافسه الى ان لا يبقى حوله الا بضعة بيوت من انسبائه الاقربين كما كان الحال لدى بعض العشائر كالولد علي والفدعان الاخرصة ، والاسبعة الاعبدة ، وغيرها .

وقد لخص زيدان اهمية العصبية القبلية بالنسبة للبدو بالامرين التاليين :

١ ـ العصبية القبلية توفر الحماية لافراد العشيرة ضد اي اعتداء خارجي .

٢ ـ العصبية القبلية هي بمثابة الرابطة والجامعة التي تجمع افراد العشيرة بعضهم الى بعض اذ لم يكن للبدو ما يجمعهم غير العصبية واللغة، وهما متلازمتان عندهم ؛ ومن هنا كان اعتناء العرب بحفظ انسابهم وضبطها والتفاخر بها والمبالغة في استقصائها حتى ردوها الى الآباء الاولين(١٦) .

والاصل في العصبية القبلية عند العرب عموما هي الابوة او الانتساب الى الاب كما هو الحال عند سائر الامم المتحضرة ، على ان الامومة كان لها شأنها الكبير عندهم ايضا . وكثيرا ما كانت المزاوجة او المصاهرة سببا كبيرا للعصبية ، ليس ذلك لعلو منزلة المرأة على وجه العموم ، وانما الفضل فيه للامومة . وكانت المرأة لاتزال ينظر اليها بعين الاحتقار حتى تصير أما ، فانها تعلو منزلتها حينئذ وتشتد عرى الاتحاد بها . حتى أن الرجل منهم يفضل امه على امرأته ، لان الام في اعتقاده ابقى له من امرأته . ومن امثلة ذلك ما رواه ابن خلكان من ان صخر بن عمرو بن الشريد ـ اخا الخنساء الشاعرة المشهورة ـ اصيب في احدى الغزوات

بجراح بليغة ، وبقي مدة في حالة من المرض الشديد ، وامه وزوجته سلمى تمرضانه . فضجرت زوجته منه ، وسمعها مرة تشكو ذلك الى احدى جاراتها ، فانشد صخر قصيدة قال فيها :

اری ام صخر لا تمل عیادتي   وملت سليمى مضجعي ومكاني
وايّ امرىء ساوى بام حليلة   فلا عاش الا في شقا وهوان(١٧)

ولذلك كانت العرب لا تعزي في المراة الا ان تكون اما على حد قول صاحب العقد الفريد .(١٨)

طبقات العشيرة :

يمكن على وجه العموم تحديد الطبقات التالية ضمن كل عشيرة :

١ ــ طبقة الشيوخ : ويسمون شيوخا ولو كانوا حديثي السن وهم اصحاب الراي الراجح والقول النافذ على سائر الطبقات ، وهم عماد العشيرة وملاذها وفيهم يفترض وجود الشمائل والمناقب الخاصة بالشيوخ .

٢ ــ طبقة الرواسي او الكبراء : وهم يلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية ويماثلونهم او يقتربوا منهم في الشمائل والمناقب ، ويراسون فرقهم ويسوسون افرادهم .

٣ ــ طبقة العامة : وهم السواد الاعظم من افراد العشيرة والحاملون اعبائها والمكلفون بضرائبها والمقاتلون في سبيلها . وبكثرة هؤلاء او قوتهم او عدتهم يعظم نفوذ الشيوخ والرواسي .

٤ ــ طبقة العبيد : وهم احط الطبقات ، ولايزال اسم العبودية لاصقا بهم ولو ان اسيادهم اعتقوهم فصاروا احرارا ، وافراد العشيرة لا يصاهرون هؤلاء . وليس كل العبيد سود البشرة بل ان بعضهم بيض

كالذين يكثر وجودهم في عشيرة طيء أو النعيم . ومايزال هؤلاء العبيد متعلقين بشيوخهم وأسيادهم على الرغم من انعتاقهم وهم يخاطبون ساداتهم بـ (ياعمي) وسيداتهم بـ (ياعمتي) .(١٩)

المشيخة : مهامها وشروطها :

وهي الوظيفة التي يتولى شاغلها مسؤولية ادارة شؤون العشيرة . فالطبقات الاجتماعية التي ذكرناها يتساوى ابناؤها في جميع الحقوق مهما اختلفت مراتبهم . فلا فضل في عالم البداوة لاحد على احد ، الا انه يكون على رأس كل فرقة رئيس يدعى شيخا ، وشيوخ الفرق خاضعون لشيخ العشيرة ، وشيوخ العشائر لشيخ القبيلة الذي يطلقون عليه اسم شيخ المشايخ أو العليم . ولا يمتاز الشيخ الا بكونه مقدما على الاقران ومكلفا بالادارة والقيادة . والمشيخة تنتقل عندهم بالارث الى الاولاد فالاحفاد ، وكثيرا ما يحدث ان يكون ولي عهد الشيخ طفل وهو شيخ ، ويبقى تحت وصاية احد اقاربه المتنفذين حتى يبلغ سن الرشد .

لكن المشيخة ليست بالارث وحده ، بل بالاستحقاق ايضا ، فلايصير ابن الشيخ شيخاً مالم تتوفر فيه بعض الشروط . واهم هذه الشروط هي الذكاء الوقاد ، وسداد الرأي ، وطلاقة اللسان ، والشجاعة والاقدام في القتال والنزال ، والغنى المادي ، وبسط اليد في الكرم واقراء الضيف، والقدرة على رفع الحيف والضيم ، ووفرة الاقرباء والانسباء والحواشي والمواشي ، والمقدرة على مخاطبة الحكام وحل المشكلات لدى اولياء الامور . وصار هؤلاء الشيوخ يعينون في ظل الانتداب الفرنسي بقرار من المندوب السامي الفرنسي ، ثم من قبل وزير الداخلية بعيد الاستقلال وقد نصت المادة ٣/٤ من القرار رقم ١٣٣٢ بانه « يمكن عزلهم [أي الشيوخ] اذا اخلوا بالامن العام او تمردوا على القوانين والانظمة النافذة اواستبدوا وعتوا ..... »(٢٠) ويبقى المقام الاول عند البدو في المشيخة هو للجدارة الشخصية . فقد روى الاب جوسن الدمينيكي في هذا الصدد انه سأل أحد كبراء البدو ذات يوم كيف يصيرون شيوخا ، فاجابه الشيخ وهو يهز سيفه : « بالفهم السوي والزند القوي . »(٢١) .

أما فيما يتعلق بسلطات الشيخ وصلاحياته والامور التي يحكم فيها فانها تشمل وفق العرف المشروع والشرع المعروف الامور التالية :(٢٢)

١ ــ يأمر بالرحيل والنزول اذا نجع قومه وظعنوا . فهو يعين مواعيد الرحيل والنزول مسبقا حسب الفصول او حسب المرعى والمنهل .

٢ ــ يراقب أمر الالفة والوئام بين ابناء عشيرته ، وهو المرجع في حل المنازعات وتسوية الخلافات التي لا تحتاج لمراجعة القضاة (العوارف) ويوقف القتال بين المتخاصمين بقوله : (وجهي بينكم) . كما يجير الدخيل ويسترد الاشياء المسلوبة ويقسم الغنائم ويحمي الفقراء ويوافق على عقود الزواج والطلاق .

٣ ــ يمثل عشيرته لدى الحكومات والمسؤولين الاداريين والحكوميين ويتحمل تبعة ما يفعله .

٤ ــ يعلن حالة الحرب المعروفة (برود الشكال) او يقر الصلح والسلام بعد اخذ رأي المجلس المؤلف من شيوخ العشيرة ورؤساء فرقها . وعند

إعلان الحرب يرفع الشيخ راية سوداء او يربطها في رقبة فرسه او بعيره ويطوف بين البيوت معلنا الحرب . وعلى كل فرد من افراد العشيرة حينئذ ان يهب الى سلاحه ويلبي الدعوة الى القتال والا فانه يحق للشيخ ان يضربه او يطرده من المنازل او حتى ان يسلبه سلاحه وحلاله .

كما جرت العادة ان يكون في بيت كل شيخ جليل انسباء وذوو قربى مخلصون ، وحاشية وعبيد معتقون او شبه معتقين ، وهم مكلفون بخدمة الشيخ وحمايته على وجه الخصوص ، ويؤلفون حرسه الخاص ، ويطلق عليهم اسم بيرق عند عنزة الجنوب وذكرد عند عنزة الشمال وبدو العراق ويجب أن يكون بيت الشيخ في وسط البيوت واعلاها ليراه الطارق ليلا ونهارا فيقصده ، وأن تكون ربعته ــ اي مكان اجتماع الضيوف ــ كالمنتدى العام مفتوحة في وجه كل قاصد ، ولا تخلو من القهوة والتبغ والطعام والفراش . وفي هذا المعنى يقول احد شعراء البدو :

الشيخة ما هي بالجوخة ولا بكبر العباية يا بنيّة
الشيخة صب القهاوي زي العيون المروية
الشيخة جرّ المناسف في السنين الرديّة(٢٣)

ومن عادة شيوخ العشائر الكبيرة مثل شمر وعنزة ان يتكفلوا بجباية ضرائب الابل والغنم التي تفرضها الدولة على عشيرتهم ، فيتولى توزيعها على الافراد مباشرة . وهو يجبيها ثم يدفع ما جباه الى الدولة ويحتفظ بالقسم الزائد منها لانفاقه في سبيل المصلحة العامة للعشيرة . ومن عاداتهم ايضا ان يرسلوا احد عبيدهم فيمر بالفرق التابعة لهم ، ويجمع غنماً وماعزاً من كل واحد وفق حالته ، وذلك لقاء حفظ وحماية ارزاقهم من السلب او السرقة .

فاذا عجز الشيخ بسبب التقدم في السن او المرض وشعر بالحاجة الى الراحة ، فانه عادة ما ينتخب من بين اخوته او اولاده او احفاده من يرى فيه الكفاءة في النيابة عنه ، وقبل ان يحمله إلا مرة كلها يحمله بعضها كحل الخلافات والنيابة عنه في المؤتمرات ونحو ذلك . واذا اشتد عليه المرض وشعر بدنو الاجل ، فانه يقلد نائبه المنتخب الرئاسة كلها . وقد جرى مثل ذلك في عشيرة شمر، بعد الحرب العالمية الاولى ، حيث ان رئيس شمر العاصي بن فرحان كان قد بلغ من العمر ثمانين حولا أو اكثر وانزوى الى اراضي (دمير قبو) في قضاء ديريك من محافظة الحسكة التي اقطعها له الترك وقتئذ ، فعهد بالشيخة الى حفيده دهام بن هادي العاصي على الرغم من وجود ابناء له نشيطين ، على حد تعبير زكريا(٢٤) .

● **توابع العصبية القبلية :**

ذكرنا ان الاصل في العصبية عند العرب جامعة النسب من الاب ثم الام ، على انهم كانوا يجتمعون بأسباب وصلات أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات او المعاهدات الدولية التي تعقد بين الدول في عصرنا الحاضر . وأكثر ما يكون ذلك من اجل مواجهة خطر خارجي او عدو

مشترك ، أو طمعا في تحقيق مكاسب مادية للعشيرة او القبيلة . وعرف العرب الاحلاف منذ أيام الجاهلية حيث اشتهر حلف المطيبين ثم حلف الفضول(٢٥) .

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف « المؤاخاة » ، وقد تكون بين القبائل أو بين الافراد . ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو الى الان ، ومثال ذلك المؤاخاة التي تمت في فترة اعادة اعمار سلمية بين بدو عنزة واهالي سلمية في منتصف القرن الماضي(٢٦) .

كما يدخل في باب ذلك الانفصال او تبديل التابعية . اذ لافراد العشيرة الحرية في الانفصال عن عشيرتهم والانضمام الى عشيرة اخرى اذا ما وقعت لهم مشكلة يتعذر حلها مع افراد آخرين من ذات العشيرة او مع عشيرة اخرى . وينطبق هذا الكلام على الفرق والعشائر ايضا . وعندما يود أحدهم ـ سواء فردا او فرقة او عشيرة ـ الانضمام الى عشيرة اخرى فانه يسعى الى المفاوضة مع هذه العشيرة . وبعد ان يتم الاتفاق على الانضمام وتقبل تلك العشيرة بانضمام هذا الفرد او الفرقة او العشيرة اليها ، يقوم باعداد وليمة كبيرة يدعو اليها الاعيان والشيوخ ويعلن امام الجميع قراره الذي اتخذه بالانفصال عن عشيرته والانضمام الى العشيرة الاخرى . ثم يرحل في اليوم التالي مع عياله وحلاله وينزل على العشيرة التي كان قد اتفق على الانضمام اليها ، فتلاقيه رجال تلك العشيرة وترحب به وتقيم له وليمة وتكرمه ايما تكريم . ويقوم هو في اليوم التالي برد الجميل ويقيم وليمة كبيرة يدعو اليها رجالات عشيرته الجديدة ويرفع راية بيضاء فوق بيته معلنا انفصاله التام عن عشيرته السابقة وانضمامه الكامل الى العشيرة الجديدة . وبعدها يقدم الراية البيضاء الى شيخ العشيرة الذي يعلن قبول الشخص او الفرقة او العشيرة في عداد اتباعه ويصبح العضو الجديد مساويا لبقية افراد العشيرة في جميع الحقوق والواجبات(٢٧) .

الصداقة بين العشائر : وكثيرا ما يحدث ان تتصادق عشيرتان او اكثر لتحقيق مكاسب او منافع او لرد خطر خارجي أيضا . وتكون

العشيرتان في هذه الحالة متساويتان في الحقوق والواجبات كانهما فرقة أو عشيرة واحدة ، لكن تحتفظ كل عشيرة باستقلالها عن الاخرى . واذا تنازعتا على مرعى أو مورد ماء يقوم رؤساء العشيرتين بالاجماع بحل النزاع باعظم مايكون التسامح . واذا زادت هذه الصداقة وتعمقت انقلبت الى تحالف حقيقي ، وعندئذ ينجد (يفزع) احدهما الاخر عندما يحصل نزاع مع طرف ثالث . اما اذا كانت الصداقة بين عشيرة قوية واخرى ضعيفة ، فان الضعيفة تصبح من اتباع القوية ولواحقها كما كان الحال بين الولد علي والارولة ، وبين الفواعرة والاحسنة في مطلع هذا القرن(٢٨) .

ـ الاستلحاق : ومن توابع العصبية القبلية عند العرب الاستلحاق . وهو أن يدعي الرجل رجلا آخر يستلحقه بنسبه . وقد يكون هذا الرجل عبدا او اسيرا او مولى ، فيسميه مولاه وينسبه اليه . وقد اشتهرت حوادث الاستلحاق في الجاهلية ، واستمرت في الاسلام وحتى العصور الحديثة في مواقف محدودة(٢٩) . وكانوا يسمون المستلحق « دعيا » ويعدونه من جماعتهم ويورثونه كما يورثون الابن الصريح ويرثونه على حد قول صاحب الاغاني(٣٠) .

ـ الخلع : وهو ضد الاستلحاق ، ويعني التبرؤ من شخص ،كالابن مثلا ، والتخلص من تبعة ماقد يرتكبه من اساءات او مكروه . وكانت العشائر العربية تفعل ذلك منذ القديم ، وكان يذهب منها جماعة الى مكان عام (كسوق عكاظ في الجاهلية) تلتقي فيه القبائل ومعهم الشخص المراد خلعه والتبرؤ منه ، ويشهدون ذلك على انفسهم انهم خلعوه ، وان قبيلته لا تحتمل اية جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها عليه احد . ومن هؤلاء الخلعاء كانت تتشكل جماعات الصعاليك المشهورة في الجاهلية(٣١) .

الوضع الاجتماعي للمراة البدوية :

مما لاشك فيه ان المراة البدوية بقيت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وكانت هذه العفة احدى ثمار الانفة وحب الاستقلال .

والمعروف ان النساء في البادية اكثر من الرجال عددا ، وهن بالطبع الين جانبا وارق طبعا ، لكنهن مع ذلك لسن دون الرجال في مجال النخوة والشهامة . فهن يتحملن المشاق وتجشم المصاعب ويشاطرن رجالهن كل ضروب المتاعب حتى في الحروب والغزوات . ولهن تعلق شديد برجالهن وقد يؤثرنهم على الوالدين والاخوان بخلاف الرجال . وتقوم المراة البدوية مقام الرجل في اكثر الاعمال . اذ المعروف ان عمل البدوي كان يقتصر على الغزو والغارات في الماضي او اعمال الرعي والشؤون الخارجية في الحاضر ، والمراة رفيقة له ومعينة في كثير منها ، وجميع ماتبقى مفروض على المراة بحيث لو انقطع الرجل مدة عن طلب الرزق لسبب من الأسباب ، كانت هي ربة البيت مكلفة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية . وهي بنظر البدو محترمة ومصونة من التعدي لايجوز ان تمس بأذى بالغا مابلغت الخصومة بين العشائر . كما درجوا على اتخاذ النساء رسلا بين الفريقين المتحاربين او فك الاسرى او استرداد المنهوبات ، كما سنرى بعد قليل .

والبدوية وان لم يكن لها محل في مجالس زوجها التي تقتصر على الرجال فقط ، الا انه يحق لها ابداء الراي فيما يتصرف به زوجها في ماله بمالا يرضيها ، او فيما يبيعه من حلاله . والبدويات سافرات بالطبع ويتجولن في البراري وبين المخيمات بكل حرية دون خوف او وجل . فالضرورة او الحاجة في حياة البدو تدعو الى الاتصال الدائم والاختلاط المستمر بين الجنسين سواء في حلهم او ترحالهم . فالقوم يشاركون جميعا في الافراح والاعراس ، وهم في هذه الحالة بمثابة العائلة الواحدة ، وكذا في الاتراح والرزايا العامة كالغزو وهجوم الاعداء او موت عزيز وقتله ، وفي الجيرة وسكنى الخيام التي لا سبيل الى حجبها وتغطيتها . كل ذلك من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابب في الزواج مع العلم بأنه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف ، والا تعرض الرجل والمراة اذا شذا لاخطار قد تشترك فيها جميع افراد العشيرة ، كما يقول زكريا(٣٢) .

كما تتصف المرأة البدوية بتحمل الاعباء والمشاق ، والصبر على الالام والاوجاع ولاسيما آلام المخاض والولادة . ولهن في هذا المجال صبر عجيب يندر ان نجده عند أي من بنات جنسها في المجتمعات المدنية . وقد روى صاحب انساب العرب(٢٣) ان المرأة البدوية تصبر على آلام الولادة والمخاض حتى العسيرة منها ، ولا يند لها صوت ولا تسمع لها أنة الم ، لانه من العار عند البدو أن يرتفع صوت المرأة مهما عانت من آلام الولادة ، فان ذلك يؤذ أباها واخوانها واهلها ، ويجلب لهم العار بين أهل الحي .

وكذلك فان العنوسة بين البدويات أمر نادر الحدوث ، فحتى الدميمات منهن يجدن من يتزوجهن لان الزواج سهل وميسور ، ولان فتيان البدو يتسابقون اليه في سن مبكرة ويندر بينهم من يتخطى عقده الثالث دون أن يتزوج ، بل ان الكثير منهم يتزوج دون العشرين(٢٤) .

الحرب بين العشائر :

كما ان الصداقة بين العشائر هي عبارة عن نوع من العلاقات الاجتماعية الايجابية ، كذلك فان الغزو والحرب بين العشائر هما نوع آخر من هذه العلاقات ، لكنه نوع سلبي . ومع ذلك ، فللحرب شروطها وقواعدها التي يلتزم بها البدو . فمثلا لايجوز اشهار الحرب واعلانها قبل ارسال انذار الى القبيلة او العشيرة المراد الحرب معها يسمونه (رد النكا) ، فاذا قصر رئيس العشيرة الغازية في ذلك وغدر ، تصدر بحقه احكام قاسيةويتعرض لخذلان حلفائه وانفضاضهم من حوله ، لان عمله كان مخالفا للتقاليد والمروءة العربية(٢٥) .

وبعد اعلان الحرب واشهارها تبدأ الغارات بين الطرفين التي قد تتحول الى معارك حقيقية خصوصا بعد انتشار استعمال الاسلحة الالية والرشاشة بين البدو . وهناك قواعد واصول متعارف عليها تحب مراعاتها والا كان الناقضون لها عرضة لمؤاخذة القضاة (العوارف) الذين لابد من استدعائهم يوما ما حين تسوية النزاع ، واهمها هي(٢٦) :

١ ـ يحمل الجرحى من الطرفين الى مخيمات خاصة حيث تتم العناية بهم وتضميد جراحهم ريثما يرسلون الى اهاليهم .

٢ ـ يمكن الاجهاز على الجرحى الخطرين فورا لتخليصهم من آلامهم بعد موافقة رئيس العشيرة وطبيبها .

٣ ـ يؤخذ سلاح الاسرى ويساقون الى مكان بعيد عن المعركة ويطلق سراحهم .

٤ ـ يقسم الشيخ الغنائم بعد ان يأخذ حصة مقدارها الثلث في الغالب .

وبالامكان انهاء القتال والنزاع خلال المعركة أو عقب الخروج منها وذلك في حالات خاصة صارت نادرة جدا في العهود الاخيرة ، منها مثلا :

١ ـ اذا وجد احد الفريقين نفسه ضعيفا واراد الخروج من المعركة بأقل خسارة ممكنة ، فانه يبعث الى المهاجمين بفتاة جميلة على ظهر ناقة بيضاء ، فيتوقف القتال فورا ، ويضطر رئيس المهاجمين الى ملاقاة الفتاة بنفسه أو يبعث بابنه الذي يجب عليه عندئذ أن يتزوجها وينعقد الصلح بعد ذلك ، ويعود كل فريق الى عشيرته .

٢ ـ اذا وجدت العشيرة المعتدى عليها نفسها ضعيفة جدا ، فانه يحق لها بعد انتهاء الغارة ارسال وفد من نسائها الى رئيس العشيرة المعتدية ليستعطفنه بأمر الغنائم والاسلاب ، وتحتم المروءة على هذا الرئيس ان يرد كل ما اخذه وان يقبل بالصلح(٢٧) .

أما الغزو ـ الذي لاتنطبق عليه شروط وقواعد الحرب بين العشائر ـ فهو عادة قديمة توارثها البدو منذ ايام الجاهلية ، فقد كانت وسيلة من وسائل كسب العيش والرزق ، يغيرون على عشائر معادية ـ وما اكثر المعاداة عندهم ـ فيأخذون ابلهم ومواشيهم ويسبون اولادهم ونساءهم ، وتتربص بهم العشيرة الاخرى ذلك فتفعل ما فعلوا . وهم يعتذرون عن الغزو ويبررونه اذا لوموا عليه ، بأنه ضرر لا مفر منه ،

ولهم فيه معاش لا يستغنون عنه ، وان في الضرب بالنار أخذا للثار وغسلا للعار وان لاطاقة لهم بحسمه . والعجيب ، كما يقول زكريا ، انهم يأخذون معهم الصبيان ليعتادوا من حداثتهم شهود الميدان والثبات في معترك الفرسان . لكن حكومات البلدان الشامية حظرت الغزو على العشائر منذ النصف الاول من هذا القرن حظرا تاما ، وهددت بالعقوبات والغرامات واستعادة المنهوبات ومصادرة السلاح والخيل والسيارات وكافة الادوات المستعملة في الغزو ، وسجن رئيس العشيرة(٣٨) .

قضاء الوقت عند البدو :

من خلال ماسبق نتوقع الا تكون الحياة اليومية للبدوي سوى حياة بسيطة تتصف بالرتابة والهدوء ، وتتخللها اعمال بسيطة ايضا يؤديها ويمضي جل ماتبقى من وقته مضطجعا يتأمل الطبيعة الرحبة ويمتع نفسه بمناظرها ونسائمها . فبعد انقطاع سبل الغزو وتطور ظروف العيش ، اصبح البدوي لايكاد يعمل عملا ذا شأن الا اذا رعى الابل او الغنم ، أو سعى الى تأمين الغلال . وهو في الغالب يرى ماشيته ترعى امامه يشرف عليها الرعاة ، وكل اعمال البيت تقوم بها النساء . اما هو فلا عمل يشغل وقته ، ولا صناعة تلهيه وتسليه ، ولا كتاب او صحيفة يقرؤها فما له سوى الاضطجاع كما قلنا ، والاستمتاع بمنظر البراري الشاسعة وأشعة الشمس الساطعة . وهو يترقب مجيء الضيوف الى ربعة الشيخ فيذهب الى حضور مجالسهم ، ويصغي الى ما يأتون به من الاخبار والحوادث الطريفة .

وللبدوي مقدرة عجيبة في معرفة الاخبار التي تهمه من انباء العالم ، ويتناقل ذلك بسرعة البرق ، حتى ان مايحدث في الحجاز أو العراق كان يصل خبره الى ابن بادية الشام وما وراءه من الاعراب قبل ان تصل قوافل البريد . فالخبر ينتقل عندهم شفاها ، ويسمون الاخبار (العلوم) ، وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم .

فاذا لم يكن عند البدوي مايتسلى به من الاخبار والقصص ، فان شاعر العشيرة يتولى ذلك بأن يضرب على ربابته وينشد القصائد والاشعار

التي يدور اكثرها حول المفاخر والمآثر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة ، والانتصارات التي احرزوها في ميادين البطولة والاقدام ، او الكرم والاريحية ، او حول قصص الغرام والحب(٣٩) .

كما ان لديهم بعض الالعاب يتسلون بها ومنها سباق الخيل او المراضة ، والرقص في المناسبات والافراح كرقصة (الدحة) المشهورة ، وبعض الدبكات التي يؤدونهـا على انغام قصائد خاصـة يرددها افراد العشيرة بشكل جماعي(٤٠) . ولهم اهتمام بالصيد الذي يشغل به الكبراء والشيوخ اوقاتهم ، وهم يمارسونه بواسطة الصقور والكلاب السلوقية واكثر مايصطادون الغزلان والارانب والحباري وغيرها . وقد اسرفوا في صيدهم لهذه الحيوانات ولاسيما بعد استعمال السيارات في مطاردة الغزلان مما ادى الى انقراضها من بادية الشام .

بعض مناقب المجتمعات العشائرية :

ان طبيعة الحياة التي يحياها البدوي ، والبيئة الطبيعية التي وجد فيها فرضت عليه بعض الخصائص والميزات التي شكلت خصالا حميدة اتصف بها اهل البادية ، ومناقب تميز مجتمعاتهم عن مجتمعات اهل المدن والحضر . ومن هذه المناقب :

١ ــ **اكرام الضيف :** يعتبر اكرام الضيف ، او الكرم بشكل عام ، من المناقب التي اقتضتها طبيعة اقليم البدو . اذ كان البدوي يسير في اسفاره منفردا فيبتعد عن مضارب عشيرته اياما في بادية لاطعام فيهـا ولا ماء ، فاذا لم يجد من يقربه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة واصبح الكرم من افضل المناقب عندهم ، وكانوا يتفاخرون بها ويتسابقون الى المغالاة فيها حتى ان الروايات تذكر ان حاتما الطائي كان يشعل نارا عظيمة امام بيته ليستهدي بها المسافرون والجائعون(٤١) ولاتزال آثار هذه العادة جارية في يومنا هذا لدى كثيرين منهم كما يقول زكريا ، الذي روى ان الامير محجم بن مهيد رئيس العدعان (الولد) كان يأمر مؤذنه ان يصيح عقب آذان العشاء (العيش ياجوعان) ، وتأخير الطعام الى مابعد العشاء بقصد به انتظار من يكون متخلفا من الزوار والمسافرين(٤٢) .

والبدو يحتفون بالضيف حين قدومه اكثر من حفاوتهم به حين ذهابه ، تدليلاً على تقديرهم للضيف وتسابقهم الى ضيافته ، ويكرمونه بكل ما يقدرون عليه . لكن على الضيف بالمقابل ان يكون اديباً ومراعياً لعاداتهم ، وعليه اذا قدم منازل العشيرة ان ينحرف ما امكنه ذلك كي يصل الى الربعة (خيمة الشيخ) مباشرة دون أن يقع نظره على الحريم أو أماكن النساء . فاذا ما وصل الربعة نزل عن مطيته وربطها بأحد الاوتاد أو الاطناب ثم يدخل الى الربعة ويحيي الحاضرين وينتظر قليلا ريثما يعدون له محلا للجلوس فاذا ما جلس جيء اليه بالقهوة ثم بالطعام .

٢ ـ الشجاعة : الشجاعة والاقدام شرطان ضروريان من شروط بقاء البدو الذين غالباً ما كانوا يعيشون بالغزو ، وفي حالة قتال وصراع دائم مع العشائر الأخرى التي تتنافس على المراعي والمناهل . والشجاعة عندهم من الخصال البارزة التي تغنوا بها في قصائدهم واشعارهم وجلسات سمرهم . وكانوا يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ويتناقلون اخبارهم(٤٢) .

ويدخل في هذا الباب ايضاً الاريحية التي هي من المناقب التي تغني عن الوازع القهري او القوة الحاكمة ، ومن مقتضيات العصور القديمة للتفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الاحدوثة .

٣ ـ الوفاء : الى جانب الشجاعة والأريحية ، اتصف البدوي بالوفاء، ونرى ذلك مطبوعاً في اقوال أهل البادية واشعارهم وامثالهم . ويتجلى في عاداتهم وأخلاقهم ، وهي فيهم سجية ورثوها عن اجدادهم العرب القدماء . وقد وردت في تاريخهم قصص كثيرة تدل على الوفاء وعدم الغدر وحماية المستجير ، منها قصة حنظلة الطائي مع النعمان بن المنذر ، وقصة السموأل مع ملك كندة(٤٤) .

ويدخل في باب الوفاء بالعهد وحفظ الذمام الجوار ، لأن البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه ، والمقصود بالجوار في الأصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب ، وهذا من قبيل التعاون الطبيعي حتى

قيل « جارك القريب ولا أخوك البعيد »(٤٥) . لكنهم توسعوا في ذلك وصار احدهم اذا خاف سوءاً يأتي الى رجل يحميه ، ويكفي أن يقول له « أجرني » فيجيره بقدر طاقته ، وقد يفرّط الرجل بأهله ولا يفرّط بجاره . وربما جاء أحدهم الى رجل ليستجير به فلا يجده في بيته، فيكفي أن يعقد طرف ثوبه بطنب البيت ، فاذا فعل ذلك صار جاراً ووجب على المعقود بطنب بيته للمستجير به ان يجيره وأن يطلب له بظلامته(٤٦) .

٤ ــ التضامن البدوي : من المعروف ان ثروة البدوي سريعة الزوال بسبب الحروب والغزوات ، ولا تستقر على حال فهي تماثل ثروة المقامرين في اسواق البورصة المالية . لكن من مناقب البدو التضامن في البلوى والتعاون على المصائب ، وهم يتسابقون الى امداد العزيز اذا ذل ويتعاونون على إقالة عثرته ، والعشيرة او الفخذ او الاقارب بمنزلة الأسرة الواحدة بينهم تضامن وتكاتف كاملين . ولذلك تراهم يعقدون الاجتماعات في أيام المحن والشدة في ربعات الشيوخ والكبراء، ويتذاكرون في كيفية حراسة الأموال والانفس فاذا وجدت عشيرة نفسها في ضعف عمدت الى التحالف مع عشائر اخرى مجاورة ، وهو يشبه ما يقوم من تحالفات بين دول العصر الحاضر ، حفظاً للتوازن ودرءاً للأخطار(٤٧) .

٥ ــ الثأر : ولا نقول ان الثأر هو من الخصال الحميدة للمجتمع العشائري ، بل هو من الخصال المميزة لهذه المجتمعات . بحكم طبيعة حياتها وظروف معاشها . وكما ينجدك البدوي اذا استنجدته والتجأت اليه وطلبت حمايته ، فانه بالمقابل لا يصبر عن الاخذ بثاره اذا أسات اليه . فاذا قتل رجل من عشيرة رجلا من عشيرة اخرى قامت العداوة بين العشيرتين ، وتنشب الحروب بينهما حتى تقوم الموتورة منهما بأخذ ثأرها ، ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفء لقتيلها، أو يتصالحوا على الدية . وينطبق ذلك على الافراد ايضا ، فالبدوي لا ينام على ضيم ولا يستكين لظلم ، وقد يصبر على ثأره اربعين عاما ويقول حين يأخذ بثاره (انني تعجلت اخذه)(٤٨) . وهم اذا راجعوا قضاتهم وأخذوا حكماً على غرمائهم قد لا يعجبهم الحكم فيروون ظلمهم بدم الفرماء ويثأرون

بأيديهم . وهم يقدمون على ذلك بنفس هادئة وعندهم السن بالسن والعين بالعين والنفس بالنفس ، اي انهم يعتدون على الغريم بمثل ما اعتدى عليهم . ويمكن أن يطال الثار اقارب القاتل واهله حتى الجد الخامس .

وربما استنكر أهل الحضر هذه العادة في البداية ، لكن من يطلع على شؤون البادية يعلم انه لولا وجود هذه السنة عند البدو لغدت البادية دار حرب دائمة ، لأن سنة الدم بالدم تصد المجرمين والاشرار عن جرائم كبرى . فالبدو يتجنبون القتل حتى اثناء الغارات والغزوات ما أمكنهم ذلك لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام ، وهي الشريعة التي تجعل البيداء في امن وسلام يسافر فيها المرء غير خائف من صولة أشرار البدو وان سلبوه ماله على حد قول زكريا(٤٩) .

القضاء عند البدو :

وقبل ان نختم حديثنا عن ملامح العلاقات الاجتماعية في المجتمعات العشائرية ، نرى أنه من المفيد الاشارة الى القضاء عند البدو ، وهو الذي يحكم ويسيطر على هذه العلاقات في حالة اختلالها ، ومحاولة اختراقها من قبل اي طرف .

والقضاء عند البدو يتبع العرف والعادة ، وليس ثمة قوانين مكتوبة ولا خطط مرسومة وهو في أيدي الشيوخ الذين يحرصون عليه حرصاً شديداً ، ولا يقبلون به جدلا ، ولا يرضون بتعديله واستبداله بالقضاء المدني الذي يسلبهم سلطتهم ويخفض شوكتهم . وهؤلاء الشيوخ هم إما قضاة في الدعاوى التي تقام وسط العشيرة ، أو هم محكمون في التي تقام بين العشائر المجاورة . واذا لم يتولوا القضاء بأنفسهم فانهم ينيبون عنهم رجالا مختصين بالقضاء البدوي يدعونهم عوارف (ج عارفة) . ويحكم الشيخ أو العارفة من بنات افكاره بما اكتسبه من خبرات وتعامل قديم ووقائع سابقة مماثلة . ولا يعتبر عارفة إلا من كان ابوه عارفة اذ يشاهد الدعاوى من الصغر ويسمع بما يحكمون به ويتناقلونه وهو ينظر .

وللقاضي البدوي سلطة واسعة ونباهة قدر ، فاذا تكلم انقطع الحديث وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولقضاتهم منطق موزون وبيان مرغوب يخلبون به الباب سامعيهم ؛ فيأتون بالتشابيه البديعة ويضربون الأمثال ويوردون الحكايات عن السنة الحيوانات او الجمادات مما يطرب له الحاضرون . واحكامهم واجبة التنفيذ فورا ، إلا انه اذا لم يرض احد الفريقين بحكم القاضي فله أن يعارض حكمه ويطلب ان يرجع الى (المنهى) والى قاضي المناهي ، وهو بمثابة محكمة التمييز . ولا يختلف هؤلاء المناهي عن العوارف إلا في انهم اكثر شهرة وشأنا(٥٠) .

الحواشي :

١ – جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، مجلد ٢ ، ص ٢٨٩ .

٢ – سمير عبد الرزاق القطب ، انساب العرب ، بيروت ، ص ٣٢ – ٣٣ .

٣ – زيدان ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

٤ – القلقشندي ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ص ١٢–١٤ .

٥ – احمد وصفي زكريا ، عشائر الشام ، دمشق ١٩٨٣ (ط. ثانية) ، ص ١٧٧ .

٦ – القلقشندي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

٧ – المصدر السابق ، ص ٢٢ – ٢٣ .

٨ – زكريا ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

٩ – انظر المصدر السابق ، ص ١٧٩ – ١٨٠ .

١٠ – المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

١١ – المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

١٢ – المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

١٣ – المصدر السابق ، ص ١٨١ .

←

١٤ – المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

١٥ – المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

١٦ – زيدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ .

١٧ – ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ط . مصر ، ١٣١٠ هـ ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

١٨ – ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ط . مصر ، ١٣٠٥ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

١٩ – زكريا ، ص ١٨٥ .

٢٠ – المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

٢١ – المصدر السابق ، ص ١٨٦ و زيدان ، ص ٣٠٧ .

٢٢ – زكريا ، ص ١٨٧ .

٢٣ – المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٢٤ – المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٢٥ – انظر سيرة ابن هشام وزيدان ، ص ٢٩٧ .

٢٦ – محمود امين ، سلمية في خمسين قرنا ، ص ١٦٧ .

٢٧ – زكريا ، ص ١٩١ – ١٩٣ .

٢٨ – المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

٢٩ – زيدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

٣٠ – ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، بولاق ، ١٢٨٥ هـ ج ١٧ ، ص ٩٤ .

٣١ – زيدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ .

٣٢ – زكريا ، ص ٢٠٩ .

٣٣ – القطب ، انساب ، ص ١٠٥ .

٣٤ – المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

٣٥ – زكريا ، ص ١٩٤ .

٣٦ – المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

٣٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

٣٨ ـ المصدر السابق ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

٣٩ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٢ وانساب العرب ، ص ١٠٤ .

٤٠ ـ القطب ، انساب ، ص ١٠٣ .

٤١ ـ زيدان ، ج ٤ ، ص ٥٧٥ .

٤٢ ـ زكريا ، ص ٢٣٠ .

٤٣ ـ زيدان ، ج ٤ ، ص ٥٧٥ .

٤٤ ـ انظر الابشيهي ، المستطرف ، ط. مصر ، ١٣١١ هـ ، ج ١ ، ص ١٦١ .

٤٥ ـ زيدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

٤٦ ـ الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

٤٧ ـ زكريا ، ص ٢٥٦ .

٤٨ ـ زيدان ، ج ٤ ، ص ٥٧٧ .

٤٩ ـ زكريا ، ص ٢٧٢ .

٥٠ ـ لقد فصل زكريا الحديث عن القضاة عند البدو وكيفية اجراء القضوة . انظر ص ٢٥٧ وما بعدها .

★ ★ ★

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

مدينة الضباب

قصص للأطفال

تاليف
فرانسوا سوترو

ترجمة
عبادة الأشقر

★ ★ ★

قال البلبل

اناشيد واشعار للأطفال

طه حسين الرحل

ابداع

«شعر»

القلعة

حسين هاشم

«قصة»

أم ياسر تنتظر

يوسف جاد الحق

معها في مساء ماطر

حسن حميد

ابـــداع

شعر

القلعة

حسين هاشم

● لشيءٍ مـن الدمـع
يجلـو رمـادي ..
ساولم قلبـي
مساءَ الرحيل العظيمِ ،
إليكـم اشـدُّ الرحـالَ
بـلا دعـوةٍ ..
ولهـا سـاغنـي ..

* * *

حسين هاشم : شاعر من سورية ، ينشر في العديد من الدوريات المحلية والعربية ، من اعماله « اناشيد الفقراء » ، « وصارت تضيق بي الارض » ، « وحيـدا وعاريا كـان يقف » .

● لتلك التي أزهرت
في صقيعي
لتلك التي أثمــرت
وارتوت مــن بقايـا نجيعي

● لها ، حين ينفلتُ القلبُ
مــن قمقم الذاكرة :
ولأزهارها الناضرهْ
سأرقص حتى تفيض سمائي
واستولدُ الغيمةَ الماطرهْ

● ولها .. حين يرتجفُ القلبُ
ذاك الحضورُ البديــعُ
لهــا وقعُ قيثــارةٍ
قبــل اشراقة الصبــح
شــدوُ يمــامٍ
علــى غصن القمــر
زهــرٌ مــن العصبِ المستباحِ
رمــادٌ تخثّق مــن رغبــةٍ
في الهروب الجميل الى النفس
قافلــةٌ مــن رمــادٍ
وأسئلــةٌ قاتلــهْ

● ●

● ولكاسي التي مــا شربتُ
اقــدم عمري انتظارا .. لهــا

انهـا آخـر الكلمات
واول دربي الى الهاجـره
قلعتـي !! .
كنت لو هاجَ بي الشوقُ
او حاصرتني البـلادُ بأنيابها
استظـل بأحجارهـا
قلعتي !! ، في البلاد الحزينـة
حاورتها .. ، فانثنت فزعـة
قلت : ما همني
في المنـام أراهـا ، وأحلـم :
اسوارها أمنـي المرتجى
خلف اسوارها .. سأنامُ
انـام
واهجر هـذا الزمانَ المراوغَ
انسـلُّ منه الى دفء أحضانها
اشتهي صوتها للغناء البهيج ،
ورقصتها للهـوى .
آخر الكلمات ، وأول دربي الى الهاجره :
صمتُ هذي الحجارة اغنيـة
والنوافذ ضيقةٌ ، ضيقهْ
والبلادُ ، وهجر الصحاب
غيـابُ الأحبـة
سردابُ قتلِ الطفولة في الناس

والعطر في بهجة الـورد
والذكريـات البهيجة
صحوتي بعـد سكر الجنون ،
ورقص الجنون
غنـاء ، غنـاء
نشيج يلعلع في عتمـة الليـل
دم وبلاد ، دم أصدقاء اليفون يزدحمون على الباب
بين النميمة والخوف ينهزمون
بلاد ، دم ، أصدقاء
رجـال يغيبهم صمتنا في المنافي
وردة تستجير باشواكها
وعصافير من عطش تنحني
صوب ذل القفص .
شوق عاشقة للنـدى
او لصـدر الحبيب
انهـا وردتي ..
وردتي
وردة للنحيب ..
النحيـب .

* * *

ابــــداع

قصّة

أم يـاســر تنتظـر

يـوسف جــاد الحق

تجثم القرية فوق سفح الجبل ، على مبعدة أميال قليلة الى الجنوب من مدينة الخليل . فيما تربض المستوطنة اليهودية ، التي اقيمت حديثا ، الى الغرب منها ، على مسافة تقارب البعد ذاتـه . يقيم فيها خليط من الغرباء الذين توافدوا عليها ، تباعا ، على مدى السنوات الماضية .

يوسف جاد الحق : اديب وقاص من سورية ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية، له عدد من المجموعات القصصية .

تناثرت على السفح بيوتها العتيقة ، باقواسها وقبابها التي بهتت الوان حجارتها ، مع الزمن . تبرز من بينها مأذنة جامع ، وبرج كنيسة . تكتنفها وتترامى بينها اشجار الزيتون المعمرة ، بجذوعها الضخمة التي بدت كأنما وجدت في مكانها مذ وجدت تلك البيوت .

في الجانب الآخر البعيد ، بدت مباني المستوطنة ، الاسمنتية والخشبية المسبقة الصنع ، كمعسكر اقيم على عجل ، لمواجهة حرب وشيكة الوقوع ، فباتت نافرة متجهمة ، كأنما ارغمت على التواجد حيث هي .

* ★ *

اعتاد ياسر ان يغادر منزله القائم على بعد لا باس به من القرية ، بين حقول الزيتون ، الى مدرسته في الصباح الباكر ، حيث يمضي سحابة نهاره ، ثم يقفل عائدا عند الظهيرة . لكنه قبل عودته ، لابد ان يقضي بعض الوقت ، في اللعب مع رفاقه ، عقب مبارحتهم المدرسة ، فيثيرون جلبة تبدد هدوء الحيّ كله ، حيث يتدافعون ويتصايحون ، يتقاذفون الكرات ، ويتضاربون بالحقائب وبالمساطر والدفاتر ، قبل ان يتفرقوا في دروب مختلفة عائدين الى منازلهم .

لوّح ياسر لرفيقه معين بيده مودعاً . انطلق يغذّ السير ، حثيث الخطا ، عبر الحقول . حينئذ تذكر امه ، وما سوف تلقيه على مسامعه من تقريع . بل انها ، دون ريب ، سوف تتحفه بصفعة ، أو اثنتين ، على وجهه أو قفاه ، جزاء تأخره ، لا سيما وان موعد الامتحانات يقترب ، فيما هو يضيع وقته لهواً ولعباً مع اولئك اللاعبين .. رفاقه .

بيد انّ قلبه خفق فرحا ، اذ تذكر العطلة الصيفية القادمة . كما احس بثقته في النجاح الذي سيفضي به الى الصف الخامس في عامه المقبل . وبالها من فرحة اذ ّاك ، تبتهج لها أمه ، وتباهي جاراتها ، ام سميحة ، وام صابر ، وام وسيم ...!

* ★ *

في تلك اللحظات ذاتها ، لوّح عدد من المستوطنين ، خمسة منهم ، على وجه التحديد ، لزوجاتهم وعشيقاتهم ، بأيديهم وقبعاتهم . كما انهم لم ينسوا ان يرسلوا اليهن قبلات في الهواء ، رداً على ما كنّ يفعلن أيضاً . مؤكدين لهن ـ ولجمع من الفلمان والرجال مختلفي الوجوه متبايني السمات ـ بانهم لن يعودوا ، من غزوتهم هذه ، الا منتصرين على اولئك العرب .. وبعد أن يوقعوا بهم أكبر قدر من الأذى . وحبذا لوكان القتل، اذا ما اتيحت فرصة مناسبة يمكن ان يهيأها لهم جيش (الدفاع) ..!

ثم انطلقت بهم السيارة (الدودج) السوداء العتيقة ، العائد للكيبوتز ، فاخذوا يغنون ويصرخون ، ويطلقون الرصاص في الهواء ، كما تفعل قبيلة من الاباش ، حملة الأسهام في الافلام الامريكية .

ما ان وطئت قدما ياسر أرض حقول الزيتون حتى اوجس في نفسه خيفة . واعترته مشاعر قلق غامض ، اذ كان الجو مكفهراً ، والغيوم كثيفة معتمة ، والريح تصفر خلال الاشجار المتعانقة الاغصان كأنها تريد حماية الأرض التي تنتصب عليها من خطر داهم يوشك ان ينقض من الأعالي .

وفيما كان ياسر يمضي في اتجاه منزلهم القصي عن القرية ، كانت السيارة السوداء تشق طريقها في الاتجاه المقابل ، تبحث عن فريسة . يستعين من بداخلها في بحثهم بمنظار مكبر ، يمسح الطريق والحقول حتى السفوح البعيدة .

« علياء » أم ياسر ، مضطربة خائفة ، لاتني تضرب كفاً بكف ، بين الفينة والأخرى ، فيما هي تجلس قبالة التنور ، ترقّ اقراص العجين ، او تدفع بها ، الى بيت النار . تحدث نفسها بصوت مرتفع :

تأخر الولد .. لن يكف الملعون عن هذه العادة .. طيب لما يجي يفرجها الله ..!

كان صدرها منقبضاً أكثر من اي يوم آخر . ومالبثت، بعد ان استبد بها الخوف ، أن راحت تنادي ، من وراء الجدار ، جارتها ام وسيم ، تبحث لديها عن تفسير لتأخر ولدها ، فطمأنتها هذه بقولها :

ــ طولي بالك يا أم يا سر .. استهدي بالرحمن ياختي ولا هاي اول مرة بيتاخر فيها بسلامته ..؟

قالت علياء في وجل :

ــ ما أنت عارفه يا أم وسيم شو اللي صاير ها الايام .. والله ايدي على قلبي اليوم مش عارفه ليه ..

* ★ *

العشيقات في الكيبوتز ، أسفن لفراق الرجال ، خشية ان يطول . اما الزوجات فقد فرحن لذلك الغياب ، لا سيما وأن الغيبة لن تقل عن نصف نهار كامل ، يمكن للواحدة منهن خلاله ان تخلو لصديقها بغير توجس او عجلة ..!

عصابة المستوطنين تطوي الطريق ، تعب الويسكي بشراهة مقرفة. هذا يدلقها في حلقه فتسيل بفعل اهتزاز السيارة على لحيته الشعثاء . وهذا يمسح ذقنه وشفتيه بكمه المتسخ . رائحة عرقهم تعبق جو السيارة المنطلقة باتجاه خط سير ياسر . رذن أصوات اطاراتها ، ورفاريفها ، ومقصاتها ، تخبط عند كل منعطف أو مطب ، ولم يفتهم ــ على الرغم من سكرهم وعربدتهم ــ معاودة النظر ، من حين لآخر ، الى الحقول الخضراء من حولهم ، والى الغيوم المتراكمة فوق رؤوسهم ، مما حدا بواحد منهم ان يقول :

ــ ما أجمل هذه البلاد .. انها اجمل من روسيا وبولونيا .. فقال آخر :

ــ ومن ألمانيا وأمريكا ..

عقّب الاول :

ــ الا ترون انهم ، اعني ذلك الرعيل من قادتنا القدامى، قد احسنوا الاختيار ؟

تساءل ثالث :

ـ هل حقاً عاش اجدادنا القدامى في هذه الديار قبل الفي سنة ..؟

ضج الجميع بالضحك . ثم قال واحد منهم :

ـ اتصدق تلك الاكاذيب ، أيها الاحمق ؟ قل لي يا كوليك ان كنت تعرف اباك ..!

تصدى آخر محتجاً :

ـ كيف لا يصدقها المتكشك ؟ لعلك تنكر التوراة أيضاً .. ووعد يهوه لنا في هذه الارض ..!

تكلم السائق :

ـ بدلا من البحث في التوراة والتلمود دعونا نبحث عمن نصطاد . عن ذبيحة محترمة ..!

رد آخر :

ـ هذا ما لن تجده عند العرب .

سأل السائق :

ـ ماذا تعني ؟ بالتأكيد سوف نعثر على أكثر من واحد في طريقنا .

رد ذلك الاخر

ـ اعني انك قد تجد الذبيحة . اما كونها محترمة فهذا ما اشك فيه . فالعربي الجيد هو العربي الميت .. أم تراك نسيت ..؟

* * *

لاحت لعيني ياسر ، عن بعد ، سحابة الغبار والدخان القادمة صوبه . منى نفسه بان تكون تلك سيارة « ابو كمال » ، التي يصادفها احيانا على الطريق ،عاملة بين المخيمات والقرية ، فتقله مجاناً ماتبقى من الطريق لقاء كلمة شكر يتلقاها من أم ياسر أو امتنان من أبي ياسر .. !

حين اقتربت السيارة ، ذات اللون الاسود ، ادرك ياسر انها لم تكن سيارة (ابو كمال) . اعتراه الخوف . تذكر معين الذي ودعه عما قليل .. تذكر امه ووعيدها .. المدرسة .. الامتحانات .. النجاح .. العطلة .. المظاهرات .. الحجارة .. الاختطاف ..

باتت السيارة على مرمى حجر منه . عرف هويتها تماما . لاحظ انها تتجه صوبه .. تندفع نحوه .. تريده هو .

جبل من الرعب ينداح من قلبه حتى قدميه . خرج عن الطريق المعبد يعدو منطلقا الى اليمين حيث تتكاثف الاشجار .

صاح موداعي بالسائق :

ــ عليك به ياليفي

هتف زخاروف :

ــ إياك أن تفقده ياليفي .. سأقطع رأسك إن اخطأته .. أسرع .. أسرع ..

اعلن توليك :

ــ وقع الفأر في المصيدة يا أوغاد ، بعيدا عن القرية والحجارة ..

يطير ياسر عدوا .. قدماه تضربان قفاه ، فيما حقيبة دفاتره تلتصق بصدره ، والسيارة السوداء في اثره ترسل فحيحاً مرعباً .. تقترب .. وتقترب .. توشك أن تدركه .

صاح احدهم :

ــ اطلق عليه الرصاص ياسيمون

رد هذا سريعا :

لا .. لا .. نريده حيا .. هذا صيد ثمين .. سنأخذه الى كاترينا .. وسارة .. والاخريات ..

تعثر ياسر بكومة تراب فوقع أرضا ، حين اصابت مقدمة السيارة ساقه .

تدفق الرجال الخمسة من ابوابها دفعة واحدة . انقضوا عليه جميعا في حماس وهمة .

صاح واحد منهم :

ـ هات الحبل ياليفي

ـ أمسكه انت ، يا ابن الكلب ، ريثما أتيك بالحبل

يصرخ ياسر .. يستغيث ..

لايسمع صوته سوى الاعداء .. والاشجار .. والارض .. والسماء.

يرفسهم بقدميه الضئيلتين .. بيديه الصغيرتين قبل أن تنظويا تحت الحبل الغليظ كنبتة طرية غضة . تتردد في جنبات الوادي صرخته :

يمه .. يماه .. يمه ..

لكمه احدهم بقبضة يده الثقيلة . اصابت الضربة عينه . تطاير منها شرر كقوس قزح ، ثم أظلمت عينه على ضوء احمر . توالت الضربات بالايدي والاقدام على جسده الغض ، الى أن وقع مغشيا عليه .

تشاوروا بعد أن تأكدوا من أنه لا يمثل . وانما هو مغشي عليه فعلا. بحثوا في حقيبة دفاتره علهم يعثرون على مقلاع أو حجر .

اياخذونه ، على تلك الحال ، وقد لوثت الدماء وجهه ، وقميصه ، وبنطاله القصير ، وفردة حذائه الباقية في احدى قدميه ..؟

ارتأوا اخيرا ، وبعد (المداولة) أن يشنقوه . وبذلك هزم اقتراح ذاك الذي ارتأى أن يصلبوه تيمناً بما فعل الاسلاف بالمسيح ابن مريم . والاقتراح الاخر الذي حبذ رجمه بالحجارة حتى الموت .. !

عزز صاحب اقتراح الشنق رايه بأن ضرب مثلا بما كان الرفاق الأمريكيون يفعلون بالهنود الحمر ، فالوضع مماثل تماما ..!

لف احدهم الحبل على عنقه . حمله بمعاونة اخر كنعجة ذبيحة . ربطاه الى جذع شجرة أولا .

قال واحد منهم :

ـ وما جدوى ان تشنقه وهو مغشي عليه ..؟ الا يجب ان يحس بما نفعل .. ؟

رد شيمون :

ـ بلى .. بلى يازخاروف .. اراؤك صائبة دوما .

اقترب منه اخر :

ـ غرز سيجارته المشتعلة في وجنته ..

صفعه ثالث ..

ركله الرابع بقدمه في احشائه ..

بال الخامس عليه ، وهو يطلق ضحكة فاجرة ، ثم يهتف قائلا :

ـ سيصحو الان .. !

* * *

صحا ياسر مترنحا .

نظر حوله كمن يصحو للتو من كابوس مرعب . ثم لا يلبث أن يعي أن ذلك لم يكن حلما .

يضج الهلع في صدره مريعا . ينظر بعينه الباقية ، غير مصدق بأن هذا يحدث له . يحرك لسانه . حجر مستقر في حلقه . عاجز حتى عن الصراخ ..

.. فرحوا بذلك أيما فرح .

.. هاهو قد صحا ذلك الزنديق .. !

.. فليستمتع اذا بالشنق ..!

.. فليعرف ذووه ماذا سيحل بهم غدا ..

.. هذا يجعلهم يسارعون الى الرحيل بلا تردد ، كما حدث في تلك القرية . ما اسمها باأوغاد ..!؟

ــ دير ياسين

ــ يرحلوا اذن قبل ان يحل بهم ذلك

ــ ويحظون عندئذ ، بحقوق الانسان في الهجرة ..!

حين ايقنوا ان (الولد العربي) عاد الى وعيه ، وانه يحس ويتألم .. ويتعذب تماما كما يحبون ويشتهون ، قرروا شنقه على تلك الشجرة ، دون ابطاء . متأسين (هكذا اعلنوا) بما كان يفعله قدماؤهم بالانكليز في سالف الزمان .

لفوا الحبل حول عنقّ الصبي حين جمده الرعب واليأس من احتمال انقاذه من قبل احد ما ، فلم يعد يبدي حراكا ولا صراخا .

همدت اوصاله . غارت عينه الباقية . شحب لونه كليمونة جافة . يلوح طيف امه امامه . تنهمر دموعه في صمت .

حمله اثنان منهم الى أعلى ..

ربط اثنان اخران الطرف الآخر للحبل باحكام في أغلظ غصن لشجرة الزيتون العتيقة ..

ثم تركاه يهوي في الفراغ ..

صفقوا .. وهتفوا بنشيد هاتكفاه ..! هاتكفاه

امتطوا عربتهم السوداء ، وانطلقوا عائدين تملأ اعطافهم البهجة ..!

جسد ياسر يترجح على الغصن .. والشجرة تهتز .. تضطرب حزنا .. والسماء تذرف دموعا سخية تغسل بها الجسد اليافع ..

★ ★ ★

ابـــداع

قصة

معها في مساء ماطر

حسن حميد

- ١ -

عيناي غائرتان ، تجولان في وجهي الناحل دون جدوى . افقي معتم تماما . قدماي لا تبصران طريقي بوضوح . الكآبة تخنقني . حالات الماضي تبعثر لحظات صفائي . أبحث عن أيامي ، وساعاتي الرائقات .. فلا أجد . أبداً لكأنما المدينة صبّت مرارها فيّ !

حسن حميد : اديب وقاص من سورية ، يكتب القصة القصيرة ، ينشر في العديد من الدوريات ، أمين تحرير جريدة الاسبوع الادبي .

- ٢ -

إنا خميس الشايب من قرية (الفوارة) . قدمان الحزن ، وكفنان الخيبة . والليلة رأس السنة الجديدة . اريد الاغتسال .. من أوجاعي ، وعثراتي الماضية، اريد ان افرح .. لكن الفرح لا يقاربني . كثيراً ما اناديه ؛ ارجوه ان يبدو لي (ولو) مرة واحدة .. لاشكو له مرار ايامي وأحزاني .. الدائمة . اتصوره انثى ، فاتودد لمن هن حولي .. لحظات فقط واصد" . احسبه ضوءاً من اضواء المدينة ، وما اكثرها ، اقترب منها .. فتبدو معايبي ؛ بل ياخذني خيالي الى ان اظنه .. الاخلاص في العمل والاجتهاد عليه ، اسعى الى ذلك .. فاوصف بـ (دب الشغل) .

محاولات ، ونداءات ، وانتظارات .. رمدت روحي .

- ٣ -

هي ذي امسية آخر يوم من ايام السنة تذوي بين يدي" . فالليلة تمضي سنة وتاتي اخرى .. والدنيا ستموج بالناس، والفرح ، والامنيات .. وانا طي" وحدتي واماني .. الباردة !

قبل قليل فقط كنت اسمع رفاقي في العمل يتحدثون عن طقوس السهر ، وماأعدوه لها ، ومع من سيسهرون ، واين ؟ ومامن احد منهم دعاني . اوحد"ثني عن هذه الليلة .. لكانني بينهم منبوذ او هكذا ابدو . كنت اتقصد ، وهم يتحدثون عن السهر ، المرور بهم ، اطلب منهم بعض الأشياء ، أو أسالهم اسئلة عابرة .. لكن دون نتيجة ، تجاهلوني تماما ، وكانني غير" موجود .

.. ومع انتهاء الدوام ، غادرت مكان عملي وحيداً تحت مطر خفيف . شاغلت نفسي ، وحدثتها بانه من الممكن للمرء ان يسهر وحيداً .. فتجيبني (وكانها ضدي) ، يسهر وحيداً .. نعم ، لكنه لا يفرح . فاغتم ! مع ذلك ، وبسبب المطر والبرد ، احاول تكريم نفسي في هذا المساء .. فالغي

فكرة مواصلة السير الى البيت مشياً ، او الركوب في الباصات وسيارات (السرفيس) ، اسعى الى مكافاة الجسد مكافاة كبيرة ، فامامي ــ هــذه الليلة ــ سهر طويل ، وقائمة طويلة من الاسى المكتوب ، والاماني المشتهاة . تروق لي الفكرة .. فاقبض على خطاي في طرف الشارع ، وانتظر سيارة اجرة فارغة . يمرّ عليّ وقت طويل وانا تحت المطر ، وما من سيارة .. كلما اهمّ ان اصل الى سيارة فارغة ، يسبقني اليها مخلوق ما ينبت امامها كالفطر . يندس فيها ويمضي .. انتظر اكثر .. فتبتلّ ملابسي ، وياخذني البرد ، وحين يطول انتظاري .. العن ساعة تفكيري بمكافاة الجسد .. فلو مشيت ــ من ساعتي لكنت الآن في غرفتي احتفل بنفـ.. على طريقتي ؛ اعدّ لها عشاء فاخر (اوقية من اللحم المفروم الناعم . وفحل بصل مفروم ناعم ايضا ، وحبة بندورة ، وثلاثة ارغفة . ساضع اللحم والبصل في الصحن القيشاني الوحيد الذي املكه ..) ولحظتئذ ، هات يا قابلية ! ساكل وكانني في احسن فنادق البلد ! لكن الآن .. ما من شيء سيرضيني ، فقد تورّم غضبي وازداد . اتمتم بأسى :

ــ « لو ذهبت الى البحر ، يا خميس ، لجفّ . دنيا بنت حرام ، تعطيها وجهك ، فتدير لك قفاها . دنيا أعجب من البراغي » .

« بعدَ الانتظار الطويل المر ، الغي فكرة ركوب السيارة . امحو المكافاة بشتيمة كبيرة . امضي في دربي الاعتيادي مشيا ، الى غرفتي بوجه محتقن ، وشفتين مطبقتين ، في البدء كدت آكل نفسي من الغيظ ، وقد اشتد المطر ، وهاجت الريح ، لكن ــ وبعد وقت قصير ــ هان مسيري وحلاحين رايت فتاة ناهدة الصدر ، طويلة ممتلئة ، تمشي بهدوء كان الرصيف تحت قدميها لوح من البللور تخاف ان .. يتوسخ . تشد الى صدرها محفظة وكتاب . يرف صدرها .. فيرتجان وجة خفيفة .. آسرة . تسير ــ قربي ــ تحت المطر غير عابئةبالناس ، والبرودة ، والريح اللعوب . تمشي فتنسحب معها الارصفة ، والشوارع ، والمحال ، واشجار الطريق .. توازيها للتحية ، وللمراى الجميل . يعجبني ثبات خطوها ، واحسدها على تمتعها بالمطر . تروق لي الفتاة فاطوي ببصري بداية الشارع على

نهايته .. لارى ان كنت وحيدا قربها أم لا . الحظ انشغال الناس بانفسهم ، وقد اشعل المطر في اجسادهم الحركة ، بدوا يتراكضون ويتناثرون هنا وهناك ، وما من احد منهم مهتم بالاخر . اقترب من الفتاة وانظر اليها اسبقها بخطوات وانظر اليها أتخلف عنها واتفحصها . انثى كالنخلة طويلة وممتلئة ، ومطمئنة . تبدو لي وكأنها سارت طويلا تحت المطر .. فثيابها مبتلة تماما ، وشعرها هامد ؛ كف عن ابداء وجهها ورقبتها واخفائهما . بدت كأنها خارجة لتوها من البحر ، وقد خلت اليه بتمام قيافتها . اقترب منها ناويا أن الاطفها بكلمة ، اجس (نبضها) فاتردد كثيرا ، أو اسألها ان كانت بحاجة الى خدمة ما ، فلا أتجاسر ، لكن — معمرور الوقت — تلح الفكرة علي اقترب منها اكثر . تلحظ هي اقترابي منها وابتعادي عنها ، فترامقني مرات عدة ، ثم الحظها ترامقني وتبتسم . تمتلىء الروح برغبتها . ادنو لمحادثتها كطفل ، وانا أتمنى من الله أن يمن علي بوقت طيب معها .. إن حدث ذلك .. سأكتب تاريخ هذه الليلة على باب قلبي : ادنو اكثر . اهمس بحجة :

— « مساء الخير »

فتجيب دون تردد .

— « مساء الخير »

أتلعثم بالاعتذار ، وسؤالي إن كانت بحاجة الى مساعدة . فتهز راسها نافية (ينقبض قلبي) فاكف عن الحديث . تسالني دون توقع مني :

— « الى أين » ؟

فاجيبها بحرارة :

— « لقد تركت دوامي المسائي منذ قليل »

— « لكي تسهر » ؟

— « لا .. فانا وحيد » .

تقول بعذوبة ، وقد صمتت قليلا :

ــ « ترافقني الى مكان سهري » !

فاراوغ قائلا :

ــ « قد ازعجك »

فتهز راسها نافية . (نفي لا اجمل ولا ارق) ! انسى نفسي قليلا لاشكر الله الذي استجاب لدعوتي . ففي هذه الليلة سأجد لراسي صدرا دافئا ، وفوقه سأبوح بكل احزاني ، ساقول لها ــ مصارحة ــ ان المدينة عذبتني ، واكلت قدميَّ ، وان العيش فيها ضمور لا امتداد ، وانها لم تكن سلماً ــ كما قيل لي ــ له بداية ونهاية ، وان سنوات الحياة فيها درجات .. سنة تقود الى سنة ، حتى اصل الى القمة . ساصارحها باشياء كثيرة . لمَ العجلة ؟!

امشي .. فاوازي الفتاة في مسيري . دون ان اهتم بما هو حولي من اشياء ، واصوات ، والوان . احاول ــ قدر استطاعتي ــ كتم صوت حذائي . وارجو الله ان يكون وجهي ــ الذي دعكته في غفلة من الفتاة مرات عدة ــ لامعاً مثل وجهها . اتاسف لها لان المطر بلل ثيابها وشعرها .. فتبتسم . (انتظرها لتتاسف لي .. لان المطر بللني ايضا ، لكن انتظاري يطول) . احفث بها مصادفة .. فاضطرب واجرض بريقي . اسمعها تقول بصوت هادىء انها قررت ان تفاجىء اصحابها الساهرين بمنظرها المبلول ، فابتسم وانا انتهز فرصة التمعن بجسدها الذي بدت مفاتنه ، بعدما لصقت الثياب عليه . بدا وجهها الواسع الطويل لامعا متوردا .. كان الدموع غسلته للتو . تقول لي :

ــ « سنفرح هذه الليلة اكثر من كل الليالي الماضية » .

فاتمتم لها :

ــ « هذه الليلة جديرة بالفرح » .

(لماذا .. لمخلوق مثلي ، لست ادري) ؟!

تحدثني عن وحدتها مع والديها ، وانها عاتبة عليهما جداً لانهما تركاها بلا أخ او اخت ، وان حيرتها كبيرة دائما لانها لا تعرف كيف تقضي اوقات فراغها . وأحدثها عن قريتي والحياة فيها ، وكيف كنت اظن ان شهادة الجامعة (حجاب) من الفقر ، والخوف ، والاماكن العالية ، والتردد ، والسقوط . (حجاب) سيمحو صفرة لوني ، وعثراتي ، وماضيَّ ، (حجاب) سيأخذني الى صدر اتمناه ، ودرب اشتهيه وقد طاردته طويلا . كنت اظنها دنيا ، فسعيت اليها . (بهدلتني) المطاعم ليلا وانا اغسل صحون روادها .. فتحملت . وعذبتني نهارات الدراسة ، فصبرت . ولم افطن الى انني حين كنت اتقدم في الدراسة سنة بعد سنة ان الدنيا تقدمت كثيرا . وحين حصلت على الشهادة انقلب السحر على الساحر .. فلا همومي ولت ، ولا دفئي المرغوب .. دنا .

تقول باندفاع شديد : « إن الشهادة صفر ، وما عادت تفيد بشيء »! فاوافقها !

وتضيف بانها لذلك ـ ضحت برغبتها في دراسة الادب الفرنسي ، ودخلت الجامعة لتدرس الحقوق كما احبت امها .

أؤمن على كلامها ، واظل طيَّ صمتي ؟ ام انشر ما في القلب من غصّات ؟ اتردد قليلا ، فتجتاحني ـ رغما عني ـ كآبة اعرفها جيدا . اسمعها ـ بعد صمت قصير ـ تتحدث عن والديها الرائعين اللذين ذهبا الى سهرتين مختلفتين . فاود ان اقول لها إن اهلي ، الآن ، نيام في هجعة واحدة كعش من (الدبابير) ... حلاوة الليل عندهم ... هي انه هدنة مع الحياة ليس اكثر !

اسألها ، وقد مضى علينا وقت طويل ونحن نمشي :

ـ « أما اقترنا » ؟!

فتجيب :

ـ « بلى ، لكنني اقترح عليك ان نتسكع في الشوارع حتى ما قبيل منتصف الليل بقليل ، ما قولك » ؟!

فاغمغم ، وقد حننت لمجالستها وملامستها ، كأنني اعرفها منـذ زمن طويل .

ـ « لكن الدنيا .. مطر ، وبرد ، وانت رقيقة » !

فتهمس :

ـ « لا عليك »

وتعود لمحادثتي . تقص عليّ اخبار عشاقها الذين تركتهم لأنهم غير جديرين بحبها . وتمـد امامي طقوس هواياتها ، وصفـات صديقاتها وما حدث لهن مع اصـدقائهن ، وتكشف لي عن احلامها في السفر . ولكي تسايرني ـ وقد استمعت اليها طويلا ـ تسألني عن الواني المفضلة ، فأقول :

ـ « الاحمر . الاخضر .. »

فتهز راسها مستغربة ، لتقول :

ـ « الالوان الاحلى هي الموف ، والسكلما .. »

وهكذا ظللنا ! حديث ياخذنا الى حديث ، وشارع الى شارع الى آخر الى ان انفقنا وقتا طويلا جدا حتى اقتربنا من منتصف الليل (الذي حسبته لن ياتي !) . لحظتئذ ، قالت :

ـ « هيا ، لقد تعبنا » !

فانطلقنا باندفاع بادٍ . كنت امني النفس بأن ارتوي من رؤيتها تحت اضواء مبهرة ، داخل بيت دافيء . سأنزع عنها ثيابها قطعة قطعة . وسأمنحها كل الدفء الذي اختزنته الروح لأنثى حقيقية . سأنشف شعرها ووجهها بخفيف انفاسي ، وسوف .. ! كانت صامتة ، مستمتعة بوقع اقدامنا ، وصوت تساقط المطر .. لا بد انها ـ هي ايضا ـ تفكر كيف ستنفرج قلبي ، وكيف ستجعل من ليلتي هذه .. ليلة لا شبيه لها . سأساعدها كثيرا .. سأمحو عنادي وترددي ، واكون بين يديها لينا طيّعا . سالبي رغباتها كلها ، وسأجعلها توقن تماما بأن ابناء القرى جديرون بالمحبة ايضا . احسُّ نفسي وأشجعها .. بأن هذه الليلة ليلتي، وفيها لا فرق ابدا ما بين الوقوف والانحناء . (يبدو انني سأعرف الفرح .. أخيرا) !!.

بغتة ، تنقطع احلامي دونما تنبيه حين تقف رفيقتي امام باب خشبي عال ، مزين بالنقوش والرسوم .. فاقف . تقابلني ـ لاول مرة ـ وجها لوجه ، وقد حضنت صدرها بذراعيها ، وشدت عليه . تقول :

ـ « لقد وصلت . هذا هو البيت »

فاقول لها ، وانا ابتسم :

ـ « اخيرا .. ، فقد كان مسيرا استثنائيا » !

توافقني . تزم شفتيها على ابتسامة ناحلة ، وتهز رأسها بعزم ، ثم تتمايل امامي بهدوء ، وترمش بعينيها ، ثم تقول :

ـ « اشكرك على كل شيء . وأرجو لك ليلة طيبة ، وعاما طيبا .. ايضا » .

سقط قلبي او كاد !.. فهي تودعني !.. بعد كل هذا المسير ، وكل هذا الحديث تودعني ! (اعتقدت انني وإياها .. كنا ننشر عتبات صغيرة وكبيرة هنا وهناك .. حتى إن خلونا ، تكون الروح قد عرفت الروح وتلاقت إليها إنها تودعني ، تبدد احلام ساعات طويلة ، احلام عمر بحاله. تمد حياتي بكآبة اضافية ، واحباط جديد (وهل ينقصني !!) . اخطو نحوها . احاول ان اقول لها شيئا ، ان اشرح موقفي ، وابين لها انها إن تركتني الآن .. سأرد باب الحياة عليّ .. وانتهي ، سأحاول ان ..!! لكنها استدارت دون أن تسمع كلمة واحدة . دون ان تواعدني لمرة قادمة . فتحت الباب ودخلت ! وخلفها .. صر الباب ثانية وانغلق ،.. فانغلقت الروح على ما فيها وانطوت) .

.. مع ذلك ، وقبل ان يخدر الجسد في وقفته ، جررت خطاي نحو غرفتي . فما زال لدي هناك جارتي العجوز التي تنتظرني كانني ابنها الوحيد وكتبي ، وزهور الإقحوان(*) ، وفراشي ، وعشاء عامي .. الأخير !!

(*) زهرة معروفة جدا في اريافنا . قرصية الشكل . صفراء اللون . ترمز الى وحدة المشاعر في الحب والتعبير .

آفاق المعرفة

الأشكال الأولى للنقود

كمعادل عام
وتطوره في الشرق الأدنى القديم

عدنان سوسو

الإنسان العاقل

«نتاج جانبي»
من نتاجات الطبيعة؟

فيسفولود فيلتشيك
ترجمة:
ثائر ديب

العقد الفريد

هيفاء رزق

نافذة على العالم

ترجمة وإعداد:
كمال فوزي الشرابي

علم النفس الضمني:

ثمرة اطلاع وجهد

ميخائيل عيد

الأشكال الأولى للنقود

كمعادل عام

وتطوره في الشرق الأدنى القديم

عدنان سوسو

منذ العصور السحيقة في القدم ، اي منذ قرابة مليون سنة ، كان الانسان البدائي كائنا ضعيفا امام قوى الطبيعة المختلفة .

هذا الكائن البدائي ـ من اجل الحفاظ على استمراريته ـ ، كان عليه ان يسعى جاهدا لصب امكاناته مجتمعة ، بغية الحصول على حاجاته الغذائية من جهة ، والعمل للحيلولة دون تعرضه لكارثة من جهة أخرى .

عدنان سوسو : باحث من سورية ، له عدد من الدراسات ، يهتم بالدراسات الاقتصادية والاجتماعية في مجال التراث العربي الاسلامي .

وما من شك في ان الطبيعة كانت بحد ذاتها قاعدة ومجالا كبيرا وأساسيا لنهوضه ، وحاضنا له في تطوره التاريخي . يقول فاديم مجييف بهذا الصدد : (الانسان هو جزء من الطبيعة ، ويخصها ليس لأنه ثمرة مباشرة لتطورها فحسب ، بل لأنه بحاجة اليها باستمرار متزايد ، وكأنها المرجع الضروري لوجوده)(١) .

فالجماعات البدائية ، ومن خلال تواجدها هنا وهناك كانت تمضي جل وقتها تسعى جاهدة لتأمين قوتها اليومي الذي وان حققته فهو ــ بالتأكيد ــ من خلال مقولة العمل ، ولا بد من اجل تجذير هذه المقولة ، من استعمال بعض من الأدوات والوسائل المساعدة كالبلطة الحجرية أو السكين الحجري، أو العصا الخ . . . اذا فالانسان البدائي كان بممارسته ونشاطه الدؤوب وكدحه المستمر المضني لا يعيد انتاج نفسه فحسب وانما حياة الآخرين الذين يدورون في فلكه من أبناء عشيرته وجيرانها ، حيث تتميز تلك العلاقات بجوهرها العام بالحيازة والتوزيع للمنتوجات بالشكل الجماعي ، أي على افراد العشيرة الواحدة جميعهم .

هكذا ، وعبر مراحل التطور التاريخي ، وصراع الانسان مع الطبيعة وعمله الشاق لتلبية ضروريانه ، تمكن من اكتشاف النار التي لبت الكثير من الامور والحاجات النوعية ، وكذلك استطاع وعبر تطوره ، وما عاناه من أساليب الدفاع عن نفسه ضد مخاطر الطبيعة ، أن يخترع القوس والنشاب الذي كان يشكل ثورة بحد ذاته ، هذا وغيره من الوسائل والادوات المشكلة لقوى منتجة متطورة ، كانت قد حدثت بالتأكيد الى مرحلة اكثر تطورا ، تجلت بحدوث اول تقسيم كبير للعمل الاجتماعي وذلك بانفصال تربية الماشية عن الزراعة ، فالجماعات البدائية أو البعض منها ، كانت تقوم بعملية تدجين للحيوانات ، للاستفادة منها على نطاق ضيق ، وقد تطور المنحى واتسع عند هذه المجموعة أو تلك ، حيث أخذ الرعاة يقومون على تربيتها ، مشكلين بذلك فرعا انتاجيا يقدمون من

(١) الحضارة والتاريخ ــ فاديم مجييف ــ دار التقدم ــ موسكو عام ١٩٨٠ ــ ص ١٥٤ .

خلاله الجلود واللحوم والصوف والحليب . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، كان هناك من يرعى شؤون الزراعة ، بالتالي تكونت المنتجات المختلفة والمتنوعة .

من المفيد القول : ان كلا من مصدري الانتاج يكملان بعضهما الآخر ، في اطار علاقات الانتاج البدائية ، ومن الجدير ذكره ان طبيعة الحيازة المشتركة لوسائل وادوات العمل ، وكذلك الجهود الجماعية التي تصرف في عملية الانتاج ، والتي سادت بحكم سنن التطور التدريجي ، والحاجة الملحة للانسان ، كانت تعتمد على العمل الجماعي ، من خلال تعاون افراد العشيرة الواحدة ، نظرا لعدم فعالية وجدوى العمل الفردي آنذاك . اما هذه المنتوجات ، فكانت توزع على كافة اعضاء الجماعة في العشيرة ، اضافة الى ذلك كان أعوان العشيرة ، هم الذين يتولون مبادلة المنتوج من القمح أو الشعير ، مع ما تنتجه عشيرة اخرى بما يرونه مناسبا لكل منهمـا .

هذا ما يسمى بالشكل الأولي لعملية التبادل بين الجماعات البدائية حيث كانت الخراف تلعب بوجه عام دورا جوهريا كمعادل عام لمجموعة منتجات ، بيد أن هذا الشكل المعين من التبادل لم يكتب له الاستمرار ، بفعل تراكم المنتوجات وتعددها من حيث النوع ، مما افسح المجال لتراكم صعوبات كثيرة في عملية التبادل .

اذا بقيت الامور معلقة على هذه الشاكلة فترة طويلة من الزمن ، الى حين اكتشاف المعادن ، بدءا من النحاس ، حتى دخول عصر البرونز واكتشاف الفضة والذهب ثم الحديد فيما بعد ، وتخطر هنا عدة اسئلة من أهمها كيف كانت الحال منذ فجر التاريخ في بلاد سومر ؟ وكيف تطورت عبر حضارات الشرق الادنى القديم ؟.

الانطلاقة الأولى كانت عند السومريين :

كان السومريون قد تواجدوا وتجمعوا ، في مناطق عند راس الخليج العربي منذ فجر التاريخ ، حيث مارسوا وجودهم الاجتماعي وعلاقاتهم

على حد سواء ، وتفاعلوا مع واقعهم الجغرافي المعين فزرعوا وحصدوا وأقاموا القنوات للاستفادة من المياه ، كذلك عرفوا صناعة المعادن لا سيما النحاس منها ، وكانت مصادره حسب ما يؤكد « بارو » من آسيا الصغرى وارمينيا وعيلام وعمان وقبرص ، وكذلك عرفوا معادن أخرى ، يقول برستد : (وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضا تماثيل للمعبودات ، والى جانب النحاس توصلوا أيضا الى معرفة الذهب والفضة والرصاص)(١) .

من الطبيعي ان هذه المعادن النادرة ، اضافة الى الاخشاب في بلاد الرافدين كان قد تم الحصول عليهما عن طريق التبادل التجاري ، حيث كان المعبد في بلاد سومر يشكل ادارة الكهنة مركز الانتاج الرئيسي ، فقد كان يوجه القوافل التجارية المزودة بالقمح والبلح وغير ذلك من المصنوعات ليتم الحصول بالمقابل على المعادن من المناطق المجاورة .

وتجدر الاشارة الى ان السومريين ، كانوا قد اتبعوا الاساليب القديمة لتبادل منتوجاتهم مع غيرهم رغم معرفتهم المعادن ، ودخولهم مرحلة التقسيم الاولى للمجتمع بل والثانية ايضا ، والتي قامت على انفصال الحرفة عن العمل الزراعي ، وهذا بدوره أدى الى نشوء نقابات حرفية ناظمة لانتاجهم ومصنوعاتهم ، ومنها التحف وغيرها من الاشياء الاخرى التي دخلت ميدان التجارة السومرية .

اضافة الى ذلك فان حصيلة انفصال الحرفة عن العمل الزراعي ، وتعرف السومريين على المعادن كانا نتيجة لما تحقق من نجاحات وتطور في هذا المضمار . كما كان حافزا لعملية الانتاج الاجتماعية آنذاك . الا أن هناك شيئا يجدر التوقف عنده ، الا وهو مكانة الماشية وتدجينها ، التي اصبحت مميزة منذ فجر التاريخ في سومر ، اي قرابة ٣٨٠٠ ق.م بعد ان ارتبطت بالهالة الدينية المقدسة بالربه عشتار التي تمثل قمة

(١) انتصار الحضارة — هنري بريستد — طبعة عام ١٩٦٢ — ترجمة د. احمد فخري ص ١٥٩ .

نظام الامومة ، في بلاد الرافدين ، وهذا ما دفع الكثير من الباحثين الى الدراسة والتحليل والتأويل والدوران في اطار فكرة السمو والنبل ، فلناخذ مثلا على ذلك الكاتبة « إلزة زايبرت » حيث تقول : (من اهم واجبات الراعي الطبيعية ؛ بصفته المسؤول عن حياة الماشية تامين المرعى الخصب ومصادر المياه ، وابعاد الحيوانات المفترسة المتربصة بها من كل جانب ، وقد ارتبط هـذا العمل منذ البدء بفكرة السمـو والنبل، حيث انه يحمل في ثناياه صفات معنوية أخرى يمكن أن نترجمها الى مفاهيم أكثر دقة كالحنان والأمان والسلام(١) .

واذ لاتكتفي الباحثة « إلزه زايبرت » بهذا الطرح ، فهي تشير الى هذا الموضوع في اكثر من موقع في مؤلفها « رمز الراعي في بلاد الرافدين » وكأنها تريد أن تقول كخلاصة : ان جملة الملوك والحكام بدءا من الاله الراعي الملك دموزي مرورا بالآلهة الأخرى مثل الاله الراعي الملك « جوديا » وكذلك الاله الراعي الملك « أورنامو » وغيرهما ، لم تكن سلطتهم سوى حق الهي مكتسب ، اي لا مجال لرد اوامرهم او مناقشتها اطلاقا لا بل على الاتباع الخنوع والانضواء تحت راية هذا الاله . تقول الباحثة : (وقد استطاع الراعي ان يحل مكان الحيوان الرائد الذي يترأس جموع الماشية ، ثم ما لبث الملك أن انتزع الريادة من الراعي ليقود البشر عوضا عن الحيوانات . فالملك والراعي مسميان لمسمى واحد هو قيادة القطيع سواء أكان هذا القطيع من البشر او الحيوان(٢) .

اذن يصبح الامر واضحا من حيث المحتوى والاصطلاح الرمزي كتمثل الملك الراعي ، اي أن مداخلات مبحث الراعي في اطار الملكية في بلاد الرافدين لا تتعدى كونها قياسا اتخذه الآلهة والملوك السومريون وغير السومريين كتجسيد لممارسة سلطتهم الملكية ، وكتسويغ لهـذه الفكرة شكلا ومضمونا من اجل تعميق جذورهم بأمان واطمئنان . ومع

(١) رمز الراعي في بلاد الرافدين ونشوء فكرة السلطة الملكية ــ الزه زايبرت ترجمة محمد وحيد خياطة ــ الطبعة الاولى عام ١٩٨٨ دار العربي للطباعة والنشر ص ١٠.

(٢) ذات المصدر السابق ص ــ ٢٥ ــ ٢٦ .

ذلك فان قصة الراعي وقطيع الماشية لم تأخذ المسار المادي في التفسير لا عند الباحثة « إلزة زايبرت » في مؤلفها المذكور آنفا فقط ولا في اكثر الدراسات نخص منها أبحاث الراعي لدى الاستاذ مورتكات في مؤلفه « تموز » وفان بورن وفرانكفورت وغيرهم .

فالحديث والحوار هنا يقومان حول الاله الراعي الملك دموزي . والاستفهام يطرح نفسه كيف كتب لهذا الموضوع الاستمرار واكتساب المكانة المقدسة اضافة الى انتشاره في كثير من ادب وملاحم وفنون الرافدين ، لا سيما منها الأختام الاسطوانية ودمغاتها التي اكتشفها علم الآثار ؟

من الجدير ذكره ، أن الإله الراعي الملك « دموزي » لم يستمر عبر فترات التاريخ الرافدي ضمن نفس الأطر الخارجية للاله الراعي وحيثياته فهو قد تجلى فيما بعد مثلا في « شجرة الحياة » التي اكتسبت قدسية دينية أكثر من ذي قبل ومن ثم في شخصية « حامي القطيع » كشخصية جلجامش الذائعة الصيت ، وكذلك « قاهر الحيوان » الخ .

هذا ورغم التحول في الشكل ، فان مجمل هذه الاشكال بقيت تجليا لمضمون واحد ، الا وهو الاله الراعي الملكي دموزي الحاكم القوي المقدس .. الى ما هنالك .

هنا يحضرني سؤال مفاده هل لامست هذه او تلك من دراسات موضوع الاله الراعي الملك دموزي عمق الواقع الاجتماعي من الناحية المادية ؟

وللاجابة بشيء من الايجاز ، كضرورة عملية في البحث الذي نحن بصدده ، نرى لزاما علينا القول : إن بوادر تفسخ المشاعات العشائرية البدائية السومرية كان دون شك ، مرتبطا بالنشاطات الانتاجية لافراد العشيرة الواحدة ، بمنتوج معين ، مثلا : البلح والحبوب الى غير ذلك . كذلك كانت الحال قائمة عند عشيرة سومرية مجاورة اهتمت هي الاخرى

بتربية الماشية ، وعملت على الاستفادة من صوفها ولحمها الخ .. اي ترتب ما يسمى عملية فائض هذه المنتوجات التي لا تنفصل بحد ذاتها عن عامل الحاجة الضرورية لافراد العشيرتين ، الى يقوما باجراء التبادل والمقايضة ، حيث تركز الاسلوب البسيط البدائي في عملية التبادل الاولى في التاريخ ، وهنا اخذت الخراف تلعب دور المعادل العام لكثير من المنتوجات ، واتسع تواجدها وسيطرتها تدريجيا في نطاق العشائر البدائية حيث استمر هذا الاسلوب في بلاد الرافدين ، لا سيما وانه كان مبكرا في الجنوب الرافدي ، الى حين قيام التقسيم الثاني الكبير للمجتمع الذي كان بدء دخول ومعرفة السومريين للنحاس والبرونز والرصاص وغيرها من المعادن . وهنا بالتحديد بدات تبرز اهمية الماشية والراعي على حد سواء عند السومريين انطلاقا من الدور الذي لعبته هذه الخراف كمعادل عام للمنتوجات البضاعية انذاك وهنا نستطيع القول : ان رمزية واهمية الراعي كان نتيجة للمكانة التي تبواها ، حيث أنه لم يعد الحامي لهذ القطيع والخراف التي لعبت فعلا دور النقد ، ان لم نقل بما يوازي النقد الذهبي حسب التعبير المعاصر عن القيم المختلفة للبضاعة ، تقول : مجموعة من الاساتذة السوفييت في هذا الصدد : (ان انتشار تربية الماشية نتيجة التقسيم الاجتماعي الاول للعمل أدى الى ان الماشية لم تعد تظهر في السوق صدفة ، بل بشكل نظامي لتبادل لقاء سلع اخرى ، واصبحت الماشية تنتج مبدئيا كسلع ، واصبحت الفاس او القهوة او القمح او الملح وغير ذلك من السلع يعبر الآن عن قيمة الماشية، وتبرز تحت شكل معادل. ان الماشية هي التي تبرز اساسا في الشكل النسبي للقيمة. واصبحت السلع المنفردة التي تبادل لقاءها الماشية ، تبرز أمام هذه لا كمعادل عرضي لان كلا من هذه السلع يتبدى كمعادل خاص أي كواحد من بين الكثير مما تعادل بهم الماشية)(١) .

(١) الاقتصاد السياسي ج ١ – نخبة من الاساتذة السوفيت – ترجمة د. بدر الدين السباعي ، اصدار دار الجماهير عام ١٩٦٦ – ص – ٢٣٠ – ٢٣٢ .

كل هذا بقي بعيدا عن الغوص سميقا في هذه المقولة الاقتصادية ولكي لا نخرج عن موضوعنا الاساسي نرجع بأن تمثل السومري للاله الحاكم الملك الراعي « دموزي » لا يخرج عن هذا النطاق ، اذا شئنا التحليل العلمي ، الذي هو بحد ذاته يشكل المضمون الاساسي والمادي في اسطورة الاله الراعي دموزي .

فعبر التطور التاريخي استمد الراعي مكانة اخذت تتنامى كرمز بمصطلحاته وحيثياته المختلفة وكيانه العام : مثل عصابة الراس واللباس والعصا ومختلف الاشكال ، حيث اكتسبت بكليتها رموزا مقدسة اكثر انتشارا في الطقوس السومرية المقدسة ، بل وبين شعوب و حضارات الرافدين عموما .

لذا فان زخم تواجد الاختام الاسطوانية وطبعاتها في الرافدين والتي تدور بمختلف موضوعاتها حول الاله الراعي والماشية وحيثياته الاخرى لم تنطلق قطعا الا من مدى اهمية تلك الخراف والماشية المدجنة باعتبارها تشكل الرصيد النقدي للسلطة الملكية ، ايا كان امرها ، وذلك كمعادل عام للبضاعة المعمول بها وقتئذ ، ومن الجدير بالذكر ان تلك القداسة التي احيط بها الملك الاله الراعي في بلاد الرافدين ، لم تتخذ كمصطلح هكذا وبشكل عشوائي ، وانما هي نابعة من بعد مادي ، نال عبر التطور التاريخي القدسية والرمزية بدرجات متفاوتة في حضارات الشرق الادنى القديم .

دور الاوزان كمعيار قيمي

للبضاعة في الشرق الادنى القديم

لقد وردت كلمة « زوبارو » في السومرية من خلال الكشوفات والتنقيبات الاثرية ، وتفيد معنى البرونز ، كذلك وردت كلمة « أرودو » وتعني النحاس كما وردت كلمة « انكو » وتعني الرصاص وغيرها من المفردات الاخرى هنا وهناك ، التي تم التوصل الى معرفتها ، كالذهب

والفضة وغيرهما من المعادن مما يؤكد على ان شعوب وحضارات الرافدين ، كانت قد عرفت الكثير من المعادن ، لا سيما الحديد فيما بعد والذي كان اكتشافه فتحا وتطورا كبيرا في العلاقات الاجتماعية التي تمخضت عن علاقات انتاج معينة ، ازدهرت باستعمال ادوات ووسائل عمل جديدة من المعادن ، حيث اخذت تحل تدريجيا مكان الاداةالحجرية رغم عدم انقطاع تواجدها في اماكن متفرقة .

هذا وفي خضم تعقد العلاقات الاجتماعية وتراكمها ، بحكم اسلوب انتاجها المادي الجديد ، فقد لعبت المربانات وطقوسها دورا كبيرا في ترسيخ الملكية والحيازات الخاصة الناشئة هنا وهناك . وقد دعمت الظروف والعوامل الموضوعية القادة العسكريين والكهنة وشيوخ العشائر ، فشغلوا مراكز عمل تهيات لهم بفعل التطور التاريخي الجديد .

فالشروط الفاعلة في تطور المجتمع الرافدي تتصف بأشكال مختلفة تميزت جوهريا بنمط آسيوي ، وحيث دخل هذا المجتمع عتبة التاريخ القائم على نشوء الطبقات .

وهكذا فان استخدام وسائل عمل جديدة ، كاداة الحراثة مثلا ، كان له الدور الكبير في دعم الانتاج الزراعي المتطورالذي عرفته بلادالرافدين خاصة بشكل مبكر في القسم «الجنوبي» منها ، حيث تراكمت المنتوجات واصبحت بحكم الضرورة ، أمرا ملحا ، لدخولها عملية التبادل والسؤال هنا ما هي تلك الاشكال التي سهلت هذه العملية ، ولعبت دور النقد في الشرق الادنى القديم .

ليس هناك ادنى شك بوجود مجموعة من الآراء لعديد من الباحثين وعلماء التاريخ تؤكد على أن هذه الشعوب ـــ اي شعوب الشرق الادنى القديم ـــ لم تعرف النقود ، رغم انها أفاضت بتعاملها التجاري ، مع الحضارات المجاورة ، حيث تعاملوا بالفائدة فيما بينهم ومع غيرهم ، كما ورد في كثير من المواد القانونية التي شرعتها هذه الحضارات .

ومن بين هـؤلاء العلماء والبحاثة ، المؤرخ جيمس بريستد ، ول ديورانت ، وهنري فرانكفورت وكذلك البروفسور الفونسوا آكي،وغيرهم .

وهنا نتساءل مرة أخرى : ماهي الوحدة المتخذة للقياس كمعادل عام حين تبادل البضاعة فيما بينهم ؟

والجواب باختصار : لابد أن شعوب الشرق الادنى القديم استخدمت ما يسمى المينا MAN-NA في السومرية و « مانو » MAN-NU في الآكادية حيث استخدمت كوحدة للقياس الوزني ، وهذه الوحدة الوزنية ، كانت تختلف في عدد الغرامات المحتواة بين هذه الجهة وتلك ، في اطار الشرق الادنى القديم . فمثلا وخلال الالف الثالث قبل الميلاد « المينا » على حد قول المؤرخ جيمس بريستد تزن ٦٠ شاقلا يقول : (وكانت المينا الوحدة الرئيسية للاوزان عندهم مقسومة الى ٦٠ شاقلا ووصل هذا الوزن الى أوربا ، بطريق التجارة تحت اسـم آخر هـو الليبرة)(١) .

كما أن صاحب قصة الحضارة « ديورانت » يؤكد مثله مثل غيره على استخدام السومريين للمعادن كالنحاس والقصدير والبرونز والذهب الى غير ذلك . وهو الآخر يلتقي مع سابقيه باستبعاد ونفي معرفة السومريين بسك النقد المعدني فيقول : (ولم تكن النقود قد عرفت في ذلك الوقت ، ولهذا كانت التجارة تتم عادة بطريقة المقايضة ، ولكن الذهب والفضة كانا يستعملان حتى في ذلك الزمن البعيد ، لتقدير قيمة البضائع ، وكانا يقبلان في العادة بدلا من البضائع نفسها ــ اما على هيئة سبائك وحلقات ذات قيم محدودة واما بكميات تقدر قيمتها حسب وزنها في صفقة تجارية، وكانت الطريقة الثانية اكثر الطريقتين استعمالا)(٢) .

(١) العصور القديمة ــ ترجمة داود قربان ــ مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ــ بيروت ــ عام ١٩٨٣ ــ ص ١٣٤ .

(٢) ول ديورانت ــ قصة الحضارة ــ ج٢ المجلد اول ــ ترجمة زكي نجيب بدران محمود الطبعة الخامسة ــ ص ٢٥ ــ عام ١٩٧١ .

ويلتقي المؤرخ فرانكفورت مع بريستد وديورانت في عدم معرفة السومريين بسك النقود فيقول : (وكان الكاهن والمعاون يوقعان على جميع هذه الوثائق والمعاملات ، غير ان انعدام النقد ، جعل التبسيط امرا ضروريا ، ذلك لان الحسابات كانت تسجل باستمرار عمليات التسلم والتسليم لجميع انواع البضائع والمخزونات المتنوعة ، بشكل مخصصات وتقديمات ومواد للاصلاح ، أو بضائع للتجارة ، وغيرها كثير ، من دون أن تحول الى مقياس مشترك من التقييم)(١) .

ويشير الدكتور عبد الرحمن الكيالي الى معرفة البابليين بالفائدة ، كبديل للعملة النقدية ومسكوكاتها ، نظرا لندرتها كمعدن في بلاد الرافدين بقوله : (يمكننا ادراك فكرة الفائدة من لفظة سيبتو SIBTU ومعناها الفائدة ، لان العملة النقدية عند البابليين لم تكن موجودة ، والفضة لقلتها لم تحول الى عملة مسكوكة ، ولذا جعلوا ديونهم بالحنطة والشعير وزيت السمسم والتمر والصوف ، ولكنها مواد من طبيعتها النمو والزيادة)(٢).

وما اقره الدكتور الكيالي ، بصدد الديون ومقايضتها بالحنطة والشعير وغيرهما يعد حالة من جملة الحالات ، بيد أن البابليين كانوا متقدمين في معرفتهم لوحدة القياس السائدة في الرافدين ، الا وهي « المينا » .

وخلاصة القول : ان « المينا » كوحدة رئيسية للاوزان ، كانت تساوي ستين شاقلا أما البروفسور آكي ، فيشير الى ان المثقال أي الشاقل يعادل ٧٫٧٥ غراما في بلاد الرافدين وهو يقول : (من المعلوم ان المثقال الذي يعادل ٧٫٧٥ غراما كان معروفا في بلاد الرافدين وعيلام خلال الألف الثالث ، ولقد أكدت الكميات الكبيرة من احجار اللازورد التي تم العثور

---

(١) فجر الحضارة في الشرق الادنى ـ تاليف هنري فرانكفورت ـ ترجمة ميخائيل خوري ـ نشر دار مكتب الحياة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ عام ١٩٥٠ ـ ص ٨٦ ـ .

(٢) شريعة حمورابي ـ اقدم الشرائع العالمية ـ د. عبد الرحمن الكيالي ـ مطبعة الضاد حلب ـ ص ١٢٤ ـ عام ١٩٥٨ .

عليها في ابيلا على أن المثقال نفسه كان يستخدم في العلاقات التجارية القائمة بين ابيلا والبلاد الواقعة الى الشرق منها)(٢) .

ويمكن الوصول الى استنتاج مقنع من خلال هذه وتلك من العلاقات التجارية التي كانت قائمة ، مع « ابيلا » على ان الشعوب والتجار على حد سواء ، كانوا يستخدمون الشاقل الذي كان يساوي ٧٫٧٥ غرامات .

وعموما فقد استخدمت شعوب وحضارات الرافدين « المينا » كوحدة للقياس الوزني في عملية التبادل التجاري ، وكذلك الشاقل ، وان اختلفت قيمه في الوحدة الوزنية بالنسبة « للمينا » ، والتي تراوحت فيما بين ٥٠ / الى الـ / ٦٠ / شاقلا ، كذلك الامر بالنسبة للشاقل أو المثقال ، فمن حيث وزنه كان يتارجح بين هذه النسبة أو تلك من الغرامات .

وتربنا مجموعة النظم في العلاقات الاجتماعية الرافدية التي كانمعمولا بها آنذاك ، مصداقية ما نحن بصدده بحثا وتقصيا ، من خلال المواد والتشريعات القانونية ، ففي قانون « اورنامو » الرافدي مثلا ، ورد في المادة / ٥ / من هذا القانون فقرة تقول : (اذا اغتصب رجل امة رجل آخر يجب عليه دفع خمسة شيقلا من الفضة)(١) .

كذلك ورد في قانون « لبت عشتار » نص المادتين ١٢ ـ ١٣ حيث جاء فيهما (اذا هربت أمة أو عبد الى داخل المدينة ، وثبت ان الامة او العبد اقاما في بيت رجل (آخر) لمدة شهر واحد ، فانه « أي الشخص الذي آوى الهاربين من العبيد » سيدفع عبدا بعبد . اما المادة ١٣ ـ فقد جاء فيها : (أما اذا لم يكن يملك عبدا فعليه ان يدفع شيقلا من الفضة)(٢) .

---

(٢) ابيلا ـ ترجمة قاسم طوير ـ الطبعة الاولى ـ بحث البروفسور آركي ـ ص ١٥٤ ـ عام ١٩٨٤ .

(١) العبيد في العراق القديم ـ د. صالح حسين الرويح ـ بغداد ـ عام ١٩٧٧ ص ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ص ـ ٢٠٠ .

ووردت ايضا في قانون « اشنونا » المادة ٣١ التي جاء فيها (اذا فض رجل بكارة أمة رجل آخر ، فانه سيدفع نصف مينا من الفضة)(٣) .

اما شريعة حمورابي وهي القوانين والتشريعات الاكثر انتشارا وتجليا في حضارات الرافدين ، فجاء في احدى موادها ذات الرقم ١٧ ما يلي : (اذا قبض رجل على عبد او امة هارب في العراء وارجعه الى مالكه فعلى مالك العبد أن يدفع له شقلين من الفضة)(٤) .

ومن الجدير ذكره هنا ضرورة الاشارة الى دور الفينيقيين كجزء في هذا الاطار الجغرافي وما لهم من مكانة في اطار حضارة آسيا الغربية ، والى اي مدى ترامت علاقاتهم السياسية والتجارية في حوض المتوسط ، الامر الذي حتم تبواهم مركز الريادة في هذا الخضم اي في معرفة العديد من السبل الحضارية كسك النقد مثلا ولاول مرة في تاريخ الحضارة ، وهو ما جاءت به المعطيات الوثائقية المكتشفة حيث عثر على قطعة نقدية دائرية الشكل بشكل عرضي وهامشي ، وهذا ما سيتضح من خلال النص التالي ، وذلك عبر مساجلة علمية جرت دون أن تكون لها علاقة ببحثنا اطلاقا حيث اخذ فيها العالم جيرون (.Giron) عملية الحسم العلمي وهو ما أورده « دوسو » بقوله : (فقد اخذ جيرون المسألة على انها نوع من الناووس الفينيقي الصيداوي الذي نتعرف فيه ايضا على ملك صيدا من خلال قطعة من النقود الصيداوية التي سكت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ويبدو فيها ملك صيدا يسير خلف عربة الملك الفارسي يحمل بيده الصولجان الصغير براس حيوان ، علقت به مبخرة وبيده اليسرى اناء خاص بالاحماض وهو عبارة عن ابريق للزيت .)(١) .

(٣) المصدر السابق ص ــ ٢٠٠ .

(٤) المصدر السابق ص ــ ٢٠٢ .

(1) René Dussaud «L'Art Phénicien du II» Millénaire Paris - Librairie Orientaliste Paul Geuthner - 12, Rue.



الشكل يوضح اول عملة فضية سكت في صيدا تعود الى القرن الرابع عشر ق.م

إذا كان الفينيقيون كما يقول « دوسو » قد عرفوا ومارسوا التداول بالعملة النقدية المسكوكة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وهذا بدهيا ما يدفع عملية السبق عندهم عن ملوك ليديه في آسيا الصغرى ، ولذلك لا غرابة في انتشارها ـ اي عملية السك في حوض المتوسط واستفادة الشعوب المجاورة منها كالليديين مثلا ، هذا ما اتى « بريستد » على ذكره بصورة اخرى وتحليل يشوبه الارباك وسطحية الاطلاع الاثري في مرافىء آسيا الغربية .

وتأسيسا على ذلك ، وبعد تنامي الطبقة التجارية وتراكم المنتوجات الاضافية وضيق الاسواق المحلية والركض وراء الثراء ، كل هذا أدى الى نضوج وقيام التقسيم الثالث والكبير في المجتمع ، والذي كانت خلاصته تعاظم الطبقة التجارية ولعبها الدور التاريخي في فجر المدنية الاوروبية والبلدان المطلة على حوض المتوسط . وكان ذلك بمثابة الركيزة الارضية الخصبة لعصر التنوير اليوناني وقيام ملوك ليديه على اعادة وسك النقد المعدني ؛ ولم يكن هذا أول سك كما ذكر « بريستد » كما لا يعني التقليل من هذه المبادرة غير الجديدة والمسبوقة ، ليس هذا فحسب بل يجب ان ننصف التاريخ ونقول :

ان شعوب المتوسط ومن دار في فلكها قد استكانوا في كثير من الاحيان الى العديد من النزعات الحضارية عند شعوب الشرق الادنى القديم متخذين وحدة القياس وغيرها من بلاد النهرين .

ولابد هنا من ذكر اقوال « بريستد » لجلاء جوهر هذا الموقف اذ يقول : (وبعد سنة ٧٠٠ ق.م بأمد يسير شرع ملوك ليديه في آسيا الصغرى يقطعون الفضة قطعا ذات وزن معين وحجم وقيمة متناسبين ويطبعونها بطابع الملك او الملكة دلالة على أن الملكة تكفل قيمتها لحاملها . وهذه هي أقدم انواع النقود المسكوكة المعروفة عندنا)(١) .

وفي المصدر ذاته يذهب « بريستد » الى اعطاء تفاصيل اكثر فيقول: (وقسم الاثينيون مينة الفضة مئة جزء كل جزء منها يساوي نحو خمسة غروش ذهب وصار الجزء من المئة من المينا وحدة القيمة الصغيرة العادية، ولايزال وحدة في اقسام كبيرة من اوروبا . فالفرنك في فرنسا والليرة في ايطاليا والكرون في النمسا . ودعا الاثينيون هذه القطعة من النقود « دراخمه » ومعناها قبضة ، لانها كانت مساوية لقيمة قبضة من « الفرط » عبارة عن قطع صغيرة من الحديد او النحاس كان يستعملها عامة الشعب)(٢) .

والخلاصة فان تعاظم التطور الاجتماعي وما رافقه من ضرورة ملحة لسك النقد المعدني في اثينا ومن ثم في روما وجاراتهما من الدول الاوروبية الاخرى ، ناهيك بالازدهار والترف الكبيرين اللذين تناميا في خضم انماط العصر العبودي ، كل هذا كان يشكل الارضية الصلبة التي تمركز عليها وانطلق منها أرباب التجارة بحثا عن الذهب والمعادن الثمينة في اسواق العالم القديمة .

(١) العصور القديمة ـ المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٢) ذات المصدر السابق ص ـ ٢١٩ .



نماذج توضيح بداية سك النقود عند
الملوك الليديين قرابة ٧٠٠ ق.م (١)

(١) هذه الاشكال النقدية الليدية ماخوذة كما هي من كتاب العصور القديمة ـ هنري بريستد ـ ص ٣١٩ .

الإنسان العاقل

«نتاج جانبي» من نتاجات الطبيعة؟

فيفولود فيلنشيك
ترجمة :
ثائر ديب

ــ في البدء كانت الصورة المتخيلة .

ما هو اصل الانسان ، هذا الكائن البيولوجي الذي يعيش بعكس الحيوانات الاخرى ، تبعا لتوجهات « اصطناعية » ، غير غريزية ومفروضة ذاتيا ؟ لقد ادى التطور الطبيعي الى ظهور القردة المتقدمة ، الأسلاف الأقرب للانسان ، بيد ان ظهور الانسان نفسه الانسان العاقل ، لايزال لغزا غامضا حتى بالنسبة للمدافعين عن الانتخاب الطبيعي .

ثائر ديب : باحث من سورية ، ينشر في العديد من الدوريات السورية ، يعمل في مجال الترجمة .

كانت النظرية المرتكزة على دور العمل في تكوّن الانسان والتي شرع بها الماركسيون المحاولة الوحيدة الى الان في تفسير هذه السيرورة انطلاقا من بعض الاسباب الطبيعية . لكن عددا من الحقائق الجديدة ، والتي لم تكن معروفة لباحث القرن التاسع عشر ، قد نهضت في وجه هذه النظرية وعارضتهـا .

في القرن الماضي ، كان لايزال الاعتقاد سهلا بأن الرئيسات(٢) higher primates حين اكتشافها امكانية الحصول على القوت بمساعدة بعض الوسائل وعبر النشاط العملي المشترك وادراكها منافع ذاك « الاسلوب الجديد في الحياة » ، بدأت تصنع الادوات بنفسها وراحت تكدح جماعة . وبهذا فقد دربت وطوّرت اطرافها وباشرت التحرك على قدمين . وما ان اصبح دماغها اكثر تطورا ، حتى ظهرت وسائل جديدة للاتصال هي الكلام . تلك هي صورة تاريخ تطور الانسان الحديث كما ترسمها النظرية المرتكزة على دور العمل في تطور الانسان . لكن واحسرتاه ، فعلم الوراثة انكر امكانية توريث اية صفات مكتسبة ، في حين ان فترة المليون او حتى المليونين او الثلاثة ملايين من السنين والتي تفصل الانسان الحديث عن ما قبل الانسان ، او الانسان القديم ، هي فترة من الزمن قصيرة جدا من اجل الانتخاب الطبيعي لنوع اشد تكيفا مع الطريقة « البشرية » في الحيـاة .

ولقد اعتاد انصار النظرية السابقة على القول ان الانسان القديم قد « تحقق » ، « ادرك » ، « فهم » ، « اخترع » ، « اكتشف » ، الخ. بيد أن الانسان القديم كان لايزال قردا من الناحية الجوهرية ، مفتقرا الى كل تلك الخصائص البشرية ، ولكي يكون قادرا على « التحقق » ، و « الفهم » ، و « الاختراع » ، الخ ، كان لابد أن يكون كائنا بشريا ذا مستوى عال من التطور . ومن اجل ازالة هذا التناقض ، فان علينا ان نفسّر كيف استطاع الانسان القديم بأية حال من الاحوال ان يكتشف او يخترع اي شيء ، وهو العاجز كليا عن القيام بذلك ، او ، بعبارة اخرى ، كيف تمكنت بعض الظواهر « الاصطناعية » من الظهور بطريقة طبيعية ، اي دون استناد الى الدماغ المتطور او الى غريزة خاصة ما .

ثمة سؤال دقيق ومخادع ينطوي عليه سؤالنا السابق . ما هو العمل ، حقيقة ؟ ولسوف يجيب معظم البشر دون تردد أن العمل «نشاط هادف او موجه نحو غاية » . حسنا ، لكن الحيوانات جميعا منهمكة وبصورة جلية في ضروب متنوعة من النشاط « الهادف » : فبعضها يستخدم الوسائل الخام ويمكنه انتاجها ، في حين يمكن لبعضها الاخر وبصورة قصدية تغيير بيئته habitat ، منسقا جهوده الجماعية ، الخ وهكذا ، يتضح ان النشاط الهادف ليس بعد عملا بالمعنى الدقيق للكلمة والا لكان علينا عندها ان نعتبر عملا كل بحث عن القوت او استهلاك له ؛ وكذلك صنع عش او وكر ، فضلا عن اية افعال متصلة بالانجاب .

نستخلص مما سبق ان العمل نشاط انساني بصورة نوعية ، ويختلف على نحو اساسي عن اي نوع من انواع النشاط الحيوانية في انه يأخذ سبيله الى الانجاز وفقا لبرنامج اصطناعي ، غير فطري او غريزي ، ومع ذلك ، وهذه مفارقة ، فان الاستنتاج النافذ هو ان العمل كان موجودا قبل ظهور الانسان ، اي ان القردة المتقدمة كانت منهمكة في ضرب من النشاط انساني بصورة نوعية ، اي منهمكة في عمل .

حقا اننا لفي ورطة الان . ومع ذلك فان ماركس نفسه هو الذي امدنا بمفتاح التوفيق والتسوية بين النظرية المرتكزة على دور العمل في التطور وبين التفكير العلمي .

فعلى وجه الخصوص ، وبينما هو يتقصى ، عملية العمل ، كتب ماركس في **راس المال** « ان العنكبوت يقوم بعمليات تشبه عمليات الحائك ، والنحلة ، في بناء خلاياها ، تبز الكثير من المهندسين المعماريين . غير ان ما يميز أسوأ معماري عن أبرع نحلة ، هو انه يقيم البنيان في خياله قبل ان يبنيه من الشمع . ففي ختام كل عملية عمل ، نحصل على نتيجة كانت موجودة سلفا ، في مخيلة العامل عند بدء العملية . »(٢)

واذن ، فان ماركس يشير بلغة غير ملتبسة الى ان خلق الصور المتخيَّلة المثالية ، في عملية العمل ، يسبق اي نشاط مادي . لكن

ماركس لم يوسع عمل تلك الآلية mechanism بحيث يطال اية ظواهر تاريخية ، بحيث يطال بداية التاريخ البشري ، وانما انطلق في تفكيره من مثل اشكال العمل « الغريزية » او « شبه الحيوانية» notions عامة والتي ، تبعا له ، كانت قد شكلت الانسان الحديث ووعيه تدريجيا . لكن علم الوراثة ، أود ان اكرر ، ينكر بصورة قاطعة اية امكانية كهذه ، في في حين ان الافعال الحيوانية الهادفة المرتكزة على الغريزة ، وكما اوضحنا آنفا ، لا يمكن بأي حال من الاحوال قبولها بمثابة عمل .

ومع ذلك فان هذه الفقرة الشهيرة من راس المال تفسح في المجال لتأويل اكثر عمقا بكثير ، فقط لو بدلنا التشديد المتعلق بالنعوت «اسوأ» (معماري) و « ابرع » (نحلة) ، والتي تخلف لدى المرء انطباعا بأن الانسان هو الرابح حين تتم مقارنته مع النحلة . وعلى اية حال ، فلننظر الى فكرة ماركس من الزاوية التالية : «ان اسوأ نحلة ، على عكس ابرع معماري ، لا تفكر ، حقيقة ، بالخلية تبعا لمخطط ، وذلك لان الطبيعة قد امدتها بهذا المخطط منذ ولادتها ، في حين انها لم تزود الانسان بأي مخطط مماثل ، وعلى الانسان منذ بدء التاريخ البشري تماما » (وذلك أصوب من قول ماركس : منذ بدء اي نشاط عملي نوعي) ، ان يعمل على تعويض وتلافي هذا النقص بطريقة « غير طبيعية » اي ، بالاستعاضة عن المعطيات الموجودة في جزيئة DNA بمعطيات يشتمل عليها تمثل representation وهكذا فان عبارة ماركس تكتسب معنى جديدا ، عميقا من خلال تبديل بسيط في التشديد : ان الفارق الاشد وضوحا ، والبديهي بين الانسان والحيوان يكمن في حقيقة ان الانسان يفعل وفقا لبرنامج خارجي ، غير فطري وليس وفقا لغريزة او اية خصائص داخلية ملازمة له ومتاصلة فيه كنوع خاص .

تولد الحيوانات ومعها طراز الحياة النوعي الغريزي الخاص بها ، أو انها تنتظم انتظاما محكما تبعا لهذا الطراز ، في حين يفتقر البشر الى اي برنامج مماثل . وهذه الحقيقة الناصعة يمكن ان تساعد المرء في ازاحة الغموض عن أصل الانسان . ولكي نبدأ بها ، فان الرئيسات يصعب

اعتبارها حدا اعلى في التطور الطبيعي . بل على العكس ، فان الانسان القديم كان كائنا لدنا مطواعا ، ضعيف التخصص ، وبعكس القرود الاخرى فقد اضاع اي اتصال يمكن التعويل عليه سواء مع بيئته او مع الممثلين الآخرين لنوعه الخاص ، وذلك يعني انه قد اضاع طراز حياته الغريزي النوعي . ونحن لانزال نجهل كيف حصل ذلك ولماذا ، بيد ان البيولوجيا تعرف جيدا بضع امثلة عن مثل هذا النكوص regress ، اعني عن هذا الضياع الجزئي او الكامل لغرائز معينة . ومهما تكن الآلية المتحكمة بهذه العملية ، فان تاريخ الانسان برمته يقدم الدليل العملي على ان هذا هو ماحصل للانسان القديم عند لحظة ما من لحظات الزمن .

إن افتقاد الانسان الجزئي للروابط مع بيئته (التي نمت ضعيفة وقاصرة او انها تأذت على نحو سيء) يمكن أن ندعوه « خللا في طراز النشاط » ، في حين يمكن أن ندعو الاتصال القاصر مع الانواع الاخرى من صنفه «خللا في طراز العلاقات» . وهذان العاملان كلاهما مهداالارضية للاغتراب البدئي The Primary alienation ، والذي عمل ، تاليا ، على طرد الانسان من الطبيعة .

كان هذا تطورا حاسما . وهو حاضر ، بمثابة مأساة واقعية ، في القصة التوراتية عن سقوط الانسان الاول وطرده من جنة عدن . ولقد امكن لنا هنا أن نحدد آثار كل من الخلل في طراز النشاط (اكل الثمرة المحرمة) والخلل في طراز العلاقات داخل النوع (الخطيئة الاصلية) . فالانسان القديم ، والذي لم ينفِ من الطبيعة الا ليصبح « عبدها المعتق» (جوهان فون هردر) ، أصبح حرا ، أي صار بامكانه ان يتحمل تجاهله أو حتى انتهاكه لقوانين وتابوات معينة ثابتة لاتتغير بالنسبة للحيوانات . ولكن تلك كانت لا تزال حرية « سلبية » ، تفتقر الى اي برنامج ايجابي من اجل المستقبل .

ان مثل هذا الكائن الناقص كان مهددا بالإنقراض ... ما لم يسد هذا النقص بمحاكاة بعض من الحيوانات « السوية » ، التي تعيش وفقا لغرائزها ، اي انه كان مهددا بالانقراض مالم يقم ضربا من التكافل(٤)

symbiosis مع الحيوانات « السوية » ويقتبس منها بعضا من « معرفتها » ، و « طرزها » و « تقنياتها » . وهكذا بدأ الانسان القديم حياته « شبه الحيوانية » (وليس الغريزية) — بمحاكاة الحيوانات « السوية » . وكان ارسطوا أول من ألح على الدور العظيم الذي لعبته المحاكاة والتمثيل acting في حياة الانسان .

اليكم بضع أمثلة من اجل ايضاح هذه النقطة . يمكن للعنكبوت بسهولة ان يصنع اداة كاملة لاصطياد فرائسه ، حين ان الانسان لم يكن قادرا على صنع العدة الاولى للصيد البري والبحري الا بمحاكاته العنكبوت . كما يمكن للطيور بسهولة تحديد وجهتها حتى عندما تحلق فوق المحيط ، بينما كان الانسان محروما من اية غريزة من هذا النوع ، وكان عليه بالتالي ان يستخدم بعض « البوصلات » الطبيعية .

ان قطعان الحيوان ، أو مستعمرات الحشرات ، لهي منظمات تراتبية (هيراركية) راسخة . اما قطعان البشر القدماء فكانت مفتقدة للبنيـة والتنظيم ، ومشوشة هيوليـة ، وكان على الانسان القديم ان يقتبس من الحيوانات طراز علاقات لتطبعه الخاص ومع مرور الزمن فان بعض الحيوانات تحولت الى « معلمين » ، و « حماة » و « وسطاء » للانسان القديم . وكانت بالنسبة له ، التجسيد الحي لافكار جوهرية شتى . ومن ثم ظهرت هذه الحيوانات لاحقا بمثابة شخصيات طوطمية موجودة ، مهما يكن ، في الحياة الواقعية وليس في مخيلة الانسان القديم وحسب .

ومن المحتمل تماما ان المعلم او الطوطم الاول للقرد « الناقص » كان قرد « سويا » ، معياريا » . وبتأثير ظروف متنوعة امكن تدمير التكافل بين القردين . ويمكن لنا بسهولة ان نتخيل اوضاعا عديدة امكن فيها للجماعة القبـ ـ بشرية ، وقد تركت دون معلمها — الطوطم ، اقامة تشاركمع بعض الحيوانات الحاشية الاخرى . كما امكن للمعلم — الطوطم ، نظرا لظروف معينة ، أن ينتقل الى مكان آخر أو أن يصبح منافسا في الحصول على القوت ، مثيرا على هذا النحو مشاعر العداء لدى الانسان القديم .

واستطاع هذا الاخير ان يتماهى مع عدو الطوطم اللاحم ، و . . . ان يجعل من الطوطم طعاما له . ولقد ترافق التهام الطوطم ، موضوع العبادة السابق مع التخمة والحيوية .

ان ادراك صورة الحيوان الحامي متحولا الى منافس باعتبارها نمطا بدئيا لإبليس أو اي نمط اصلي ثقافي مكبوت آخر ، ليس أمرا يسيرا . بيد ان أصداء الطقس القديم لالتهام الطوطم لا تزال تتردد في القربان المسيحي المقدس .

لقد عمل طراز الحياة الطوطمي على أنسنة الانسان القديم ، على الرغم من ان هذه العملية لم تكن ، في الظاهر ، سوى فعل وحشي فاقع . ومن المعروف جيدا أن الحيوانات ، على سبيل المثال ، لا تقتنص من نوعها الخاص (لا يصطاد الذئب ذئبا آخر ابدا) . بيد انها تقتنص الانسان . ولقد أصبح الانسان القديم ، بمحاكاته الحيوان اللاحم ، آكلا للحم البشري (وهذا يدل على أنه لم يسلك طويلا تبعا لبرنامج فطري) ، مرتكز على الغريزة ، وانما وفقا لطراز خارجي ، اصطناعي) .

ولقد ادى طراز الحياة الطوطمي الى كبت وحشي لنزوات الانسان القديم الفطرية الحيوانية . لكن هذه الغرائز « العمياء » و « الشريرة » ، بالرغم من ضعفها وقصورها ، ظلت موجودة ، وبعبارة أخرى فان الانسان القديم كان قد فقد حيويته وكف عن الوجود .

عملت كل تلك العوامل على احداث صدمة عصابية ، وعلى احداث شدة Stress فضلا عن بعض الآليات الكافة(٦) inhibitive (والتي لعلها قد دفعت الانسان القديم الى احلال نسخ مطابقة مألوفة محل الافعال المكبوتة ، مثل البكاء ، والايماء ، الخ) . ويبدو أن هذه هي الطريقة التي تشكل بها الجوهر المتناقض **للانسان العامل** والتصور الحالي عن تكون الانسان يردد من أوجه عديدة الفرضية التي قدمها الاكاديمي بيليف (١٩١٧ ــ ١٩٨٥) ، والذي قام بمحاولة خاصة لتفسير السرعة البالغة

الغريبة التي تشكلت بها البنية الوراثية(٧) genotype لانسان كرومانيون ، اي البنية الوراثية **للانسان العاقل** . فالفترة الزمنية التي تفصل انسان نياندرتال عن انسان كرومانيون كانت أقصر بكثير من أن تتيح اية طفرات متقطعة عرضية او ايّ اشتغال لاية الية من اليات الانتخاب الطبيعي التي يمكنها ان تؤدّي الى فروق أساسية بين هذين النمطين من أنماط الانسان .

قال بيليف في المؤتمر الثالث لعموم الاتحاد السوفياتي حول الجوانب الفلسفية للعلوم الطبيعية (المنعقد في ١٩٨١) : « انّ عمليات الرصد التي نراقب بها الحيوانات تبيّن انّ الشدّات النفسية تزيد من التنوعات الوراثية . والشدّة تكشف الطبقات الخفية ، اذا جاز التعبير ، للتنوّع الوراثي . . . والشدّات والتوتر العصبي ، حين أثّرت على اشتغال الجهاز الغدي ـ العصبي ، سرّعت تطور الانسان القديم وعززت العمليات الوراثية التي نهضت بأعباء التنوع الوراثي » .

وعمليات الرصد ، التي أشار اليها بيليف ، تم القيام بها في سياق تجارب التأهيل . والتأهيل Domistication في الجوهر هو تغيير لسلوك الحيوان ، وانتقال الى طراز حياة مبرمج من الخارج ، من قبل الانسان وهو طراز قد يكون متعارضا مع البرنامج الفريزي الفطري لسلوك الحيوان ومما ينطوي على مفارقة انّ شيئا مشابها قد حصل للقردة « الناقصة » ، للانسان القديم ، الذي بدأ يعيش بالتكافل معطواطمه الحيوانية فحكم عليه هكذا بـ « أعباء سيكولوجية اضافية » دامت مئات آلاف السنين . وبعبارة أخرى فانّ الشدّة المتواصلة قد لعبت دورا جوهريا في صياغة الانسان الحديث .

*** ـ سرقة النار . المذبح .**

وصف ماركس نشاطات الانسان القديم بانها نشاطات « فكرية ـ عملية » ، وبالفعل ، فان الادوات الحجرية القديمة لم تكن وسائل عمل وحسب ، وانما ايضا أصناما ، ورموزا ، وتمثيلات ، لتصبح من ثمّ جزءا من اللغة البدئية Proto-language .

وغالبا ما يطلق العلماء على الاقتصاد البدائي اسم « اقتصاد ما قبل الانتاج » او « الاقتصاد الاستيلائي » ، ذلك انّ الطبيعة ذاتها هي التي لعبت دور المنتج ، في حين لم تكن المشتركات Communities البشرية القديمة الا مجرد « مستول » ، يسلب منها منتجاتها . والمشتركات البشرية البدائية ، في مراحل تطورها الاولى ، لم تكن تنتج سوى وسائل ذلك الاستيلاء ، وتلك الادوات التي تحاكي من الناحية الجوهرية مخالب ، او أسنان ، او أنياب الحيوان الطوطم ـ المعلم الموافق . ولقد حاول البشر القدماء ، عبر استخدام تلك الادوات ، اعادة انتاج طراز سلوك الحيوان الطوطم .

وفي تلك المرحلة ، كان سبق للانسان القديم أن أغترب عن عالم الطبيعة ، وبالتالي كان ذا أهمية حيوية بالنسبة له أن يحافظ على طراز حياته المكتسب . وذلك هو السبب في أن البشر القدماء اعادوا إنتاج خصائص وعادات أساسية لدى الحيوان الطوطم على نحو متواصل وباشكال واوضاع شتى غالبا ما تم التأكيد عليها بالايماءات ، والتمثيلات والاصوات . وعند هذه النقطة ظهرت العناصر البدئية للثقافة واللغة . واللغة كانت لا تزال جنيناً ، ذلك أنها كانت مغلولة على نحو يصعب فصله الى موضوعات ، وافعال ، واصوات ملموسة منوعة . وهكذا فإن اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة ظهرت لاحقاً نوعاً ما ، حين اكتسبت « البدائل الصوتية » للموضوعات والافعال معنى مستقلا وبدات بتادية وظيفتها وحدها . وبعبارة اخرى ، فان محاكاة سلوك الحيوان ربما ولدت وضعاً تفقد فيه هذه او تلك من النسخ المطابقة للنموذج الطبيعي خاصيتها النفعية (مثلا ، بعض التماثيل الحيوانية الصغيرة) ، في حين قد يكون بعضها الآخر قد كف عن كونه أصناماً أو رموزاً (مثلا ، المخلب أو الناب الذي تحول تدريجيا الى سكين) . وعند هذا الحد ، يبدأ النشاط الفكري ـ العملي غير المتمايز بالتفسخ والانحلال منقسماً الى شغل عملي وثقافة .

لقد قاربنا واحدة من الإشكاليات المفتاحية التي يشتمل عليها موضوعنا . فتبعا لنظريتنا هذه في تكون الانسان ، لم يكن الانسان العاقل

أول من صنع الأدوات ـ العلامات Sings-implements اي لم يكن اول من باشر نشاط الانسان الفكري ـ العملي ، وانما الانسان الماهر ، أو الانسان القديم ، الذي عاش قبل الانسان العاقل بمليون سنة . وذلك هو السبب في اننا نعتقد أن من الملائم والمبرر اعتبار اللحظة التي انقطع فيها التكافل بين الانسان القديم وحيوانه الطوطم ـ المعلم بمثابة بداية للتاريخ البشري ، بدلا من اللحظة التي بدا فيها بصنع الادوات وشرع بمحاكاة طوطمه . أما من الناحية الثقافية ، فقد عنى هذا الانقطاع انقسام النشاط الفكري ـ العملي الى ثقافة ونشاط عملي بالمعنى الدقيق الكلمة .

ولقد لعبت دوراً رئيسياً في هذا التطور التاريخي ـ الاصلي حقيقة أن الانسان القديم تعلم في فترة ما كيف يستخدم النار ، والتي أصبحت بالنسبة له صنماً جديداً وأداة اتصال ، صنماً وقف في مواجهة عالم الطبيعة الحيــة .

تشعر كل الحيوانات بخوف غريزي من النار . ولعل من الاصوب ان نفترض ان الانسان القديم ، والذي كان حيواناً بغرائز ضعيفة ، تمكن من البقاء قريباً من النار اكثر من اي حيوان آخر . والنار كانت مرعبة وفي الوقت ذاته جذابة ، كانت تهدد بالموت ، لكنهاكانت ايضاً تحمي المرء وتهبه الدف . وموقف الانسان من النار هو ، على نحو ما ، تمثيل نموذجي لطبيعته المتناقضة . ولقد لعبت النار دور « عامل الانتخاب » العظيم ، الذي فصل ، بحلقته النارية ، الانسان القديم عن بقية الحيوانات .

وفي ظل حماية النار ، استطاع الانسان القديم ان يحيا حياة تبطل وحرية (فعلى سبيل المثال ، استطاع الانسان القديم ان يستهلك محصول صيده ، وأن يؤدي رقصة « ما بعد العشاء » ويعيد انتاج احداث الصيد الناجح) . بيد أن امتلاك الانسان للنار ادخل ، في الوقت ذاته ، بعضاً من النشاز وعدم الانسجام في حياة المشترك البدائي ، ذلك انه فصل الانسان عن طواطمه الحية وغربه عن عالم التجربة الطبيعية العملية والضرورية . وبـ « سرقة النار » من الطبيعة ، وجد الانسان القديم

نفسه في حالة صراع ، حيث كان عليه ان يعبد ربين في آن واحد ، النار والطبيعة الحيـة .

وهكذا واجهت الانسان القديم مهمة « التوفيق » بين هذين الربين . ولكي يقوم بذلك ويتمه ، بدأ يضع حول النار ، والتي اصبحت صنماً مركزياً ، كل الاصنام والرموز الاخرى لطواطمه الطبيعية . ويمكن لنا بسهولة ان نزعم أن أبهة احتلال مكان قرب النار قد استمدت من الحيوانات الطوطمية « معلمي » الانسان فضلا عن النباتات الصالحة للاكل . وهكذا ظهر المذبح الأول ، والشكل البدئي من الثقافة الروحية القبـ ـ ميثولوجية كما ان حياة الحرية والتبطل هذه قد خدمت كنوع من المركز المنظم وكنموذج للنشاطات النفعية المباشرة .

كانت هذه طريقة جديدة للحفاظ على الخبرة المتراكمة ، والتي افقدت المشترك البشري البدائي روابطه مع وسطه الطبيعي ، ولكنها عززت ، في الوقت ذاته ، ودعمت ذلك المشترك ، موفرة له امكانية افضل للبقاء وكان هذا تغيراً حاسماً ، بالفعل : تحولت مسرحية « ما بعد العشاء » الى مسرحية امكنتها أن تزيد ، وبصورة لها دلالتها ، من احتمال الحصول على عشاء جيد وفجاة تحول وقت التبطل الذي كان يُبدد عند النار الى نمط من النشاط الاسمى ، والمبرمج . ومنذ ذلك الحين فصاعداً كف « اسلوب حياة » الانسان عن كونه محكوماً من قبل الطبيعة ، واصبح « الموقد » الثقافي البدائي الاصطناعي مركز حياة الانسان وحتى الطبيعة ذاتها « سُجِنَتْ » ضمن حلقة النار . ويمكن لنا وبحق ان نعتبر هذا التغير الحاسم بمثابة بداية لتاريخ الانسان العاقل .

كل الكائنات الحيوانية والنباتات التي جمعها الانسان لتعيش قرب النار ، كانت تمثيلات طبيعية للعالم الخارجي المعادي للجماعة البشرية البدائية . وكانت من الناحية الاساسية رهائن ـ ارباب قبـ ـ دينية ، يمكن تقريبها عند تقديم الكفارة إزاء اية اخفاقات تحصل ، كما كانت اصناماً حية ، تلاعب بها الانسان وهو يصوغ مستقبله .

بمحاولته جمع « العالمين » ـ عالم النار وعالم الطبيعة الحية ، وحل التناقض في وجود كلا موضوعي العبادة ، بدأ الانسان يلقي الى النار بطواطمه الحيوانية والنباتية (و ، بالتالي ، مطابقاتها المصنوعة من الصلصال) . ونتيجة لهذا الفعل الطبيعاني naturalistic والفكري ، حصل الانسان على طعام مقلي ومسلوق . وبمرور الوقت ، اضحت هذه « الوجبة » شائعة ، في حين تحول حرق الحيوان الشعائري (والذي هو الطوطم في الوقت ذاته) الى تقديم القرابين واكتساب معان صوفية اضافية .

السجناء المعتقلون أثناء النزاعات الناشبة مع القبائل الطوطمية الاخرى تم احتجازهم عند النار ايضاً ، شأن حيوانات المذبح ونباتاته . وكان مصيرهم من نواح عديدة مماثلا لمصير الرهائن ـ الأرباب الاخرى . بالتدريج خضعت وظيفتهم لبعض التغيرات ، فعهد إليهم برعاية المذبح وصيانته . ولعل الرهائن التي كان يتم تقديمهم كقرابين قد ظهرت ، في ظل ظروف معينة (حدثت فيها تحولات جذرية إضافية) ، بمثابة انماط بدئية لكهان المذابح أو للعبيد ، حتى للرب المتجسم . وليس مصادفة أن الرب تجلى للانسان في واحد من أسفار العهد القديم على هيئة عمود من نار . كما جاء في تعاليم العهد الجديد ان الرب « يصعد » ، على الرغم من أنه لم يُخرّق وإنما علّق على الصليب ، الامر الذي يمكن تفسيره ايضا بحقيقة ان الصليب ظل طويلا تمثيلا رمزياً للشمس ، أي للنار وكما عبر س. فريدنبرغ ، الدارس السوفياتي للاديان القديمة ، فان البنى الثقافية قد بنيت من عناصر مصنوعة من مفاهيم منسية منذ زمن طويل .

ولقد عمل التطور الطبيعي اللاحق في الثقافة الميثولوجية البدئية على تمهيد الارضية للتحول العظيم الذي تلاه .

ففي حالات معينة حاسمة من حالات بيئتهم ، لجأ البشر الى مذابحهم في بحثهم عن الكفارة . وتلك المحاولات التي ربما كانت مدنسة ، نجح بعضها . وبالتدريج تحولت الطواطم الحيوانية الى حيوانات اهلية في حين تحولت النباتات البرية الى حبوب وفاكهة .

عمل الاقتصاد الطبيعي المتطور والمرتبط بالمذبح بمثابة نمط أصلي لتربية وتدجين الحيوان ، الامر الذي يمثل ممارسة اقتصادية جديدة كليا عززت من استقلال المشترك البدائي حيال اية تقلبات او ازمات في بيئته . بل وأكثر من ذلك ، ان بعض المكونات العضوية (أو بصورة أوضح) ، بعض المكونات الصالحة للاكل من الشيء أو الكائن الاسطوري البدئي قد تم استهلاكها ، في حالة الهجرة الاضطرارية او اية ظروف مؤاتية اخرى ، في حين بقيت حية على شكل تقاليد وشعائر متنوعة عند الشعوب التي توقفت عند مرحلة الاقتصاد الاكتسابي (او التي نكصت الى هذه المرحلة) .

وبلغة مبحث الثقافة ، فان الثورة النيوليتية(٨) كانت انتقالا من الطوطمية البدائية والصنمية الى عبادة الاوثان ، ومن اللغة البدئية ، الى اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة ، اما من الوجهة السوسيولوجية ، فقد شكلت انتقالا من المشتركات القبلية الطوطمية الى المجتمعات الطبقية الباكرة ، ومن الناحية التكنولوجية ، فانها تدل على التحول من الاكتساب الى الانتاج .

★ ★ ★

يمكن ان نطلق على المفهوم الذي أوجزته آنفـا اسـم الاغتراب البدئي . وهو يفترق عن كل من التصور السوفي للانسان وبعض الافكار المادية المبتذلة بهذا الخصوص . ولقيت هذه النظرية مزيدا من الدعم من قبل العديد من العلماء ، ذلك أنها تفسح في المجال لتفسير أصل الانسان ، والعمل ، والثقافة ، والدين دون التورط في نزاع مع الافكار العلمية الاحدث ، وكذلك دون الاعتماد على ضروب الحدس والتخمين الساذجة العديدة والتي مفادها ان الالهة هم نتاج لجهل الانسان وافراطه في الخيال . ولقد دفعت بي نظرية الاغتراب البدئي الى القاء نظرة جديدة على بعض التعاليم الدينية . فقصة طرد البشر الاوائل من جنة عدن يمكن اعتبارها ، بالفعل ، بمثابة تأويل عبقري لبعض التطورات المنسية منذ زمن بعيد ، في حين يمكن اعتبار جنة عدن بمثابة الوحدة والانسجام

القبـ ـ تاريخيين الكاملين في العالم الحيواني . وهكذا ؛ فان العمل الذي لعب ، تبعا للمادية التاريخية ، دورا حاسماً في «تحول القرد الى انسان» ، لم يكن الباعث على هذه العملية والمتحكم بها ، وانما كان عاقبة لـ«طرد» الانسان من العالم الحيواني . وأي خلط بين السبب والاثر لايمكن ان يؤدي الا الى اطلاق موجة من التحريفات في اللوحة العامة للسيرورة التاريخيـة .

وللاسف ، فان ذلك هو ماحدث للمادية التاريخية ، التي اعلنت ان العمل هو سبب انبثاق الانسان من العالم الحيواني . ولقد جعل هذا المفهوم الخاطىء من الماركسية مادية مبتذلة ونظرية زائفة أحادية الجانب ، أو ، ولنقلها بفظاظة ، تعاليم جبرية تتشبه بالعلم . وكما يقولون ، هي قصة أخرى(٩) .

ـ هوامش الترجمة :

١ ـ نشرت هذه المقالة في :
Science in the USSR, No. 2 March - April 1991
بعنوان : Homo Sapiens : A (by product » of nature ?
والكاتب حائز على الدكتوراه في العلوم والفلسفة .

٢ ـ الرئيسيات : رتبة من الثدييات تشمل الانسان والقرد .

٣ ـ انظر راس المال ، المجلد الاول ، الجزء الثاني : تحول النقد الى راسمال ، ص ٥٢ ، ترجمة فالح عبدالجبار . د. غانم حمدون وآخرون . دار ابن خلدون . الطبعة الاولى ١٩٨٢ .

٤ ـ التكافل : تعايش متعضيين غير متشابهين .

٥ ـ الشدة في السيكولوجيا هي الاجهاد والتوتر النفسي الشديد .

٦ ـ الكف : عملية ايجابية فعالة تقوم بها بعض اجهزة الجسم وتستهلك وقودا وتنتج طاقة تمنع نشاطا آخر . ويتناول الكف اي نشاط حركي او افرازي او فكري أو انفعالي ، ويسمى الكف الشعوري لدافع او سلوك ما قمعا وغير الشعوري كبتا .

←

٧ — البنية الوراثية : يستعمل هذا اصطلاح في توضيح طبيعة البنية العضوية التي تحدد معالمها العوامل الوراثية المتمركزة بالجينات . وهناك اختلاف واضح بينه وبين اصطلاح البنية البيئية (Phenotype) الذي يوضح الطبيعة العضوية كما تحددها العوامل الوراثية البيئية في آن واحد .

٨ — المقصود بالثورة النيوليتية هو الانتقال الى العصر الحجري الحديث .

٩ — كان الكاتب قد قدّم لمقالته بالفقرة التالية والتي آثرنا نقلها الى الهوامش : انّ التغيرات الاجتماعية المتسارعة اثرت على المجتمع السوفييتي بطرق شتى ، مطلقة ارتكاسات ايجابية وسلبية على حد سواء . ولقد عمل نزع الاخلاقيات من المجتمع ، والذي بلغ نسبا مرعبة ، على افساح المجال ، من جهة أولى ، لانتشار التصوّف والحماس الديني و ، من جهة اخرى ، لانتشار التعصب الاثني ورفض المعايير الاخلاقية وخرق التابوات .

انّ تطبيق الايديولوجيات الزائفة لا يترافق دوما مع التكشف السريع للحقائق الجديدة . والازمة الايديولوجية والفلسفية الراهنة في الاتحاد السوفييتي لا يمكن التغلب عليها بواسطة الافكار المدللة المطروحة على عجل وبتسرّع او من خلال احلال افكار مضادة محلها . ولكي نقترب من « الحقيقة » اكثر ، لا بد من مراجعة اعتقادات كانت مقبولة الى الآن . وذلك يجب أن يساعد على جعلنا أقرب الى فهم أوضح للواقع وكذلك للطبيعة المحدودة والضيقة لبعض المسلمات الاساسية في المادية التاريخية .

* ★ *

العقد الفريد

هيفاء رزق

اتعشق الكتابة التي تستقي من معين الانسان والمجتمع إذ ترتقي الكلمة فتنير الأعمال وتبحر متوغلة في ابعاد لا حدود لها فتنتعش وتذكو بل تبرعم وتثمر في رياض البشرية .

هيفاء رزق : باحثة وأديبة من سورية ، لها عدد من الابحاث والدراسات في الدوريات العربية .

وكي تخصب افكاري ، ويشحذ قلمي الوذ بكتب المختارات العربية القديمة التي تدخر في طياتها قرائح الادباء والشعراء الذين ولدتهم العصور العربية الزاهية مثال كتاب البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد ، وعيون الاخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه .

غير أن العقد الفريد ، كان أحب هذه المختارات الى نفسي ، فقد وجدت في صفحاته ، مبتغاي لما يتمتع به مؤلفه من ذوق رفيع ، وحس رهيف ، تميز به الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه . إن هذا الشاعر ذا الخيال اللطيف انفرد بعقده المنظوم من جواهر كريمة ، فيه من كل صنف جوهرتان إلا الواسطة ، فاللؤلؤة الأولى في السلطان ، واللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح الخ ....

هذا الذوق الرفيع ، والخيال المدهش ، يقترن بحسن ترتيبه للمختارات ، وتبويبها محتذيا حذو ابن قتيبة في عيون الاخبار .

فمن هو ابن عبد ربه ؟

هو ابو عمر شهاب الدين ، أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي مولى هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي . ولد في قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها . وقد كانت قرطبة في ذلك العصر من أعظم مدن الاندلس تشبه بغداد في كثير من الوجوه وكانت عظيمة العمران ، وكانت فوق ذلك بلد العلم والكتب وقد جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب ابن الفقيه ابي الوليد ابن رشد والرئيس ابي بكر ابن زهر فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة :

ما ادري ما تقول غير انه إذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها . وليس غريبا أن تكون قرطبة كما وصفها هؤلاء فقد كانت عاصمة الامراء الاندلسيين من بني امية منذ زمن عبد الرحمن الداخل في منتصف القرن الثاني الى زمن عبد الرحمن الناصر الذي عاصر ابن عبد ربه الى ما بعد زمن الناصر .

وكان الغناء شائعا عند العرب الاندلسيين لاسيما في قرطبة حيث كانت تفد الجواري المغنيات من مختلف الاقطار العربية في عهد زرياب المغني موصلي الأندلس وصاحب السهم الاكبر في هذه الحركة الغنائية فيها الى عهد شاعرنا ابن عبد ربه الذي كان فيما سيظهر لنا من المولعين بسماعه .

كان ابن عبد ربه مولعاً بسماع هذا الغناء ذكر الفتح ابن خاقان ان الغناء الذي سمعه ابن عبد ربه وهو مار تحت قصر احد الرؤساء بقرطبة اذهب لبه والهب قلبه ، وسرعان ما تناول رقعة كتب عليها الى صاحب القصر :

يا من يضن بصوت الطائر الفرد ... ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو ان اسماع اهل الأرض قاطبة ... اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده ... صوتاً يجول مجال الروح في الجسد
اما النبيذ فاني لست أشربه ... ولست آتيك إلا كسرتي بيدي

ويبدي ابن عبد ربه رايه ، في اثر اللحن والموسيقى في كتابه العقد الفريد الجزء الثالث الصفحة ٢٢٩ :

« وقد يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك انها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل فيها على خطيئته ويرقق القلب من خشونته ويتذكر نعم الملكوت ويتمثله في ضميره » .

ويذكر ان ابن عبد ربه قد مال الى حياة اللهو في اول حياته فيشرب الخمر ثم مال الى حياة الزهد فيذكر نفسه بقرب اجله ودنوه من الهلاك ويلوم ذاته على لهوه في إدمان الخمر . يقول مخاطباً نفسه :

اتلهو بين باطية وزير ... وانت من الهلاك على شفير

وقد لازم الأمير عبد الله الذي تولى عرش قرطبة سنة ٢٧٥ هـ ونادمه زمنا ومدحه بمدائح فلما مات الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ تولى

بعده عبد الرحمن الناصر أول من لقب بأمير المؤمنين فاتصل به ولازمه ومدحه وقد درس ابن عبد ربه فيما يظهر من عقده ومن الأخبار عنه العلوم المعروفة في ذلك العصر من نحو وعروض وشريعة وتاريخ وادب .

ترى اثر هذه النزعة العلمية ظاهرا في عقده من حيث مواضيعه وأبحاثه وتصنيفه وتبويبه وعدم تطرف صاحبه في كثير من المباحثات ذات الوجوه المتعددة التي اثرت في العقد واعتداله في الرأي وحججه عند إبداء وجهة نظره .

توفي ابن عبد ربه بالفالج سنة ٣٢٧ هـ بعد أن عمّر إحدى وثمانين سنة وشهراً .

منهج كتاب العقد الفريد :

أوضح ابن عبد ربه منهجه في التاليف في مقدمة الكتاب قائلا :

« وقد الفت هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من تخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب ، وقد قالوا : « اختيار الرجل وافد عقله » وقد الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلا على اللبيب اختياره وقال افلاطون: « عقول الناس مدونة في أطراف اقلامهم وظاهرة في حسن اختيارهم » . فتطلبت نظائر الكلام واشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الادب ونوادر الأمثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته بابا على حدته ليستدل الطالب للخير على موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب .

وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار اشرفها جوهراً وأظهرها رونقاً والطفها معنى واجزلها لفظاً واحسنها ديبجة واكثرها حلاوة آخذاً بقول الله تبارك وتعالى :« الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه »

وسميته كتاب العقد الفريد لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام وجزأته على خمسة وعشرين كتابا كل كتاب فيها

جزآن خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتابا كل كتاب فيها باسم جوهرة من جواهر العقد :

١ ــ كتاب اللؤلؤة في السلطان
٢ ــ كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها
٣ ــ كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد
٤ ــ كتاب الجمانة في الوفود
٥ ــ كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك
٦ ــ كتاب الياقوتة في العلم والادب
٧ ــ كتاب الجوهرة في الأمثال
٨ ــ ثم كتاب الزمردة في المواعظ والزهد
٩ ــ ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي
١٠ ــ كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب

١١ ــ كتاب العسجدة في كلام الأعراب
١٢ ــ كتاب المجنبة في الأجوبة
١٣ ــ كتاب الواسطة في الخطب
١٤ ــ كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور واخبار الكتبة .
١٥ ــ كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وايامهم .
١٦ ــ كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .
١٧ ــ ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم .
١٨ ــ كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .
١٩ ــ كتاب الجوهرة الثانية في اعاريض الشعر وعلل القوافي .

٢٠ ــ كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه .
٢١ ــ كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن .
٢٢ ــ كتاب الجمانة في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين .
٢٣ ــ كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الانسان وسائر الحيوان .
٢٤ ــ كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب .
٢٥ ــ كتاب اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح .

ميزات كتاب العقد الفريد :

استقى ابن عبد ربه أبواب عقده من مصادر عديدة نذكر اهمها ، عيون الاخبار لابن قتيبة ناهجاً منهجه بالتبويب والترتيب. يقول جبرائيل سليمان جبور في كتابه « ابن عبد ربه وعقده » صفحة ٥٧ :

« ابن عبد ربه تأثر بابن قتيبة بالتبويب والترتيب والتسمية » ونظراً لما تميز به هذا الكتاب من حسن ترتيب وتبويب وذوق في الاختيار يعتبر مصدراً تاريخياً مهما رغم حذفه للأسانيد من اكثر الأخبار يرجع اليه الباحثون والمتأدبون والقاصدون للاطلاع على ما تركه الرواة الأقدمون كالأصمعي وأبي عبيدة والعتبي والشيباني وغيرهم الذين ذكر العقد الفريد رواياتهم ولم تظهر آثارهم في كتب مستقلة .

ويعلل الباحث جبرائيل سليمان جبور لحذف الاسانيد من الاخبار التي ينقلها ابن عبد ربه في عقده قائلا « هذا راجع الى غاية المؤلف الادبية التي يضعها فوق الغايات الاخرى » .

وعناية ابن عبد ربه الادبية بادية في كتابه فهو يتبع لطيف المعاني وجميل الأخبار وجزيل اللفظ وممتع الخبر واعذب الشعر قال « تطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الادب ونوادر الامثال ثم قرنت كل جنس منها الى جنسه فجعلته باباً على حدته » .

ولا نستغرب هذا الذوق الادبي من شاعر كابن عبد ربه يبرز عنايته بالشعر وتخيره في كتابه العقد الفريد فاهتمامه في الشعر يتجلى في إفراده كتاباً خاصاً هو الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه وهناك كتاب آخر اسمه الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي.

الأسباب التي دفعت ابن عبد ربه الى تأليف هذا الكتاب :

يذكر ابن عبد ربه ان الدافع الى تأليف الكتاب هو دافع علمي ادبي لانه يقول : « احتذيت حذو أهل العلم قبلي الذين بحثوا في مثل هذه الأمور التي تعرضت لها في العقد فبعضهم اكثر واطال وبعضهم الاخر اساء الاختيار والجمع والتبويب » فجعل كتابه يمتاز بما فيه من تبويب وترتيب وذوق رفيع .

منتخبات من كتاب العقد الفريد :

في قراءتي للعقد الفريد وابوابه الممتعة وقفت طويلا عند « كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومخارجه » ونقلت هذه النصوص الجميلة التي تشهد لمن اختارها بالذوق الرفيع والحس المرهف .

ففي باب قول العرب في المديح روى ابن عبد ربه قال : ـ قال الحطيئة لما حبسه عمر بن الخطاب في هجائه للزبرقان بن بدر أبياتا يمدح فيها الخليفة عمر ويستعطفه فلما قراها عطف له وأمر باطلاقه وعفا عما سلف منه ومن هذه الأبيات ما جاء في الجزء الخامس من العقد الفريد صفحة ٢٩٣ :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
انت الامام الذي من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهى البشر

تشهد بسلامة حسه النقدي منها : قيل لابي عمرو بن العلاء اي بيت تقوله العرب اشعر ؟ قال البيت الذي اذا سمعه صاحبه سولت له نفسه ان يقول مثله . ولان يخدش انفه بظفر كلب اهون عليه من ان يقول مثله

وقيل للاصمعي اي بيت تقوله العرب اشعر ؟ قال البيت الذي يسابق لفظه معناه . وقيل للخليل اي بيت تقوله العرب اشعر ؟ قال البيت الذي يكون في اوله دليل على قافيته . وقيل لغيره وأي بيت تقولهالعرب اشعر ؟ قال البيت الذي لا يحجبه عن القلب شيء واحسن هذا كله قول زهير :

وان احسن بيت انت قائله ... بيت يقال اذا انشدته صدقا

ثم يضعنا ابن عبد ربه في باب من اخبار الشعراء في الجزء الخامس من صفحة ٣٧٥ – الى ٣٧٦ وفي هذا الباب يقدم لنا ندوة أدبية تضم شعراء لامعين يدلي كل منهم بدلوه فيغترف أروع الأبيات ثم يقص علينا ما يجري في هذه الندوة الطريفة من حوار ممتع فيقول : – حدث دعبل الشاعر انه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس في مجلس فقال لهم ابو نواس : – ان مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا ، منير ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل واحد منكم بأحسن ما قال ولينشده . فانشد ابو الشيص فقال :

وقف الهوى بحيث انت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
اجد الملامة في هواك لذيذة ... حباً لذكرك فليلمني اللوم

قال فجعل ابو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه حتى أنشد مسلم ابياتا من شعره الذي يقول فيه :

فاقسم انسى الداعيات الى الصبا ... وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بأيديها ثمار نحورها ... كأيدي الأسارى اثقلتها الجوامع

قال دعبل فقال لي ابو نواس هات ابا علي وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة فقلت باسيدي ومن يباهيك بها غيري فانشدته :

أين الشباب واية سلكا ... ام اين يطلب ضل ام هلكا
يا ليت شعري كيف صبر كما ... يا صاحبي إذا دمي سفكا
لا تطلبا بظلامتي احداً ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

ثم سألناه ان ينشد فانشد ابو نواس :

لا تبك هنداً ولا تطرب الى دعد
واشرب على الورد من حمراء كالورد
كاساً إذا انحدرت في جلق شاربها
وجدت حمرتها في العين والخد
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها
خمراً فحالك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من بينهم وحدي

ولا ينسى ابن عبد ربه في هذا الكتاب ان يطوف في رياض الشعر فيقطف من كل غرض أنضج الثمار ففي قول العرب في النحول قال :

قال عمر بن ابي ربيعة القرشي يصف نحول جسمه وشحوب لونه في شعره الذي يقول فيه :

رايت رجلا ايما اذا الشمس عارضت　　فيضحي وايما بالعشي فيحضر
اخا سفر جواب ارض تقاذفت　　به فلوات فهو اشعث اغبر
قليلا على ظهر المطية شخصه　　خلا ما نفى عنه الرداء المجد

« من الجزء الخامس من العقد الفريد صفحة ٤٠١ »

ومن اطرف قولهم في التوديع ما قال علي بن الجهم وقد اورده ابن عبد ربه في عقده من الجزء الخامس صفحة ٤١٠ .

يا وحشتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق احبابه فما انتفعوا　　بالعيش من بعده وما انتفعا
يقول في نايه وغربته　　عدل من الله ما صنعا

ومن روائع العرب في وصف الرياض يقدم ابن عبد ربه قول البحتري في الوصف وذلك في الجزء الخامس صفحة ٤١٩ :

قطرات مـن السـحاب وروض نشـرت ورودهـا عليـه الخدود
فكان الحـوذان والأقحـوان الفض نظمـان لؤلؤ وفريـد

واورد للبحتري ايضا وصفه لدمشق :

اذا اردت ملات العين مـن بلـد مستحسن وزمـان يشبه البلدا
يمسي السحاب على اجبالها فرقا ويصبح النبت في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفـا خضـلا او يانعـا خضرا او طائرا غردا

ثم يأتي ابن عبد ربه بأبيات في وصف الرياض من نظمه فيقول ومن قولنـا : ـ

وما روضة بالحزن حاكها الندى برودا من الموشي حمر الشقائق
يقيـم النـدى اعناقها ويميلهـا شعاع الضحى المستن في كل شارق
حكت ارضها لون السماء وزانها نجـوم كأمثال النجوم الخوافق

انها رحلة فكرية ممتعة في رياض الادب تصقل اللغة وتشحذ القلم للكتابة وليس اجمل من قلادة العقد الفريد بجواهرها الثمينة زينة بديعة لكل قارىء ومثقف يود الاستزادة من كنوز الاباء والاجداد .

* * *

آفاق المعرفة

نافذة على العالم

ترجمة واعداد:
كمال فوزي الشرابي

آداب

●● I (آنا دو نواي ، في وضح الضياء) للكاتب الفرنسي فرانسوا بروش F. Broche ، منشورات لافون ، باريس .

كمال فوزي الشرابي : اديب وشاعر من سورية ، يعمل في مجال الترجمة ، من مؤسسي مجلة « القيثارة » من اعماله « قبل لاتنتهي » ، « الحرية والبنادق » .

في عام ١٩٨٧ أصدرت منشورات لاتيس السيرة الذاتية الممتازة التي كتبها الأديب الفرنسي موريس بارّيس Barrès عن الشاعرة الابتداعية الكبيرة آنا دو نواي Anna De Noailles، وفيها يطلع القارىء على المكانة غير السعيدة دائماً التي كانت تحتلها هذه الشاعرة في حياة باريس العاطفية .

وهاهو الكاتب الفرنسي فرانسوا بروش يحدثنا عن هذه الشاعرة بكتابه الذي أصدره مؤخراً تحت عنوان (آنا دو نواي ، في وضح الضياء) . ذلك ان هذه المرأة المعقدة تستاهل حقا ان تخرج من زوايا نسيان غير منصف ، سواء باعمالها الشعرية المبدعة أو بالدور الذي لا مثيل له والذي ادته في اوساط باريس المثقفة الراقية فيما كان يسمى ـ خطأ ـ « الحقبة الجميلة » .

لنأخذ أعمالها أولا : فمنذ ديوانها (القلب الذي لا يحصى في ١٩٠١) الذي حظي بشهرة واسعة خلال مدة قصيرة ، وحتى مؤلفها (كتاب حياتي، ١٩٣٢) ، أصدرت هذه الشاعرة اكثر من عشرين مؤلفا ما بين مجموعة شعرية ورواية ، وكتبت مئات المقالات ، وكلها تنم عن شاعرية ملتهبة وغنائية متألقة ، كأن ما تكتبه يوحى به اليها ايحاء . تقول : « **لا اشطّب أبداً** » . وهي بذلك قريبة من السريالية التي كرهتها ، اذ أن كتابتها تنبثق شبه آلية ، ومن ينبوع يمكن القول عنه انه لا ينضب . وما من شك في انها قرأت كثيرا : من رونسار الى زولا ، ومن غابرييله دانونزيو الى نيتشه وسواهم من الشعراء ، والمفكرين ، ولكنها لم تكن تأخذ من كل منهم الا ما يلائم هواها . تعترف بذلك وتقول : « **ثمة مغالاة في انتقائي** » . وتضيف « **ما من احد احب بحرارة مثلي / ضوء النهار وعذوبة الاشياء ...** »

شعر ينبع من الغريزة ، ويبتعد عن الفكر التجريدي وحتى عن الاشتغال بالأسلوب . ويقول الاديب الفرنسي اللاذع جول روناو : « **انها تملك كثيرا من العبقرية ، وقليلا من الموهبة** » . ويورد بول ليوتو كلمة قالتها في ٢٢ آذار ١٩٠٣ ، وتصورها تصويرا كاملا حين سألها أحدهم ماذا تحب فأجابت : « **أن اعيش في غابة عذراء !** » .

ذلك أنها لاتهتم الا بـ ((**احاسيس الانسان وروح الارض**)) مع ما تشعر به من سيطرة مفجعة للموت العام بعد ما قاسته من مآس طبعت حياتها العاطفية .

وينقلنا المؤلف فرانسوا بروش فيما هو يكتب عن هذه الانسانة الخارقة الى لوحات جدارية واسعة تمثل ذلك العصر العجيب . ان آنا دو نواي ، وهي أميرة برانكوفان ، تنحدر من أسرة ذات جذور رومانية ويونانية . وقد ولدت بباريس عام ١٨٧٦ . وبزواجها بالكونت ماتيو دو نواي جسدت افضل من اي انسان آخر المجتمع الغريب والعالمي الذي يقطن أجمل شوارع باريس . وكانت لا تسافر الا في افخم حافلات قطار الشرق السريع ، وتقضي الصيف في مصيفها على ضفاف بحيرة ليمان بسويسرا . وتبعث الحياة وتحركها في ابهى القصور والحدائق في الايل دو فرانس . كانت تعيش في مجتمع يغار على تقاليده الارستقراطية ، ويظل أكثر انفتاحا من البورجوازية السطحية ذات اليوتوبيات المغالية . ولم يكن زوجها يمنعها من التردد على الصالونات الادبية والفنية حيث كانت تثير الاقاويل والتعليقات حول تصفيفات شعرها الغريبة وازياء ثيابها المبتكرة وثرثرتها التي لا تنتهي وصداقاتها لرجال السياسة اليساريين الاكثر راديكالية ، واصبحت مستشارة اريستيد بريان ، رئيس الوزراء عدة مرات وحامل جائزة نوبل للسلام ، وتدعي بل تعتقد بأنها اشتراكية ، وتميل الى صحبة الكاتب ليون دوديه !

ذلك أن الصفة الغالبة على آنا هي رغبتها الملحة في الحياة ، وفضولها العاطفي المستيقظ على الدوام . وكالعقل البودليري تريد أن تغوص ((**في أعماق المجهول لتعثر على شيء جديد**)) . وكل شيء يثيرها ويجذبها من موسيقا پادير يفسكي الى فن رودان ، ومن رائدي الطيران كوست وبيلونتي الى بدايات المغني الشهير موريس شوڤالييه في الميوزيك هول ، ومن السياسة الرينانية للجنرال مانجان الى الدراسات البيولوجية لجان روستان . . .

ان مابذله فرانسوا بروش من جهد وانتباه ودقة في جمع المستندات المتعلقة بآنا وتبويبهـا يبرزها حاضرة امامنـا بشكل يثير الاعجاب . آنا الحسناء الرائعة التي كان موريس شوڤالييه يطلق عليها اسم « الزوبعة الانثوية او الانثى الزوبعة » ، والتي كانت تبدو لاندره جيد « فاكهة ــ فاكهة مطبوخة بالسكر ــ لذيذة من الافكار والاحاسيس والصور » .

وكان مارسيل پروست شديد الاعجاب بهذه الكونتيسة التي تثير فتنتها الدوار ، وكما ذهب پروست الى البحث عن الزمن الضائع انطلق فرانسوا بروش مع آنا للبحث عن هذا الزمن ذاته ، ويرينا كتابه الجميل انه عثر فعلا عليه .

●● II (آنا دو نواي والقلب الـذي لا يحصى) سـيرة ومراسـلات لا ليزابيت هيغونيـهـ دوغـوا E. Higonnet - Dugua ، منشورات ميشيل دو مول .

عجيب امر التناقض الذي يحيط بالادب ! لا يقرأه الناس ولا يفكرون في اعادة نشره على الاطلاق ، ولكنهم ينشرون عن اصحابه سيرا مشوقة كهذه السـيرة التي تتحدث عن الشـاعرة الفرنسـية الكبيرة آنا دو نواي ، او يجمعون مراسلات اصحابه في مجلدات ضخمة كهذا المجلد الذي ضم أربعمئة وخمسين صفحة من مراسلات الشاعرة المذكورة .

كانت آنا دو نواي احد اكثر الاصوات تدليلا في مطلع هذا القرن ، واحدى الشخصيات الادبية المرموقة ،كما تدل على ذلك هذه المختارات الهامة من الرسائل التي سطرتها او تلقتها ، والتي جمعتها عن تبحر ومعرفـة وقدمت لها الاديبة الفرنسية اليزابيت هيغونه ــ دوغوا . فمن الشـاعر والمسرحي البلجيكي موريس ماترلنك الذي كان يسبق توقيع رسـائله اليها بكلمات « المعجب والمغرم بك » ، الى مارسيل پروست الذي كان يردد لدى استئذانه بالانصراف من حضرتها « تحت قدميك ، يا سيدتي » ، كانت الكونتيســة تعقد مع معاصريهـا علاقات عاطفية عاصفة لا تخفى

ازدواجيتها على أحد . لقد كانت شاعرة الحواس والانبهارات ، وتشعل بوعي منها او لا وعي العشق بها اينما حلت ، وكان يسهل عليها ان تمنح قلبها اكثر من جسدها كسيدة عظيمة تقتنعبان الحب يموت اذا ما استسلم لارتواء العناق . وكانت زوجة متفانية ، وأما رؤوما قد يذهب الامر بها احيانا الى الشطط ، وبعبارة اخرى كانت تمارس بفن ما سمته شاعرة وروائية من جيلها هي جيرار دوفيل بأنه صداقة الحب . وهذا هو شارل ديمانج ، وهو ابن اخت موريس باريس ، يعشقها وينتحر من اجلها . وهذا هو شاعر شاب اسمه هنري فرانك يقاسمها لسنوات احلامها ، وتطلعاتها ، واحاديثها ، ورسائلها اليومية ، ويكشف لنا لربما عن مفتاح هذا الكبتفي رسالة كتبها في آب ١٩١٠ ، قبل مرضه ووفاته وهو في الثامنة والعشرين من العمر : « **أنا مجنون هذا الصباح : وتلك غلطتك . انا كعصفور احتسى خمراً . انت الهيكل الذي ترتفع فيه اناشيدي ، والهواء الذي ترن فيه ضحكتي ، انت ينبوع دموعي ، والشعلة التي توقد منها حماستي** » . اما موريس باريس ، وهو اكثر انانية ، فقد اهتم بسحره الوحشي في السياسة والادب ، ولذلك خرج منتصرا من علاقة عرف كيف يجعل منها اسطورة لتلاحم الارواح ، اسطورة أوحت تمزقاتها لآنا بروايتها(السيطرة، ١٩٠٣) .

في اثناء الحرب العالمية الاولى ، ادت النساء الراقيات والمثقفات دورهن كمراسلات محاربين واسرى ، وقامت آنا بدورها من كل قلبها ، بما طبعت عليه من اريحية وكرم واصالة . وهنا نقع لربما على اضعف قسم في الكتاب . فالضجر يتملك القارىء قليلا من قراءة هذه الرسائلالحربية . ولكن كيف السبيل الى التعبير عن المتعة الفكرية التي يشعر بها المرء لدى اطلاعه على مراسلات آنا دو نواي مع الكتاب ؟ مع كوكتو وهو ما يزال مبتدئا بكتابه الاول (مصباح علاء الدين) ، ومع فاليري ، الفاوي بطبعه، وهو يعبر عن رغباته الخفية واعجابه الشديد باللجوء الى لغة المجازات . وهذه الكاتبة الشهيرة كوليت لا تنسى في رسائلها ان تذكر آنا دو نواي بان زوجها « **موريس يصعد زفراته عند قدميك** » . وفرنسيس جامس

لا يكف عن الشكوى ، فهي تكتب اسمه خطأ ، ثم « **لا أحب روايتك (الامل الجديد) . وأرى انك لا تعرفين سوى الفناء كالساقية حين لبلاب الصيف يستسلم لسيل برودتها الزرقاء** » . وهو اناني ، نفعي غالبا ما لا يكتب اليها الا لتلبيه في طلب من طلباته كدعمه ، مثلا ، لنيل وسام جوقة الشرف أو مساعدته في الحصول على مقعد في الاكاديمية الفرنسية . ويبقى جورج برنانوس وفيا لنفسه حين يدمدم بلباقة : « **سيدتي ، انا دب ، انا أكثر الدببة اتصافا بصفاتها ، وآسف لاني كذلك ، واجد ان حياة الدببة طويلة لانها تجد فيها متعة ... لم اكد أستطيع وحسب أن أفتح كتابا من كتبك من غير أن أحمر خجلا لاني تركتك تجهلين أنها اعدائي المالوفون منذ عهد طويل ، وانني ادفع عني بكل قواي هذه الضجة الكبرى التي تثيرينها كضجة بحر بعيد أو أوراق تتحرك ، وأن احد اهداف حياتي المسكينة أن ارفضك رفضا قاطعا** » .

حين توفيت آنا دو نواي في الثلاثين من نيسان عام ١٩٣٣ ، انطبق الغطاء الرصاصي للنسيان على اعمالها كما انطبق على تابوتها . ومنذ خمسين عاما وهذه الشاعرة الكبيرة تنتظر ان تولد في ذاكراتنا من جديد. وهي تعود الينا تحف بها الابهة والفخامة والعذوبة في الكتاب الجميل لاليزبيت هيغونيه ـ دوغوا .

●● III خصائصها ومختارات من قصائدها :

ولهذه الشاعرة التي تعتبر افضل الشاعرات الفرنسيات في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين عدة مؤلفات هي على التوالي بحسب تواريخ صدورها : (القلب الذي لايحصى ، ١٩٠١) و (ظل الايام ، ١٩٠٢) و (الوجه المدهوش ، ١٩٠٤) و (الانبهارات ، ١٩٠٧) و (الاحياء والموتى ، ١٩١٣) و (شرف الالـم ، ١٩٢٧) ، بالاضافة الى ماورد من هذه المؤلفات في سياق الدراستين السابقتين .

تقول في قصيدة عنوانها (قربان الى الطبيعة) :

اتكات على جمال العالم
واختزنت براحتيَّ رائحة الفصول .

وفيما يلي ترجمة لقصيدتين من اجمل قصائدها ، وفيها تظهر غنائيتها المتدفقة ورقتها الانثوية وعشقها للطبيعة وايمانها بالحب :

١ ـ مفاجاة

كنت غارقة في تاملاتي . فجاة انكشفت الحديقة
وظهرت دفعة واحدة لحدقتي الملتهبة .
اشاهدها على متع تتفتح :
ضحكة الصيف ، طراوته ، طهره ، غزله !
كل شيء يحركني ، كل شيء يعجبني ، نشوة تفرقني .
اتقدم واقف ، لكان الفرح كان على هذه الشجيرة
وقفز الى قلبي ! ماذا انا بالانطلاق ، بالحب ، بالرائحة الطيبة ،
ويمزج اللازورد سخيا لحمته بجسدي
حتى يبدو لنظري المدهوش على حين غرة
ان عينيَّ هما اللتان تزهوان لا هذه المرجة ،
وانني ، لو اردت ، تحت جفوني المغمضة ،
لا ستطعت ان ارى ايضا الشمس والوردة .

من ديوانها (الانبهارات)

٢ ـ الأثــر

ساتكيء بعزم وقوة على الحياة ،
وسيكون اتصالي بها قاسيا ، وضمتي من الالتحام
بحيث انها ستدفا من قلبي

قبل ان تختطف مني عذوبة النهار .
وسيحتفظ البحر ، في اتساعه على العالم ،
وفي طريق امواهه الشاردة ،
بطعم الي الذي هو حامز وملح ،
والذي يمخر الايام المتحركة كانه مركب .
ساترك من ذاتي في طيات الربى
حرارة عينيّ اللتين شاهدتاها تزهر .
وسيصعّد صرّار الليل ، وهو جالس على غصن عوسج ،
صرخة رغبتي الحادة .
وفي الحقول الربيعية ستحس الخضرة الجديدة
والعشب الفزير على حفافي الوهاد ،
كاجنحة في نبضها وانطلاقها ،
ظلال يديّ اللتين لطالما عانقتاهما .
وستستروح الطبيعة التي كانت فرحي ومملكتي
في الهواء رائحتي الباقية ،
وعلى وَهَن الحزن البشري
ساترك شكل قلبي الفريد .

من ديوانها (القلب الذي لا يُحصى)

●● دوستويفسكي بين المقامرة والابداع ، مقال للبرفسور جاك كاتو Catteau استاذ اللغة والادب الروسيين في جامعة باريس ــ الصوربون ، ومؤلف كتاب (الابداع الادبي لدى دوستويفسكي) .

التحليل النفسي طريقة بارعة لاتخطىء لتفسير عشق دوستويفسكي للمقامرة ، وهذه الطريقة هي مرض العصاب .. فبحسب التحليل

النفسي تتوقف الكرة الصغيرة للعبة الروليت دائما في الخانة السوداء لعقدة أوديب . وكانت العالمة النفسية بولان نوفيلد هي أول من وصف ، تحت اشراف فرويد عام ١٩٢٣ ، التركيب النفسي والمرضي لدى دوستويفسكي تجاه المقامرة . فقد كان الكاتب مسرفاً وحتى مبذراً في صرف الاموال ، على العكس من ابيه الذي كان بخيلا حتى الشح في الحرص على امواله . ويعود سيغموند فرويد في دراسته عام ١٩٢٨ وعنوانها (دوستويفسكي وموت الاب) الى التحليل الذي قامت به تلميذته والى التعمق فيه ، فالمنصاب لدى دوستويفسكي هو مصدر جنونه وصرعه اللذين يعبران عن القصاص الذاتي للرغبة في موت الأب .

قد لايوافق بعض الدارسين فرويد فيما ذهب اليه ، وهذا يخرج عن نطاق بحثنا . ولكي يفسر فرويد عشق المقامرة يترك فجاة دوستويفسكي ، ويقامر بالانتقال الى ستيفان زفايغ ، فيحلل قصته (تشوش العواطف) ويستنتج انها بديل لجلد عميرة . وتدعو الفرضية التي عبر عنها فيما بعد بهذا القرار الهلوائي الى الاستغراب . يقول :

« اذا كان عشق المقامرة ، مع الصراعات الباطلة للتخلص منه والفرص التي يتيحها لانزال القصاص الذاتي بصاحبه ، يشكل تكرارا للاكراه على الاستمناء ، فاننا لانستغرب ان يشغل في حياة دوستويفسكي هذا المكان الكبير . ولا نعثر على اية حالة من العُصاب الخطير لم يـؤد فيها الاستمتاع الجنسي الذاتي للطفولة الاولى والبلوغ دوره » .

ولكن لماذا لم يستثمر فرويد روايتي دوستويفسكي اللتين يعالج فيهما المقامرة وهما (المقامر) و (المراهق) ، وقد كتبت الاولى عام ١٨٦٦ في أوج تعلقه بلعبة الروليت ، والثانية مابين عامي ١٨٧٤ ــ ٧٥ وقد انطفأ لديه الولع بالمقامرة ؟ ولماذا لم يتعلق الكاتب الروسي بها الامن عام ١٨٦٣ الى عام ١٨٧١ ، وليس قبل هذا التاريخ ولا بعده ؟ ولماذا تتلاءم هذه الحقبة مع اقاماته في اوروبا ، ومع اوقات اضطرابه العاطفي والاخلاقي ؟ وماهي العلاقات بين الحاجة الى المال والمقامرة ، وبين المقامرة والابداع الادبي ؟ وبدلا من وصف عشق المقامرة بانه «انحراف»

ــ وهذه كلمة فرويد ــ في العاب اليد ، الا يجب ان نرى فيها تحديا يائسا للقدر ؟ وفي ايامنا لم يعد اتباع فرويد يرضون عن هذا التضييق في معنى الليبيدو Libido ــ وهي طاقة حيوية شبقية في جوهرها تتمثل فيها غريزة الحياة ــ . وهكذا فان العالم اوتو فينيشيل Fenichel في مؤلفه (النظرية التحليلية للامراض العصابية) يكتب ان المقامرة ، في جوهرها ، هي **« تحدٍ للقدر الذي يقرر ان يكون لصالح الفرد أو ضده »**، وانه لتحدٍ يطلقه الفرد ضد الآلهة . فالافضل ان يخسر المرء ويدمر من ان يحتمل طويلا حكم القدر وقسوته . وهكذا فــان المقامــرة لدى دوستويفسكي هي عشق قدري بمعنى انها تحدٍ مفجع للقدر وأمل مجنون في ان يسعفه هذا القدر . والمجازفة قد تؤدي الى النجاح او الــى الفشل ، وقد تؤدي احيانا الى الموت .

كان الناس في الصالونات الارستقراطية بروسيا القيصرية يقامرون كثيراً وبمبالغ ضخمة . ويعد الادب الروسي في القرن التاسع عشر من رواية « بنت البستوني » لبوشكين الى (المراهق) لدوستويفسكي منجما للتعابير المستعملة في العاب الورق والحظ . وغالبا ما كان القدر يظهر بوجه شاب او سيدة او ملك . وكان المقــامرون يستدينون ، أو يدمرون انفســهم ، او يبيعون املاكهم الواســعة أو ينتحرون . ونذكر ان الكونت الشــاب تولستوي لطالما حارب عشقه الرهيب لاوراق اللعب ، وذلك في شخصية نيكولا روستوف في روايته (الحرب والسلام) . وبما ان لعبة الروليت كانت ممنوعة في روسيا ــ في بدء الستينات من القرن الماضي ، وقد منعت بعد ذلك في فرنسا ، ثم في المانيا عام ١٨٦٨ ــ فان الارستقراطيين الروس الاغنياء كانوا يذهبون الى مدن المياه الالمانية كبادن ــ بادن ، وهومبورغ ، وفيسبادن ، او الى المدن السويسرية كساكسون ــ لي ــ بان ، بالقرب من جنيف . ومنذ عام ١٨٧٢ بدأوا يتوافدون الى مونت كارلو . وكان هناك نوعان من الهواة ، وصفهما دوستويفسكي وصفا دقيقا ورائعا في مطلع روايته (المقامر) : اولئك الذين تستهويهم اللعبة ، ويحتفظون بمظهر اللامبالي ، او يختبئون ليقامروا (كما هي الحال مع الاديب غونتشاروف)،

واولئك الذين قدموا ليجربوا حظهم ، فاصيبوا بعدوى المرض فجاة مع ما فيه من اعراض : شحوب الوجه ، الرجفان ، تخاذل الساقين ، ارتفاع في نبضات القلب ، نظرات ثابتة ، انصراف كلي الى مجرى اللعب ... وكان دوستويفسكي احد هؤلاء المقامرين .

★ ★ ★

لا شيء يدعو الى الاستغراب للوهلة الاولى ما دامت طبيعة دوستويفسكي المرضية تقوده الى ذلك . وباعترافه الصريح نجد انه كان على الدوام يميل الى عدم الانضباط ، والافراط ، ولا يدري كيف يتوقف ، ويعدو الى اقصى الحدود . ثم انه عاش انفعالات قوية : التعرض للاعدام ، السجن ، الصرع . وكانت روحه بحاجة الى عواصف وانفجارات وتصميمات لنبذ جميع انواع الضغوط على الكائن . وكان « الظمأ الى المخاطرة » يكمن في جوهر نفسه ، ويتوالد باستمرار . ويشير بطل(المقامر) الى ذلك ببساطة : **« اربما بعد ان تمر الروح بعدد كبير من الاحاسيس ، لا يمكنها ان تشبع منها ، بل تثار بها فقط فتتطلب احاسيس جديدة تزداد عنفا حتى التلاشي الكلي »** .

وثمة ايضا مصادفات تصنع القدر . فرواية دوستويفسكي الاولى (الناس الفقراء) لقيت نجاحا هائلا في عام ١٨٤٦ ، بينما القصص التالية لفترة ما قبل السجن قد استقبلت استقبالا سيئا من قبل النقاد . وكذلك كان الربح الاول الذي حققه الكاتب في الروليت ــ وكان ذلك في ڤيسبادن عام ١٨٦٣ ــ مدهشا اذ بلغ عشرة آلاف واربعمئة فرنك ذهبي . ولماذا لا نصدقه ما دام هو نفسه واثقا بـ « سره » . يقول : **« ان ذلك في منتهى الغباء والبساطةويقوم على ان يحتفظ المقامر بهدوئه ورباطة جاشه وبروده مهما تكن مراحل اللعبة . هذا كل ما في الامر ، والخسارة تكون عند ذلك مستحيلة ، ويكون المرء واثقا بالربح »** . ذلك هو المنهج الذي اسرّ به الى اخت زوجته ڤارڤارا كونستان وارسل اليها قسما من ربحه لتعطيه الى زوجته واخيه . تناقض غريب من رجل لا يتعلم شيئا مما يقوله ككاتب :

فمؤلف (ملاحظات مكتوبة في القبو) يؤكد في الواقع ان المخلوق البشري لا يطيع عقله ، ولا منفعته الشخصية على العموم ، وان المقصود ، مهما يكن الشن ، وبحسب قدرته ، هو المطالبة بحريته المطلقة ! وبالطبع لم يتقيد دوستويفسكي بمنهجه اذ خسر في ڤيسبادون نصف أرباحه . وهكذا تركه القدر يربح ليحسن تجريده .

وسيخسر في كل مكان يقامر فيه : في ڤيسبادن ، وبادن ــ بادن ، وهومبورغ ، وساكسون ــ لي ــ بان . ورهن معطفه ، وخاتم خليلته ، ثم حليها ، وثياب امرأته الثانيـة . واقترض من زملائه تورغنيف ، وغونتشاروف ، وهرزن ، واوغاريـف . واذل نفسـه ، واستجدى اصدقاءه ، وناشريه ، وقضى اياما بأكملها في مركز البريد بانتظار حوالة قد تأتي أو لا تأتي الخ . ولدينا صورة سريعة عن وضعه نفني عن جميع الاوصاف : نفي١٨٦٥ ، وفي ڤيسبادن ، خسر كل مايملكه من مال في الروليت ، وهاهو ذا محاصر في فندقه ومامن كوبيك لديه ، حتى انـه لا يستطيع دفع ثمن طابع ، وحرمه الفندق من الشموع ، وصار يتغذى بالشاي وحده ، ويتظاهر امام نظرات الخدم الالمان اللائى بالازدراء انـه يذهب الى خارج الفندق ليتناول طعام الغداء من السـاعة الثالثة حتـى السادسة ، وماتبقى من وقته كان يقضيه بلا حراك في القراءة كي لايوقظ شهيته الى الطعام .

ولكنه كان مع ذلك يربح مبالغ جيدة احيانا وبمثل لمح البصر . هنا نصل الى نقطة اساسية . ففي حياته التي كانت سباقا الى المال الذي لايحسن الحفاظ عليه ، كان مقتنعا في اعماقه بأنه لايكسب مالا الا في انعدام النقاء ، او في الربا ، او في المضاربات المالية . . او في هبة تأتيه من السماء . هناك حظان في الوجود : الميراث ، وخصوصا في (المقامر) حيث الجميع ينتظرون أن يرثوا العمة العجوز (البابولينكا) التي تأخذ في اللعب بدورها ــ والواقع ان الميراث يبقى ، في بقية الروايات ، الرهان المنتظر والمن السماوي المنقذ ــ . . . والروليت . ويعبر بطل (المقامر) عن ذلك باستخفاف وتهكم : « اذا كانت قابلية اكتساب الرساميل قد

دخلت في التعليم الديني لفضائل الانسان الغربي المتحضر وجداراته » فانّ الانسان الروسي « **ليس عاجزا فحسب عن اكتساب الرساميل بل انه يبعثرها ايضا ذات اليمين وذات الشمال .. فنحن الروس بحاجة الى المال ، ولذلك فنحن متعلقون بوسائل اكتساب هذا المال كالروليت ، حيث يمكن المرء ان يحصل على ثروة فجاة وخلال ساعتين من دون ان يعمل »** . هذا المفهوم للمال الضروري الكريه هو دائم الحضور لدى دوستويفسكي . وهناك صفحة من دفاتر (المسوسون) تشير اليه ايضا : « **انظروا الى الراسماليين الروس ورساميلهم : كما لو ان كل شيء قد تم ربحه في الروليت فالاب حصل على الملايين لا باختزانها واستثمارها بل بحيلة ما . ومعظم رساميلنا هي نتيجة الاعيب من الشعوذة والخداع »** .
وحلم الحصول على المليون هو موضوع رواية (المراهق) ، وهي رواية مضادة للمقامر : محاولة جمع الراسمال بطريقة افضل من طريقة الاب الاحمق ، والتمسك بهذا الراسمال ، والحرمان لاجله من كل شيء .. وذاك هو فشل الفكرة الروتشيلدية : فالمراهق سيهرع الى جحيم دور القمار الخفية ! وقد هدهد دوستويفسكي هذا الحلم الساذج منذ البداية . وفي جوابه عام ١٨٦٣ على رسالة اخيه التي يلومه فيها بانه يقامر يقول : « **ذلك أن المال لازم من اجلي ، ومن أجلك ، ومن اجل زوجتي ، من اجل كتابة رواياتي . هنا يربح المرء من لا شيء عشرات الالوف . واذا كنت قد ذهبت فلكي انقذكم جميعا واقيم حاجزا بين التعاسة وبيني »** .

في الثامن والعشرين من نيسان عام ١٨٧١ ، وحين خسر الثلاثين تالر — نقد الماني — الاخيرة التي ارسلتها اليه زوجته الثانية ، وادعى انه تخلص من هذه « النزوة الكريهة » التي عذبته ، كتب اليها : « **خلال عشر سنوات او بالاحرى منذ وفاة اخي ، ومع كل الديون التي ارهقتني ، لم اكف عن الحلم بالارباح . كنت احلم بها بكل ما لدي من جدية وشغف . والآن كل شيء انتهى . وكانت هذه هي المرة الاخيرة بكل تاكيد . هل تصدقين يا آنيا أن يدي الآن حرتان . كانت المقامرة تقيدني ، والآن سافكر في العمل ، ولن أحلم ليالي بأكمالها بالمقامرة كما كان يحدث لي »** . ونستشف خلف

السطر الاول ما يحويه السطر الثاني من شغف بعملية المقامرة . ووفى دوستويفسكي بوعده . ففي باد ــ ايمس حيث كان يقيم لمعالجة الانتفاخ في رئتيه ، وذلك من عام ١٨٧٤ الى عام ١٨٧٩ ، لم يفوه شيطان المقامرة . وصحيح ان دور اللعب كانت في تلك الحقبة قد أغلقت بالمانيا الا انه كانت ما تزال توجد مدينة ساكسون ــ لي ــ بان او حتى موناكو على بعدهما ، الامر الذي لا يقف حائلا دون السفر اليهما من قبل انسان يعشق المقامرة .

في كل مرة كان دوستويفسكي يقامر فيها ، كانت الكوارث المالية تنهال عليه . ففي عام ١٨٦٣ منعت مجلته (الزمان) من الصدور . وفي عام ١٨٦٥ افلست مجلته الثانية (العصر) ، وكان يدير شؤونها بمفرده ، بعد موت زوجته واخيه في عام ١٨٦٤ . وكتب آنذاك : « **وهكذا وجدت نفسي فجاة وحيدا ، وشعرت بالخوف . انكسرت حياتي شطرين : في الشطر الاول الذي انقضى كان يوجد كل ما عشته ، وفي الشطر الاخر ، الذي ما يزال مجهولا ، ظهر جديدا كل ما كان لدي غريبا ، وما من قلب يحل محل القلبين اللذين فقدتهما . . كل ما حولي اصبح جليدا وصحراء** » . في عامي ١٨٦٧ و ١٨٦٨ اضطر الى سلوك طريق المنفى الى اوروبا ، فالدائنون اخذوا يحاصرونه بعد نجاح روايته الرائعة (الجريمة والعقاب) . . . وبلغ عشق المقامرة لديه ذروته في هومبورغ ، وبادن ــ بادن ، وساكسون ــ لي ــ بان ، وذلك لسنة وحيدة هي ١٨٦٧ !

وضاعف من شقائه الانفعالي والمادي قلق عاطفي ، حيث يجد الجنس دوره لديه . فماريا ديميتريفنا ، التي تزوجها في سيبيريا ، كانت مريضة وغريبة الاطوار ، وقد توفيت بالسل بعدما قاسى ما قاساه من تصرفاتها الشاذة والظالمة . وتلقى رسالة ملتهبة من ابوليناريا سوسلوفا ــ وهي پولين روايته المقامر ــ وقد اصبحت خليلته في عام ١٨٦١ او ١٨٦٢ . وكانا قد اتفقا على اللقاء بباريس في عام ١٨٦٣ . وفي اثناء ذهابه اليها مر بڤيسبادن وقامر للمرة الاولى بلعبة الروليت . ولم يصل الى باريس الا « متأخرا جدا » بحسب اقوال پولين التي نفد صبرها من انتظاره فاستسلمت لذراعي طالب اسباني اسمه سلفادور ، ما لبث ان تخلى

منها وولى هاربا . ومع ذلك جرت بين الكاتب وبينها مصالحة افلاطونية ــ مع غيظه منها وعلى الرغم منه ــ ، ثم رحلا معا الى بادن ــ بادن حيث استبد به عشق الروليت . ومن السهل تصور العواطف المتناقضة التي تمزقه : وخز الضمير لانه يخون زوجته المريضة ، الخجل من كونه يعيش حبا قلقا ينعدم فيه النقاء ، لكن كان لديه احساس بالتحرر الجنسي ، وبالسعادة لانه يحب امراة فتية تصغره بعشرين عاما ، وهي امراة تعتد باستقلالها الذاتي وتتميز بعدم التعصب والعاطفة المشتعلة ، اضف الى ذلك عذابه من انها استبدلته بطالب متجامل ، واحساسه بمرارة العذوبة في المصالحة ، وشعوره المضاعف بالخزي والاذلال في « انانيته وكرامته العملاقتين » ــ وهذه هي كلماته ــ تجاه هذه المراة المستبدة التي تشبه سالوميه ... وهكذا كانت ابوليناريا أو بولين والروليت تشكلان معا لديه سكرة المغامرة ، ورهان العشق ، والهاوية التي وقف على حافتها ، والاستسلام الرهيب واللذيذ للدوار ، أي كل مايمكن وصفه بأنه هروب الى الامام .

واصبح دوستويفسكي من عام ١٨٦٣ الى نهاية عام ١٨٦٦ وحيدا من جديد ، ويمثل صورة غريق عاطفي يحاول ان يتمسك بأي ثمن بخشبة حب طافية . انه الطالب الابدي للزواج . تقدم بخمسة أو ستة طلبات ليربط مصيره بمخلوقة ولكن طلباته كانت ترفض ، وفي كل مرة كان يحاول تسويغ الرفض بذكاء او لا مبالاة . ونلاحظ ان الطلبات كانت توجه الى نساء فتيات اذ كان مفتونا بمن يصغرنه بعشرين عاما على الاقل . ولاحظت ذلك شقيقته ورسمت له مخطط زواج باحدى الارامل .ولكن دوستويفسكي

كان نافد الصبر . وفي ٤ تشرين الاول عام ١٨٦٦ استخدم مختزلة فتيه هي آنا سنيتكينا ليملي عليها روايته (المقامر) ، وهي رواية يمكن وضعها من حيث الاتجاه العام للحب والمال في نطاق (الفارس ده غريو ومانون ليسكو) للاب بريفو . وفي الثامن من تشرين الثاني عرض عليها الزواج فقبلت بكل سرور . وفي هذا الجري وراء الفتيات يوجد تهافت وتصميم يشكلان مزيجا من الشقاء العاطفي والنهم الجنسي ، ومن الدور الانفعالي وقابلية

الحب . لذلك نستطيع ان نستنتج انه كان لدى دوستويفسكي نوع من انواع الموازاة ما بين الحياة الحميمة وعشق الروليت ، هذا العشق الذي يشكل هو ايضا زوبعة منطلقها اليأس والجنون .

* ★ *

ولم ينطفىء الشغف بالروليت فجاة بعد الزواج عام ١٨٦٧ بل لقد جرى صراع بينه وبين حب دوستويفسكي المتزايد لزوجته الفتية . واستطاعت ان تدرك انه كان ثمة مظهران في هذا الشغف آلماها : هاجس المقامرة وعملية المقامرة . ولاحظت ما اطلقت عليه اسم « التأثيرات الخيرة » للروليت ، على اعتبار ان دوستويفسكي كان يعود من مقامراته مفلسا ولكن هادىء النفس ومقررا ان يعمل . وكان هاجس اللعب لديه مزلاجا قضى ثماني سنوات لكسره . ولم يكن الامر كذلك فيما يتعلق بعملية اللعب . ان يترك سأم دريسدن وجنيف ، ويهجر وجودا مثقلا بالعمل الدؤوب ، وعزلة ثقافية فرضها عليه النفي ، ليذهب الى مدينة للقمار ، كان ذلك كله يشكل لديه تحررا نفسيا . ان يحيا الحلم ، وان يشعر بروح المخاطرة ، وان يخرق التقاليد السائدة ، وان يدخل في لعبة المغامرة التي تعيد خلق الخطورة في عدم المساواة لديه ، كان كل ذلك يبدو له ضروريا . وان يمس اخيرا الاعماق ، وان يسقط منهزما لا يملك شيئا ولكن بعد ان يتحدى القدر ، كل ذلك كان يشكل لديه حاجة حيوية . فعملية المقامرة ، حتى لو منيت بالفشل ، تصبح عندئذ العاصفة التي تغسل السماء المبدعة ـ يتحدث بطل (المقامر) عن الزوبعة ، عن الاعصار ، عن الريح العاصفة ـ . ان عملية المقامرة باعتبارها انفجارا تحرر العبقري . وحين يكون قد خسر كل شيء واذل نفسه واستجدى ، كان دوستويفسكي يولد من جديد ليبدع ، ويخضع ما لديه من « كسل » ومن مشروعات وافكار لعملية الخلق بكل ما فيها من ابعاد . كان كل اشتعال لعملية المقامرة يثير انطلاقا خلاقا لديه ، واغرب ما في الامر انه هو نفسه كان يلاحظ ذلك . وتشير جميع التعابير في رسائله الى علاقة الخسارة في المقامرة بالانتفاض الخلاق . ونكتفي بذكر رسالتين من رسائله فيهما الخبر اليقين . فبعد الخسائر التى منى بها فى

١٨٦٧ ، كتب في الثامن عشر من تشرين الثاني الى زوجته : **« لقد خسرت كل شيء ! كل شيء ، كل شيء ! ... وكوني واثقة بانه قد حان الوقت الآن لاكون جـديرا بك ، ولن اسلبك ابدا مـالا كلص وغد وحقير ! والآن روايتي ، وحدها روايتي يمكنها أن تنقذنا . او انك تعلمين الى اي حد اضع املي فيها . الامر الآن كما كان تماما في عام ١٨٦٥ . من العسير على المرء أن يقترب من حافة الضياع كما اقتربت ، ومع ذلك انقذني العمل » .**

وخرجت من بين أنامله السحرية رواية (الابله) . وهل الاندفاع الاخير بعد خسارة في لعبة الروليت بساكسون ـ لي ـ بان في نيسان عام ١٨٦٨ . يقول : **« لو لم يحدث هذا الامر الحقير الكريه ، هذه الخسارة المجانية لمئتين وعشرين فرنكا لما خطرت ببالي هذه الفكرة المدهشة الرائعة (...) لقد راودتني هذه الفكرة ولم اكن استطيع تنفيذها او لم تحصل هـذه المغامرة المبدئية ، هذه الخسارة الكريهة لآخر ما نملكه من فتاتنا الاخير (...) جاءتني هذه الفكرة حوالي الساعة التاسعة حين خسرت كل شيء ، وانطلقت شاردا في الممرات ـ مثل هذا تماما حصل لي في فيسبادن اذ تخيلت ، بعد ان خسرت ، (الجريمة والعقاب) ، وقررت ان اعقد صلات مع كاتكوف ـ »** .

كان شغف دوستويفسكي بلعبة الروليت شؤما عليه ، ولكنه كان ايضا نبعا للخصب والابداع : عشر سنوات وهو يمد يده في صلاة اخيرة ، وفي تحد فان لإلهة الحظ العمياء ، ولما لم تلبه مد يده نحو الاله الوحيد الذي لباه ولم يخيب امله ولم يخدمه واعني به اله الرواية .

فنـون

●● الموسيقار الاسباني مانويل ده فايا Falla ، حياتـه ، وخصائص موسيقاه ، وتحليل بعض اعماله .

I) حياته وخصائص موسيقاه :

ولد الموسيقار الاسباني مانويل ده فايا في مدينة قادش عام ١٨٧٦ وتوفي في الارجنتين عام ١٩٤٦ . إنه اعظم مؤلف موسيقي اسباني في العصور الحديثة، ويمثل مع المؤلف الموسيقي الهنغاري بيلا بارتوك النزعة القومية في

الموسيقا ، هذه النزعة التي ظهرت بداياتها على ايدي شوپان وموسورسكي في مطلع القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن الحالي ، والتي تطورت بعد ان أخضعت لمعايير علمية قاسية في دراسة العراقة الموسيقية ، ولم تترك سوى مجال كان يتناقص باستمرار امام مافي الفولكلورية التصويرية من جاذبية واغراء . وكان مما دفع ده فايا في هذا الاتجاه التعمق في معرفته للمصادر الموسيقية الايبيرية ، وقد اكتسب هذا التعمق من العالم الموسيقي والفولكلوري الكبير فيليب پيدريل Pedrell اذ كان تلميذه حتى عام ١٩٠٤ بعد ان انهى في قادش ومدريد الدراسات الموسيقية المقررة ، وتأكدت موهبته كمؤلف موسيقي للالحان الشعبية والتقليدية المسماة (السارسويلاس Zarzuelas) . وانتقل من هذا النوع المسرحي الخفيف الى الاعمال الموسيقية الحقيقية وذلك في عام ١٩٠٥ . وكانت (الحياة القصيرة) مأساته الغنائية الاولى في فصلين ، ونال عنها جائزة المسابقة التي تجريها أكاديمية الفنون الجميلة بمدريد ، ولكنها لم تعرض على المسرح الا في عام ١٩١٣ ، وفي فرنسا .

وقادته مهنته كعازف بيان الى باريس في عام ١٩٠٧ ، حيث اقام هناك الى عام ١٩١٤ . وكان لهذه الاقامة نتائج اثرت في تطوره الفني ، فقد تعرف فيها الى الانطباعيين واصبح صديقا لكل من ديبوسي ، ورافيل ، وفلوران شميت ، وبول دوكا . وصنعت منه هذه التجارب الثقافية موسيقيا حديثا ، ودفعته الى تجاوز المذهب الطبيعي الميلودرامي لمأساته (الحياة القصيرة) . وفي باريس تحول الالهام الايبيري لديه ، على طابعه الريفي ، الى موسيقا عالمية وذلك يتمثل الاكتسابات الهارمونية والالية الاكثر حداثة . ويتجلى العمل النموذجي لهذا الاتحاد الوثيق مابين النزعتين الفرنسية والاسبانية في رائعته (ليالٍ في حدائق اسبانيا) .

وفي باريس ولدت ايضا في عام ١٩١٤ (الاغاني الشعبية الاسبانية السبع) للغناء والبيان ، حيث يبدو الالهام القومي اكثر وضوحا واكثر تحررا من التأثيرات الثقافية الفرنسية .

حين نشبت الحرب العالمية الاولى عاد ده فايا الى اسبانيا ، واكد في عمليـه الباليـه (الحب الساحـر ، ١٩١٥) و (القبعـة المثلثة القرون ، ١٩١٩) مانستطيع ان نطلق عليه اسم المرحلة الفنية والزاهية من اسلوبه القومي الاسباني . ففي مظاهر السحر والفتـون للباليه الاول ، وفي المظاهر البورجوازية المضحكة والواقعية للثاني ، يشتمل اللون القومي بفخامة الايقاعات ، والتناغمات ، والنبرات الالية واناقتها . **واسبانيا التي تظهر فيهما انما هي بلاد الاندلس بشكل خاص، وذلك من خلال الانعطافات والانثناءات المـلأى بالعاطفـة فيما يسمى (الغناء العميق Cante Jondo كانتيه خوندو) ، وفي التفجر المتالـق لاغاني الفلامنكو .**

ثم طرأ على اعمال ده فايا اتجاه جديد يتسم بمزيد من التلاحـم والتماسك والمراقبة النقدية الذاتية . وظهرت لديه ، بعد عام ١٩٢٠ ، انطلاقة جديدة لاتقاوم نحو البساطة ، كما لو ان الجانب الدون كيخوتي الهزيل وقسوة الديمومة الشاحبة لسلسلة الجبال المطلة على منطقـة المانش بقشتالة الجديدة يحددان اشكالها . في هذا الاسلوب الجديـد تظهر الاهواء الموسيقية العظيمة للمؤلف ، وقد اتخذت طابعي الدقـة والوضوح الشفاف في اشكالها مما يذكرنا بالموسيقي الايطالي دومينيكو سكارلاتي اولا ثم بالموسيقيين شوپان وهايدن ، اذ لا نعثر في اعمـاله لهذه الحقبة ـ كما يقولهو نفسه ـ على لحن او على جزء من لحن يزيد عن الضرورة او ينقص عنها . هذا المثل الاعلى من التكثيف للوسـائل اللحنية يتبدى على اوجه ونضارته في ثلاثة من اعماله بشكل خاص وهي (مذبح المعلم پيير ، ١٩٢٣) وهي مستمدة من احد فصول دون كيخوته لسرفانتس ، و (الكونشرتو للارغن والالات الخمس ، ١٩٢٦) ،والقصيدة الصغيرة (پسيشه للجوقة والالات الخمس ، ١٩٢٧) . وبينما المؤلف ينطلق في هذه الطريق من تكثيف الالحان ، يعبر الانسان لدى ده فايا عن احساسه الديني العميق الذي كان يسود حياته ويجعله يمر في فترات صوفية . والعمل الوحيد الذي انهاه في هذه السنوات الاخيرة كان التتابع السنفوني لما يسمى (التحيات ، ١٩٣٨) الذي تشكل كل من حركاته

الاربع تحية لكل من الموسيقيين الاسباني آربوس ، وديبوسي ، ودوكا ، وبيدريل .

حين مزقت الحرب الاهلية اسبانيا ، لم ينخدع ده فايا بالمظهر الديني الذي كانت الوحشية الفاشية تختبىء وراءه وتتقنع بالحركة الكتائبية، فغادر وطنه والالم يهصر فؤاده ما إن سمحت له صحته المعتلة بذلك ، وهاجر الى الارجنتين في عام ١٩٣٩ . وعمل في السنوات الاخيرة من حياته في موشحة ملحمية دينية عنوانها (الاطلنتيد) ، وهي عمل تحف به الالغاز وبقي غير مكتمل ، ولا يعرفه من المعجبين به سوى بعض الاشخاص الحميمين . وكان يرى فيه وصيته الفنية والروحية ، وضمنه تحياته للقيم الانسانية ولحضارات البحر الابيض المتوسط وقد كانت جميعا هدف تقديسه الدائم .

II) تحليل بعض اعماله :

١) الحياة القصيرة La Vida Breve : وهي مأساة غنائية في فصلين واربع لوحات ، الفها عام ١٩٠٥ ، ولم تعرض الا في عام ١٩١٣ بمدينة نيس باللغة الفرنسية ، ثم بلغتها الاصلية بمدريد عام ١٩١٤ . وضع كلماتها كارلوس فرنانديث شو ، وتمثل حكاية مأساوية قروية ، تقع احداثها بغرناطة في الزمن الحديث .

تمثل اللوحة الاولى الدخول الى بيت الفجرية سالود Salud في ساحة للفجر ، تشتعل في خلفيتها اكوار حدادة . تشكو سالود العاشقة لجدتها عدم وصول حبيبها پاكو Paco الذي يختلف عنها في المولد والغنى ، ولذلك فهي تعيش في قلق دائم خوفا من ان يضيع منها. تتجاوب مع هذه القطيرات والنذر الحزينة الحان الغناء الذي يصعده الحدادون وفي ايديهم المطارق يهوون بها على سنادينهم ، وهو غناء مفعم بالتصميم والتهديد . ويصل پاكو اخيرا فتشرق الدنيا في نظر سالود . ويبدأ هنا غناء حب ثنائي بين الفتى والفتاة ، يتسم بالعنف والسعادة معا ، بينما يتعارض معه ذم العم سلفاتور ، الغجري الشيخ ، الذي علم ان پاكو ينوي الزواج بامرأة اخرى من طبقته .

بعد لوحة ذات ابعاد والوان بانورامية عن غرناطة ، في ليلة تتالق بالاضواء والاغاني ، يبدأ الفصل الثاني في بيت كارميلا وهي تتهيأ لعيد تحتفل فيه بزواجها من پاكو . وتعلم العاشقة سالود بالنبأ فتهرع الى مكان الاحتفال وقد صممت في يأسها على مجابهة الموقف ، بينما جدتها وعمها يلعنان المحب الخائن . في فناء الدار التي تسكنها كارميلا تتوقف رقصات العرس لدى دخول سالود . لكن توسلاتها واتهاماتها تذهب ادراج الرياح بعد ان نفى پاكو كل علاقة له معها ، فتسقط على الارض محطمة القلب منهارة .

يعبر هذا العمل الاول لمانويل ده فايا ، باسلوبه المزيج ، عن روح الارض والحقبة اللتين انبثق منهما . ولغناء الحداد في الفصل الاول ، وللمقطع الحزين الذي تتجاوب فيه شكوى سالود ، ولحوارها الفردي الاول ، على ايقاع السيغيديا Siguedilla ، وهو ايقاع اندلسي ،وكذلك للوحات الجدارية الواسعة التي تمثل الوان الفسق على غرناطة والتي تصل مابين الفصلين ، ولاغاني الفجر ورقصاتهم ــ لكل ذلك نكهة حقيقية وعبير شعبي . والواقع ان ده فايا ، منذ ان ابدع هذا العمل الاول في شبابه ، قداوضح مقصده في « **اتباع الحان تقترب قدر الامكان من الروح الاسبانية ، وذلك بملاحظة الغناء الشعبي ملاحظة دقيقة** » . ويظهر الطابع الاسباني بكل نبضه وحيويته في هذا العمل عن طريق التأليف الاوركسترالي بالوانه الجمة والمتصفة بمنتهى البساطة . وقد اعاد دو فايا النظر في تأليف هذه الاوبرا بعد ان تعمق في دراسة اعمال ديبوسي الذي كان به شديد الاعجاب .

٢) ليالٍ في حدائق اسبانيا Noches en los Jardines de España :

تشكل هذه الليالي ثلاث ليليات للبيان والاوركسترا هي على التوالي : (في جنة العريف) و (رقصة بعيدة) وفي (حدائق سييرا قرطبة) . الفها ده فايا عام ١٩١٥ ، وهي اول عمل له ذو ابعاد واسعة ترتسم فيه تماما شخصيته المتميزة . وكان قد سبق للحالة الروحية التي تمتح منها هذه الموسيقا وهي « السحر المسكر لليالي الاسبانية » ان الهمت الموسيقار الفرنسي ديبوسي بضع صفحات لايمكن ان تنسى نذكر منها (سهرة

في غرناطة) و (عطور الليل) ، وفي عمله (ايبريا) السلسلة الثانية من (الصور) ، كما الهمت موريس رافيل (استهلال الليل) و (الرابسودية الاسبانية) . فاذا اضفنا الى ذلك كله ان قسما من التعلم والتطور الموسيقيين لده فايا قد حدث في باريس ، فهناك من الاسباب مايكفي لنفهم كيف انتقل تأثير هؤلاء الموسيقيين الفرنسيين الى هذه الليليات الثلاث .

للمرة الاولى ومع (ليالٍ في حدائق اسبانيا) يتحقق تحققا كاملا استعمال الالحان وتحويلها على البيان مع مافيها من غنى اتاح لعازفي القيثارة الاسبانيين ان يستعملوها على آلاتهم . ولنذكر بهذا الصدد ان ده فايا قد كتب مقالا هاما عنوانه (الغناء الاندلسي في بداياته) يفيد بانه يعرف فولكلور بلاده معرفة جيدة ، ويعلمنا بالطريقة التي استطاع بها ان يستعمل في الحانه مافيه من كنوز لاتنفد .

٢) الحب الساحر El Amor Brujo : في عام ١٩١٥ ، طلبت الراقصة باستورا ايمبريو Imperio من الموسيقار ده فايا ان يؤلف لها رقصة واغنية . وكانت والدة باستورا غجرية حقيقية ، متمرسة بالسحر والحكايات الشيطانية . فروت للموسيقار حكايات استطاع بمشاركة الكاتب مارتينيث سييرا ان ينتقي احداها ، ومالبثت ان اتخذت شكل باليه مع اغانٍ تحت عنوان (الحب الساحر) . وقد قدمت للمرة الاولى في مدريد في العام ذاته ، وقامت الراقصة المذكورة بدور كانديلاس Candilas فيها .

بعد ذلك اعاد ده فايا النظر في التوزيع الاوركسترالي لهذا الباليه ، ووجدت الراقصة الشهير ارجنتينا Argentina ان هذا الباليه سيكون احد أهم الادوار التي يمكن ان تؤكد به شهرتها ، وهكذا قدمته على احد المسارح الكبرى بباريس في شهر آذار ١٩٢٨ ولقيت نجاحا منقطع النظير . وانتقل العمل بهذا الباليه الى اوپرا باريس حيث اشترك في تصميم رقصاته الفنان الكبير سيرج ليفار Lifar ، وادى فيه دور الشبح الممثل الايمائي المبدع جورج ڤاغ Wague .

ويتلخص هذا الباليه بما يلي : تمثل التزيينات المسرحية مفارة في مقاطعة غرناطة على شكل دار تسكنها الغجريات . احدى الغجريات ، واسمها كانديلاس ، كانت قد أحبت في الماضي غجريا توافيه المنية ، وكان سببا في تعاستها بسبب غيرته الشديدة عليها . تسكنها ذكراه باستمرار ، وهي تخاف من شبحه الذي يعود ليمنعها من حب كارميلو الجميل ، إذ يقف بينها وبينه في كل مرة تريد أن تضمه بين ذراعيها . ويستبد بها الرعب فتلجأ الى مشورة العجائز الغجريات اللواتي يحرسن التقاليد . تستسلم العجائز الى رقاهن وتعزيماتهن وهن يجلسن القرفصاء حول نار تشتعل في وسط المفارة لطرد الارواح الشريرة . وتقترح غجرية صبية ، اسمها لوسيا ، ان تذهب الى مقابلة الشبح واغرائه ، وهكذا ينقاد اليها لهشاشة حبه . وتلهيه للحظات تكفي لان يتبادل كارميلو وكانديلاس خلالها القبلة التي تحررهما : ذلك أن الحب يجب ان ينتصر على الموت .

يعتبر التوزيع الموسيقي الذي قام به ده فايا لهذا الباليه تحفة بما يحويه من قدرة على استيحاء الاجواء الاندلسية . وغالبا ما يعزف هذا التوزيع في الحفلات الموسيقية ، ويتميز بوحدة خارقة في تنويع المراحل التي يتألف منها : من (استهلال) ذي طابع مأساوي وعنيف ، الى مشهد (السهرة عند الفجر) ، الى (رقصة الرعب) التي تؤديها كانديلاس ، الى (الحلقة السحرية) المشكلة حول المجمر الذي تشتعل فيه النار لطرد الارواح الشريرة ، الى (الرقصة التقليدية للنار) المنبعثة من المواقد ، الى (رقصة ايمائية) قصيرة ثم العودة الى الموضوع العنيف الذي يقود الى الشعور بالكآبة ، وأخيراً (رقصة لعبة الحب) على ايقاع تأخيري للنبرات ، ورنين الاجراس وهي تؤذن بطلوع الفجر وانتصار الحب .

ويسري النسغ الشعبي في اغصان هذه الشجرة الموسيقية الباسقة . وتحملنا موسيقاها على جناحيها النورانيين الى مناخ حار وساحر نستروح فيه ما يحيط بنا من عطور الاندلس الفاغمة واضوائها المتألقة .

انبـاء ثقافيـة عالميـة

● **الأديب الامريكي جيمس هاريسون لا يكتفي بان يكون شاعرا وروائياً فحسب بل هو ايضا كاتب سيناريوهات غزير الانتاج .** وبما ان قابليته او شهوته الى الطعام قوية قوة اشخاصه واسلوبه ، فقد انطلـق مؤخرا في مجال النقد الغذائي . اول سؤال يطرحه في مقالـه (النـيء والمطبوخ) هو : « **اين اختفت الافخاذ ؟** » . وهو يعني طبعـا افخـاذ الدجاج مع ان افخاذ الارانب والدجاج الرومي قد اختفت هي ايضا . لم تعد تقدم هذهالافخاذ في المطاعم الامريكية ، ولم يعد المرء يجد فيها سوى الصدور والاجنحة التي تشبه بطعمها الاعلانات المتلفزة . وبعـد ان قام جيم هاريسون بالتحقيق في هذا الموضوع، تبين له ان الولايات المتحدة قد ارسلت في عام ١٩٩٠ بخمسين الف طن من الأفخـاذ الى الاتحاد السوفييتي . يقول جيم هاريسون بلهجته الساخرة :

« هل نحن في سبيل ارسال ما يقوم بأودنا ؟ ... هل يوحي الينا شبح الكـاتب الانكليزي د. هـ. لورنس باننا نخشى الافخاذ لقربهـا من الأعضاء التناسـلية ... ؟ هل هو الخوف اللاشعوري من مرض الايدز ؟ بالطبع لا . ان ستين في المئة من الافراد الذين تزيد اعمارهم عن ثلاثين عاماً في الولايات المتحدة لم يشاهدوا قط فروجاً حياً » .

● **الكاتب الايطالي امبرتو ايكو ECO اضطـر الى الانتقال من مسكنه ليستطيع ترتيب ما تحويه مكتبته من كتب يبلغ تعدادها ثمانية وعشرين الف كتاب ومجلد .**

ويسمح الممر الدائري في منزله الجديد باحتواء ثلاثين الفاً مـن هذه الكتب والمجلدات . وكثير من مؤلفات هذه المكتبة الضخمة وقف على موضوعات « **اللغات الاجنبية والغريبـة ، والالسنيات الرمـزية ، والأحيائية ، والكتابات السرية ، والعلوم المتعلقة بالمجانين والمهووسين بشكل خاص . وهاجس امبرتوايكو هو البحث عن «كلام كامل او لغة كاملة»** وتسحره جميع الجهود في هذا الاتجاه : من محاولة اعادة بناء « اللغة

الاكاديمية » الى اختراع كلام اصطناعي يمكن ان يعكس العمل الكوني للفكر الانساني . وهو لم يتردد ، في سلسلة المحاضرات التي القاها بجامعة اوكسفورد ، في استعمال مصطلحات رمزية ، من « شجرة فورفوريوس الصوري » ، الى « العجلة السحرية » ، الى الرسائل الكهنوتية حول الكلمات الاولى التي تلفظ بها آدم أمام خالقه ، الى شذرات من اللغات التركيبية ... يقول : **« وكما حاولت ان ابين ذلك فان كل فكرة كان بها مس من الجنون »** . ويرى ايكو ان كل بحث حول الكلام هو تحقيق من تحقيقات شرلوك هولمز . وابحاثه منذ روايته « اسم الوردة » قد لاقت من النجاح ما جعل منه **« رائداً كبيراً من رواد نظرية الرموز والعلامات والدلالات »** .

● **كان لمارك توين مراسل في بوفالو هو جيمس فريزر غلوك ، وهو احد كبار جامعي المخطوطات الامريكية . واكتشفت** حفيدة غلوك بمكتبة بهوليوود وفي احدى الحقائب الست التي تركها لها جدها القسم الاول من مخطوطة (مغامرات هاكل بيري فين Huckleberry Finn) هذا القسم الذي كان قد اختفى منذ ان ظهر الكتاب في عام ١٨٨٤ . ويبدو ان المخطوطة تختلف اختلافاً ملموساً عن الطبعة الاولى اذ أن كل صفحة فيها تحوي تصحيحات وشطباً واضافات ، الامر الذي اولى عمل توين تقديراً افضل باعتباره قد وقف وقته على هذه الرواية منذ ١٨٧٦ الى ١٨٨٣ . وستضاف هذه الـ ٦٦٥ صفحة الى القسم الثاني من رواية توين الشهيرة .

● **اقلق الكاتب الامريكي نورمان مايلر جميع النقاد في مطلع هذه السنة ، اذ ثارت اشاعات حول روايته الجديدة (شبح هارلوت) . ولم يكن الموضوع ، الذي يدور حول اعمال المخابرات الامريكية خلال الـ ٥٥ سنة الاخيرة** ، هو الذي ارعب هؤلاء النقاد بل عدد الصفحات في هذه الرواية الذي بلغ ٩٨٨ صفحة . ولكن ليطمئن النقاد فقد نمي الينا ان عدد الصفحات في الطبعة الامريكية سيصل الى ١٤٠٠ صفحة مأخوذة من مخطوطة يبلغ حجمها ٢٧٠٠ ورقة .

علم النفس الضمني :
ثمرة اطلاع وجهد

ميخائيل عيد

قد يكون امراً نادراً ان نسمع شاعراً يقول للناس : انتم شعراء مثلي . بل اننا نرى عكس ذلك في الحالات المألوفة . فقد نجد شاعراً لا يرى شاعراً سواه حتى بين الشعراء ، وحتى بين العلماء قد نجد عالما يرى ان ابحاثه اكملت دائرة المعرفة وعمقت اسس المعارف كلها .. وكم من النظريات ادعت انها اجابت عن كل الاسئلة التي طرحتها الانسانية وحتى التي قد تطرحها في المستقبل .

ميخائيل عيد : اديب وشاعر من سورية ، يكتب الشعر والقصة والمقالة ، ويهتم بالترجمة ، من أعماله « حكايات واغاني » ، « ملاحم الجبال الهرمة » ، ترجمة « ابطال وطباع » « ادب مقارن » .

أول ما يلفت الانتباه في كتاب علم النفس الضمني الصادر عن وزارة الثقافة لمؤلفيه دانيل ويجنر ، وروبين ڤالتشر ، ترجمة الدكتور عبد المجيد نشواتي هو ان هذين الباحثين يعلنان بتواضع جم : « ان كتاب علم النفس الضمني يمكن ان يستخدم كنص تكميلي في مواد علم النفس الاجتماعي ، كما يمكن ان يكون مناسباً لمواد في الشخصية وفي علم النفس المعرفي » (ص ٦) وهما يريان في جهدهما الكبير الذي بذلاه في تاليف كتابهما محاولة لتنظيم موضوعات علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي بدلالة الموضوع العام لعلم النفس الضمني . (ص ٧) واذ ندخل عالم الكتاب الغني بعد ان اوهمتنا المقدمة باننا سنكون امام ساقيه صغيرة . وقد وقعت بوهم آخر حين ظننت انني استطيع بمثل هذه المقدمــة ان اتغلب على صعوبة الكلام على مثل هذا الكتاب .. وها انا اواجه الصعوبة ذاتها فلا اجد مناصاً من التراجع عن نيتي في ان اقدم عرض وافياً وكافياً للكتاب وان اكتفي بتقديم رؤوس اقلام واشارات الى ابرز الجوانب التي فيه مع الدعوة الى العودة الى الكتاب ، فالعالمان اللذان وضعاه كي يختصر او كي يبسط بل كي يقرأ .. مع انهما قد وضعا عنوانين في المقدمة ارى مفيداً ان اتكىء عليها كما فعلا ، ومن ثم انتقل الى محاولة السباحة في المجرى العام .

يرى الباحثان ان « فهم الفرد للواقع شبيه بنظرية عالم ، وان فهمه للواقع الاجتماعي شبيه بنظرية نفسية ضمنية » (ص ٧) ثم يعمقان هذه الفكرة ويصلان الى القول ان الشخص يستخدم « نظرية شخصية ضمنية » في تشكيل الانطباعات عن الآخرين ثم يتعلمان على التقويم « وهو المكون السلوكي للادراك الاجتماعي » (ص ٧) ليصلا الى الكلام على « نظرية علاقات اجتماعية ضمنية » وعلى التوازن المعرفي ، وعلى « المظهر الرئيسي للواقع الاجتماعي كما يتجلى في شخصية كل فرد الا وهو « الذات » (ص ٧) ومن ثم يتوصلان الى « ان العديد من المبادىء ذات العلاقة بادراك الآخرين تنطبق على ادراك الذات ايضاً » .

ولقد تناولا التفكير الاجتماعي من منظور نفسي اجتماعي ومن منظور تطوري وشخصي ، وقدما مدخلا كلياً للمنظور المعرفي في علــم النفس

الاجتماعي مع توجيه الانتباه الى الاتجاهات النظرية الاخرى .. وكانت « العلاقات بين الادراك والتقويم والسلوك » موضوع بحث معمق في الكتاب .

يتألف الكتاب من مقدمة وسبعة فصول .. ومنذ بداية الفصل الاول نجد انفسنا امام استنتاج مفاده اننا لا نراقب العالم الخارجي وحسب بل نحن نبنيه أيضاً .. فالعالم ليس خارجاً وحسب بل هو خارج يقرأ داخلياً ، وهو داخل يبنى على اساس من استيعاب الخارج، وكثيراً ما تتعارض تفسيراتنا للواقع ، فكل شخص منا « يحل الغاز الواقع بطريقته الخاصة » (ص ١٤) والادراك العام يلعب دوراً في الادراك الخاص إذ : « أن خبراتنا توجهنا لدى بنائنا للواقع » وثمة نظريات ترى أن كل شخص « يسلك وفق إدراكه للعالم المحيط به ، وليس وفق ما عليه هذا العالم في ذاته » (ص ١٥) .

واذا كان بعض الفلاسفة قد ذهب الى القول : « كل انسان فيلسوف » فان علماء النفس الضمني يذهبون الى القول : « كل شخص هو عالم » وهذه المقولة « تشكل حسب زعمنا طريقة مناسبة لاختصار العملية الكلية لبناء الواقع » (ص ٢١) وقد افترض «كلي» ان الناس علماء وان لدى كل شخص حاجة الى فهم عالمه والتنبوء به وضبطه » (ص ٢٢) .

وفي بنائنا للواقع نعتمد على الآخرين عبر تفاعلنا معهم . وتتعقد فكرة بناء الواقع ، ويتعقد تأثير العمليات الاجتماعية علينا .. فالآخرون جزء من الواقع .. وكذلك الاشياء والكائنات .

ويطرح المؤلفان مسألة ضرورة معرفة عملية « بناء النظرية كما يمارسها العالم » فالنظرية « طريقة لبناء مجموعة ملاحظات حول الواقع ووضعها في نظام عقلي يحدد علاقاتها المتبادلة . غير أن النظرية ليست الواقع ذاته ، بل هي مجرد نظام واحد يمكن ان يحل محله عدد من النظم البديلة ، وإن أياً من هذه النظم يفرض بنية مختلفة على الواقع

ويمكن أن يكون صحيحاً » (ص ٣٣) ثم ينفي المؤلفان امكانية توكيد « أن نظرية بمجملها هي « صحيحة » أو « خاطئة » وذلك لسبب بسيط وهو ان النظرية تمكننا من صياغة تنبؤات عديدة ، يمكن ان تخضع جميعها للاختبار » (ص ٣٦) .. اما نظرية الرجل العادي فهي نظرية صائبه في نظره لانها تشكل « جانباً كبيراً منه » فالنظريات التي ندعوها « نظريات ضمنية » هي واقع الفرد ذاته » (ص ٣٨) وكم نزعم ان الشخص الذي يخالفنا الرأي هو « شخص غبي لا يدرك الامور على حقيقتها » (ص ٤٠ — ٤١) ويرى المؤلفان ان اهمية النظرية الضمنية تكمن في « أن فهم النظرية الضمنية لكل شخص يساعدنا على التنبوء بسلوكه » (ص ٤٣) فالتفكير والسلوك يتطابقان احيانا اذ يحاول كل انسان ان يحتفظ « بنوع من الاتساق بين ادراكاته المعرفية » (ص ٤٦) ولكن الرغبة في المنفعة الشخصية قد تؤثر على المنطق ، ومن ثم قد تؤثر على الممارسة ... ويظل سعي الفرد الى الاتساق المعرفي عاملا من عوامل « اعادة بناء فكره وتغيير سلوكه » (ص ٤٨) .

ومع تطور الفكر الاجتماعي يزداد الادراك المعرفي تعقيداً ، ويؤدي التمايز في جانب منه الى تكامل في جانب آخر ، ويشير التمايز الى انفصال الافكار ، يشير التكامل الى ائتلافها .

ونظراً لتفاوت مستوى تطور الناس تتكون فروق بين نظرياتهم النفسية الضمنية ، ويتعذر وجود نظرية ضمنية كاملة .

وعالم النفس الضمني ، كالعالم المحترف ، يحاول « اكتشاف الانتظام في سلوك الناس الآخرين » .. و « الانتظام يمكّن من القدرة على التنبؤ بشكل مباشر » (ص ٥٩) وبهذا تتحدد احدى مهمات هذا العلم ولكي يتم الاكتشاف ينبغي الانتباه الى مصادر المعلومات وكيفية معالجتها والى توقعات الشخص المعني وتحيزه ، ومدى تركيز انتباهه ، ولدى اكثر الناس فكرة جيدة عن توقعات سلوكية من قبل هذا الشخص او ذاك ، وعلى سبيل المثال من المتوقع « أن يكون ابتسام النادل اكثر تواتراً

من ابتسام المعلم ، وما من احد يتوقع ان يكون السياسي او سمسار السيارات المستعملة نزيها على نحو خاص » (ص ٧٣) .

ويناقش المؤلفان اسباب النجاح والفشل ويميزان بين اسباب داخلية واسباب خارجية ، وبين اسباب ثابتة لا تتغير وأسباب متغيرة او يرجع تغيرها . وكثيراً ما نعزو فشلنا الى صعوبة المهمة او الخط ، أو الى نذالة الآخرين ، وأما النجاح فنعزوه الى قدرتنا او الى جهدنا .. وكثيراً ما يجعل الناس الفرق بينهم وبين سواهم منطلقا الى عزو سمات للآخرين تكون سلبية في اغلب الاحيان » .

وحين نلاحظ شخصاً ما فاننا نعزو سلوكه الى اسباب داخلية ثم نستلخص سمات شخصية له ، في حين يرى هذا الشخص ان سلوكه كان استجابة للظروف . وقد ركز علماء النفس « على استخدام السمات للتنبوء بالسلوك » (ص ٩٧) ويرى « جوردون البورت » : انه يمكن ارجاع اثر السمات على نحو مباشر الى نظم محددة العصبونات في المخ ، وهذا يشير الى الحد الاقصى لعملية العزو الداخلي » (ص ٩٧ — ٩٨) .

وكثيراً ما ينشأ العزو الداخلي بسبب من عدم وضوح الاسباب الخارجية وقد ادت النزعة الطبيعية « الى عزو خصائص انسانية او إلهية الى الرعد والبرق » (ص ١٠٥) وإذا لا ندرك تنوع السلوك في الاوضاع المتنوعة نظن ان الآخرين مسؤولون عن عواقب أفعالهم وذلك لاننا « نرى ان السمات او الميول هي سبب السلوك » (ص ١٠٨) وكثيراً ما نتجاهل الجهد حين نكوّن احكامنا : « لا يهم كيف لعبت فالمهم هو هل ربحت أم خسرت » .

وإذ يبحث المؤلفان مسألة النجاح والفشل لدى الذكر والانثى يريان أن « آثار التنشئة الانثوية ما زالت تتبدى بطرق دقيقة » على الرغم من التغيرات التي حدثت . وقد بينت نتائج الدراسات : « ان الأداء الناجح عند الذكور بشكل نمطي الى القدرة ، في حين يعزى النجاح

المماثل لـدى الاناث الى الحظ أو الـدافعية غالباً (ص ١١٩) وفي مثل هذا العزو تحيز واضح جداً .

ويعود المؤلفان الى هذه المسألة في الفصل الثالث من الكتاب الذي عنوانه « تكوين الانطباع » ، فبعد ان يعرضا وجهات نظر العلماء حول مسألة تكوين الانطباع ، هذه المسألة التي تتم عبر اختيارا المعلومات ، وبعد ان يطرحا مسألة امكانية ان يختار الملاحظون معلومات مختلفة عن الفاعل الواحد ، وبعد أن يحللا بنية الملاحظة المعرفية ، والتأثيرات الوضعية كالخوف ، ووضع الملاحظ ، توليد المعلومات والاستدلالات ، يوردان احكاماً عكست استدلالا مفاده ان « المناديات بالمساواة بين الجنسين قبيحات » ولكنهما يرفضان هذا الاستدلال ، اذ لا توجد قاعدة في الواقع لاستدلال كهذا . (راجع ص ١٣٩) وندرك عمق تغلغل العداء لتحرير المرأة في المجتمعات الغربية . اذ يقودنا المؤلفان الى ذلك بكل السبل مع انهما لا يقولان ذلك مباشرة .

ويعرضان أمثلة تشير الى مقدار حاجة الناس ، في كل مكان ، الى التواد والحب وضيقهم بالاغتراب والتنافر . فنتيجة التجارب تظهر أن سمة « ودي » تغطي الكثير من العيوب ، وتظهر أيضاً ترابط الفضائل وقد قال القدماء « كريم القـوم لا يحمل الحقد » وتظهر أيضاً ترابط الرذائل فلا « يحمل الشوك العنب » وكل ذلك قد يكون غير واقعي ولكنه قائم في اذهان الناس ، لان الناس يريدون أن يكون العالم جميلا ومتكاملا .

ويدرسان أصل الاستدلالات التي لا تقوم إلا على قاعدة من المعلومات ثم يتكلمان عن تنظيم المعلومات ويعرضان نماذج استدلالات الصفة ونماذج حكم الشخصية ثم يحللان عملية الادراك التي تتم بالتشابه أو بالاختلاف ومع ذلك يكون إدراكنا الآخرين كشخصيات متكاملة .. ثم يحللان عملية تكوين الانطباعات احادية الجانب عند الاطفال ، والانطباعات التجميعية عند الاطفال الاكبر سناً قبل ان يصلا الى الفروق الفردية حيث يقدمان ملحوظات تربويةغاية في الافادة .

وفي الفصل الرابع يتكلمان على التقويم الذي يعتبر اهم ابعاد إدراك الآخرين ، وهما يريان ان التقويم ذاتي بطبيعته : « فحتى لعدوك الاكثر سوءاً أصدقاء » (ص ١٩١) ومن ثم يصلان الى القول : « يصبح تحمل اخطاء الشخص امراً سهلا في حالة البعد ، بينما لا تطاق الاخطاء نفسها في حالة القرب » وحتى المحبوب الجميل يبدو اجمل على البعد . وكثيراً ما تفسد السلبيات الايجابيات في حين لا تلغي الايجابيات السلبيات .. وقد تفسد تفاحة فاسدة سلة من التفاح . وكون الشخص غير أمين لا يجعلنا نتخذ منه صديقا حتى لو كان ظريفاً جداً (راجع الصفحة ١٩٥) . والانسان يخاف الاذى اكثر مما يحب الاثابة . وكثيراً ما يكون السلبيون في المجتمع مميزين .. وتكوين الحكم سلباً او ايجاباً « يتضمن اختيار المعلومات ذات العلاقة ومعالجتها » واذ نحاكم امراً او حكماً فاننا نهتم بما يفيدنا او يضرنا وكثيراً ما نتجاهل ما لا يفيد او لا يضر .. وحين نواجه الحدث عن قرب يكون تأثرنا به اقوى وأشد .. وكثيراً ما يكتفي الناس بملاحظة « سمة واحدة من اجل مباشرة تقويم عام » وقد ترتبط مسألة التقويم بالجاذبية الجسمية مثلا .. وكثيراً ما ننحاز الى الجميل ونحاول ايجاد تبريرات لاخطائه .. ومن هنا صعوبة تحديد الخصائص الطيبة او السيئة لدى شخص ما .. فالمسألة مرتبطة بنا وبه على حد سواء . ونحن نحكم على المشابه لنا بانفعال وتطرف ونحكم على غير المشابه حكماً اقرب الى الحياد . ويكون للالقاب ايضاً تأثيرها علينا ، وكثيراً ما ننتبه اليها اكثر من انتباهنا الى صاحبها .

ويحلل المؤلفان التشابهات والاختلافات بين علم نفس الشواذ الضمني وعلم النفس الاكلينيكي ويحددان نماذج عنها لا يتسع المجال لعرضها او تلخيصها .. ثم يتكلمان على الدغمائية فيصفان الدوغمائيين بأنهم لا يحتملون الاختلاف في وجهات النظر وانهم يتقيدون تقيداً اعمى تقريباً بالسلطة والقواعد ، وهم يرفضون الذين لهم افكار معارضة(١٤٥)

واذا كان علماء النفس يسعون الى فهم الاخرين ومن ثم الى تقويمهم بغية تنظيم الجماعة واقامة التوازن بينها في إطار العلاقات المجتمعية فان المؤلفين يعملان على ايضاح اسس نظرية العلاقات الاجتماعية الضمنية